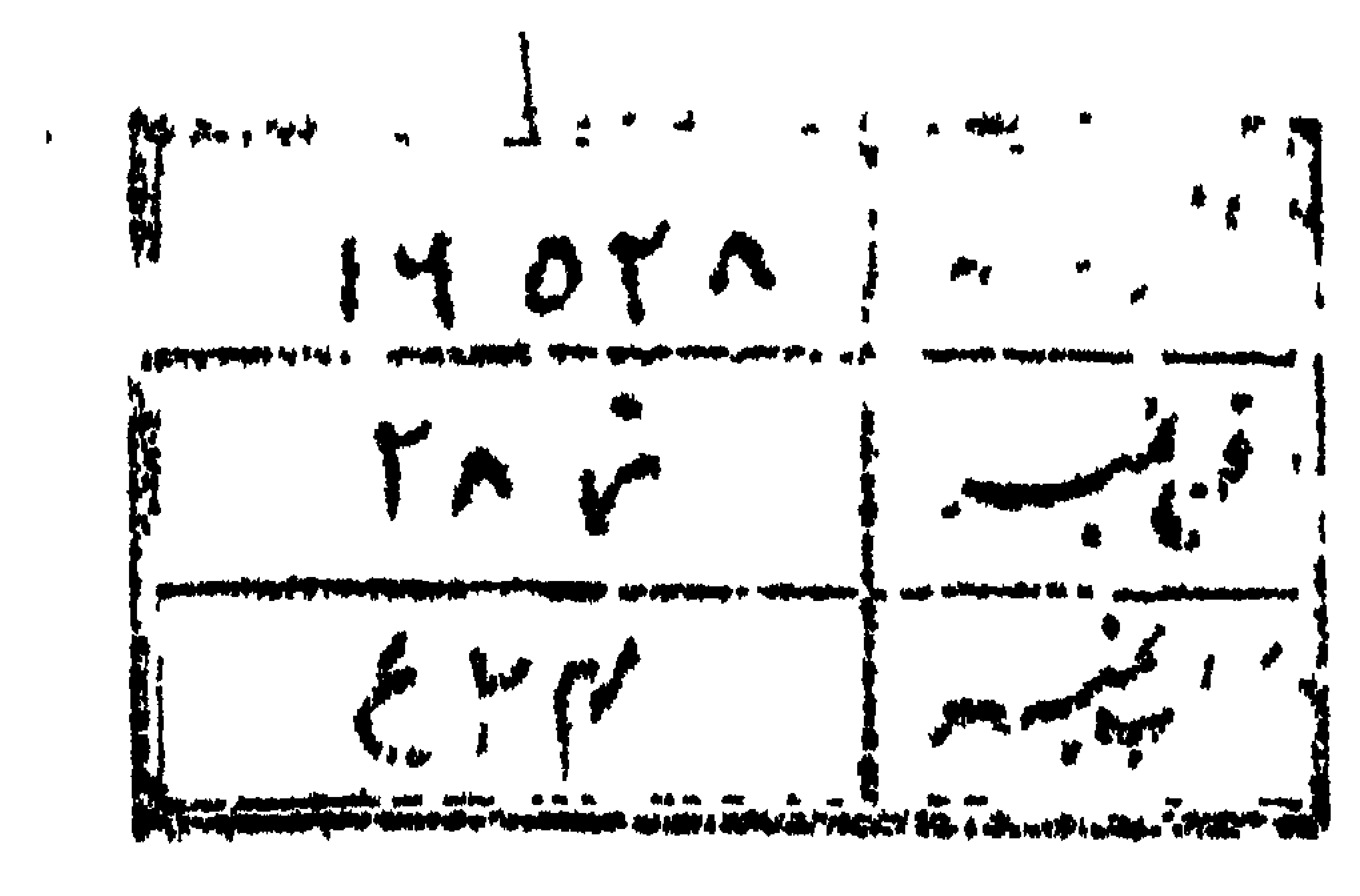
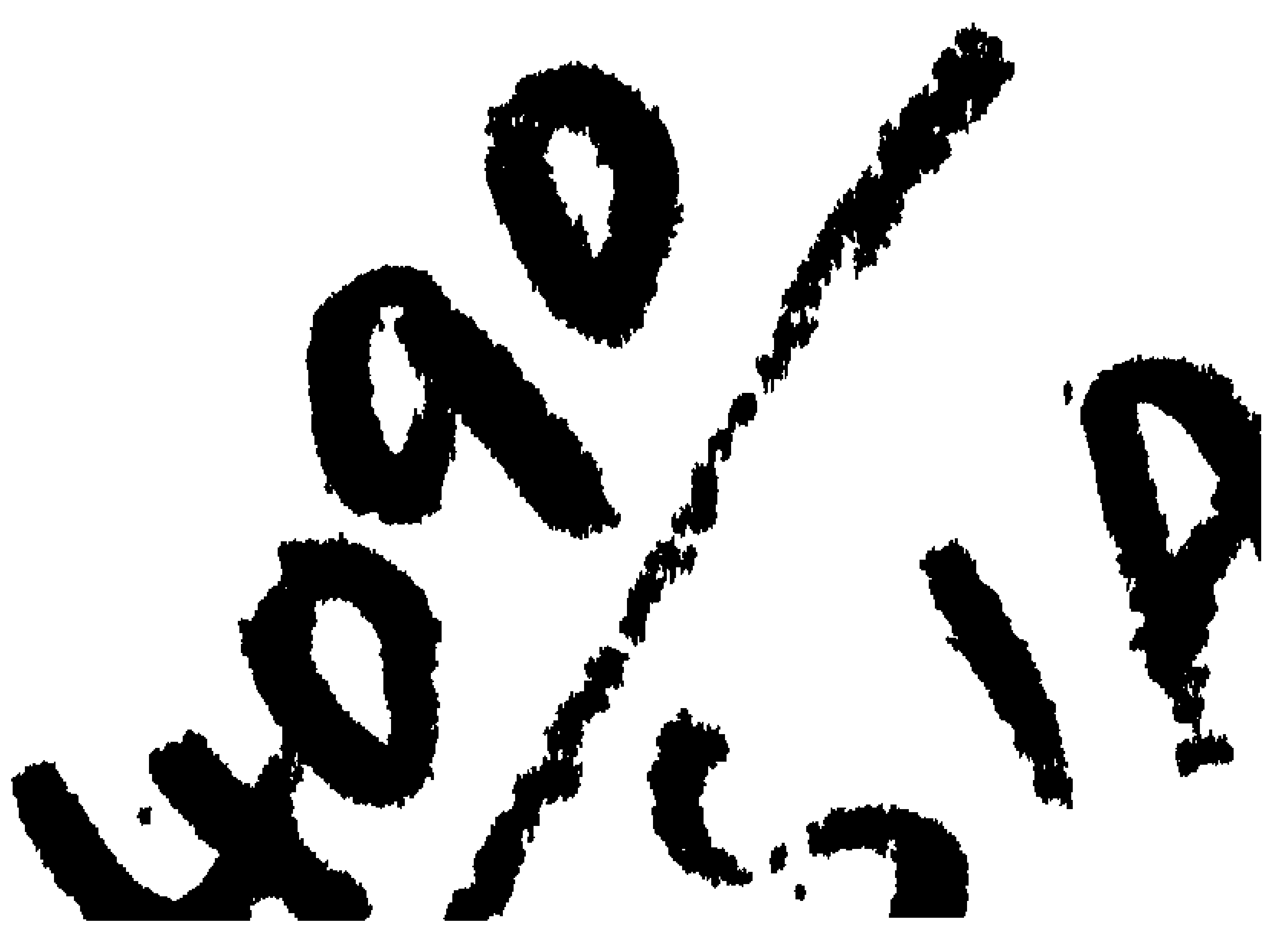
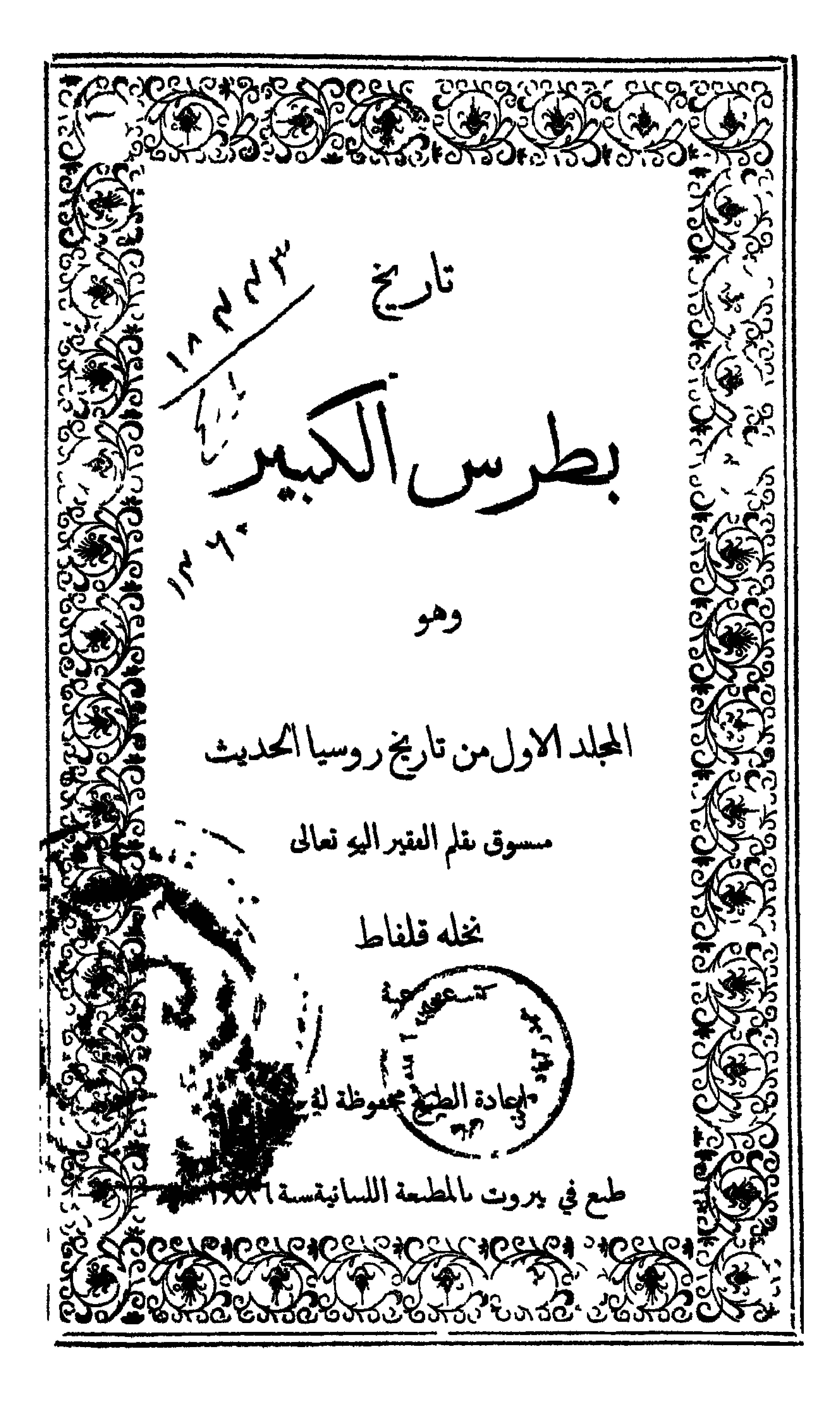






تاريخ

بطرس الكبير

وهو

المجلد الاول من تاريخ روسيا الحديث

مسوق بقلم الفقير اليه تعالى

نخله قلفاط

طبع في بيروت بالمطبعة اللبنانية سنة ١٨٨٦

فهرسة الفصول

صفحة

صفحة




تاريخ روسيا في زمن بطرس الاكبر وفيهِ مقالتان

المقالة الاولى

وفيها المقدمة وعدة فصول

المقدمة

ان عموم الناس في اول سني القرن السابع عشر كانوا يعتقدون بوجود رجل واحد شجاع في البلاد الافرنجية الشمالية وهو كارلوس الثاني عشر ملك اسوج وكان الذين ياخذون بظواهر الامور يعجبون من نصراتهِ المقرونة بسوء التي وان كانت ناجحة في بدايتها الا انها كانت لا تنتهي بحكمة ودراية تظهر لعقلاء ايامهِ العواقب الحسنة فان همتهُ الذاتية كانت منصرفة الى الاهتمام بالعسكرية حال كونهِ كان ملكًا مناطًا بالادارة الداخلية المطلقة ولهذا كان اكثر الفكر العام موجهًا اليهِ في ذلك الزمان وعموم المعاصرين كانوا لا يجزمون بدوام مشروعات واهتمامات بطرس الاكبر ونجاحها وانها لا تنتهي بصوابية تكفل بقاءها مؤبدًا على انها استمرت وقويت في زمن الامبراطور تين

حنة والمصابات ولا سيما في ايام كاترينا الثانية التي رفعت روسيا الى اوج المجد والسعادة وسارت بها في سبيل تقدم ثابت حتى اوصلتها الى طرق النظام والتحسين فازهرت وتسامت وانتظمت في سلك الدول الاولية المتمدنة

وكان بطرس المذكور يحسب من روساء المشترعين وعظماء الملوك المجتهدين الذين صرفوا جهدهم في نجاح مشروعاتهم فتبين لرجال الاعصر التابعة لعصره انهُ اساس التقدم في بلاده وان كارلوس الثاني عشر لا يحسب بالنسبة اليهِ من افراد الجنود الذين كانوا تحت امرتهِ او الذين التقوا بجيوشهِ في ميادين القتال ومن راجع تاريخ كارلوس وتاريخ بطرس ودقق النظر في اجراءات كلا الحاكمين يرى فرقًا عظيما بينهما فان الاول يتسلى بهِ الواقف من حيثية احوالهِ وحوادثهِ والثاني ينتفع بهِ ويستفيد منهُ ويتسلى بهِ ولذلك ظهر لبطرس فضل كبير في بلاده وتاثير عظيم في غيرها وشهرة شاسعة في التاريخ لا يجحدها اولوا البصائر والالباب من ابناء التاريخ وابائهِ واعضائهِ

الفصل الاول

في الكلام على تخطيط مملكة رسيا

انهُ لمن المقرر والمعروف عند عموم الجغرافيين العالمين

باحوال الممالك و بلدانها ان المملكة الروسية هي اوسع ممالك
الكرة الارضية فانها ممتدة من المشرق الى المغرب مسافة كانت
اوائنذٍ في الفي فرسخ فرنساوي وعرضها عظيم جداً بحيث لا
ينقص عن الالف فرسخ من الجنوب الى الشمال وهي متصلة بمملكة
بولونيا و بالبحر المتجمد الشمالي و بمملكتي اسوج والصين ومعدل
طولها مائة وسبعون درجة ويقال انهُ اذا كان الزوال في
جهتها الغربية يكون في شرقها نصف الليل

وكان اهل القرون السابقة يعدون من الخرافات ما
كان يسمع من وقوع الحروب الهائلة بين مملكة روسيا والصين
لبعدهما الشاسع عن العالم المرتبط بعضهُ ببعض لانقطاعهِ عنهم
وكان كل من الملكين عند اجراء روابط الصلح يرسل رسولاً
يلتزم ان يسير نحواً من ثلثمائة فرسخ على الاقل . ومملكة روسيا
هي اوسع من سائر الممالك اي اوسع مما كان في ممالك الرومان
وممالك العجم في زمن دارا عندما تغلب عليها اسكندر الكبير
المكدوني فمجمل مساحة الاراضي الروسية يزيد عن مليون
ومائه الف فرسخ مربع مع ان كلتا مملكتي الاسكندر والعجم لا
تبلغان الخمسين الف فرسخ مربع الا انها مع اتساعها قليلة
السكان كثيرة القفار لا يشغل اهلها الاَّ جزءًا قليلاً من ارضها

وقد قال احد سفراء الانكليز ان اسبانيا التي هي من اقل ممالك اوربا اهلاً وعمارًا يشغل كل ميل مربع منها اربعون نفسًا بخلاف الروسية فان لكل ميل منها خمسة انفس ٠اه٠

ومن مدينة بطرسبرج الى مدينة بكين عاصمة بلاد الصين قلما يجد الانسان في طريقهِ جبلاً كبيرًا شاهقًا ٠ والقوافل تسير اليها من طريق بلاد التتار المستقلة في صحارى بلاد الكلموك وصحراء قوبي الكبرى ٠ وتسمى الروسية موسكوب نسبة الى موسكو التي كانت عاصمة لها

وليس من المقتضى ان نلتفت الى البحث عن تسمية الاقاليم الممتدة من اقليم سمولنسك الى وراء مدينة موسكو الروسية البيضاء ولا عن السبب الذي قاد المولف هبنير الى تسميتها بالروسية السوداء وغير ذلك مما يتعلق باغارة التتار على تلك الاقاليم ولا من شاننا ان نبحث عن كل امة قديمة كما نبحث عن اهل الصين والعجم والمصريين لان هذه الامم تركت من الا ثار النافعة ما يتوصل بهِ الباحث الى الوقوف على اكثر احوالها مع ان مثل هذه الا ثار لا يوجد قط في اوربا التي هي راتعة الان في رياض التمدن ساعية في سبيل النجاح والتقدم بجد واجتهاد عجيبين ٠ وقد ذكر البطرك قسطنطين مولف تاريخ اقليم كياف ان هذه البلاد

اي روسيا كانت في القرن الخامس للميلاد لا تعرف الكتابة اصلاً

واذ كان القصد من هذا التاريخ ظهور حالة المملكة الروسية حال وجود الامبراطور بطرس الاكبر والكلام عنهُ وعن اجراءاتهِ واعمالهِ النافعة وبالاجمال عن تاريخ حياتهِ مفصلاً تعميماً للفائدة وإيفاء لحق هذا الرجل العظيم الذي استحقت اعمالهُ ان تنتشر في العالم قاطبة كان من اللازم ان نتكلم عن ولايات روسيا وماليتها وسكانها ودينها . فروسيا اوائئذٍ كانت تنقسم الى ست عشرة ولاية كبيرة وسناتي على ذكر كل واحدة منها مع وصف ما يتعلق بها من الاهمية وهي

اولاً . اقليم ليفونيا . وهو قريب من فرنسا واحد اقاليم الشمال الخصبة جداً كان اهلهُ في القرن الثاني عشر من عبدة الاصنام فجاء اليهم جماعة من تجار بريم ولوبك يتجرون بينهم الى ان راوا فيهم وجهاً للطمع فثاروا بهم وانضم اليهم جماعة من الطوائف المسيحية كانوا يدعون بحاملي السيف مع الطائفة التوتونية ببلاد بروسيـــا فتغلبوا عليهم وعاثوا ببلادهم وكانت اذ ذاك الحرب الصليبية قائمة بالمشرق على ساق وقدم وملك البرت حاكم اقليم برندبورغ ورئيس الحاملين على هذا الاقليم

وسمى نفسهُ ملكاً عليهِ وعلى بروسيا وبرندبورغ وذلك سنة ١٥١٤ ومنذ ذلك الحين اخذ الروسيون والبولونيون يتنازعون هذا الاقليم الى ان دخلهُ الاسوجيون وبقي مدة ليست بقليلة ميدان حرب بين الدول وسنة ١٦٢٨ تغلب عليهِ الملك غستاف ادولف الاسوجي وبقي لهُ عند عقد صلح اوليو الشهير واخيرًا استولى عليهِ بطرس الاكبر كما سياتي في محلهِ

ثانيًا . غورلندة . وهو اقليم متصل بليفونيا كان على الدوام متصلاً بمملكة بولونيا يدفع لها جزية لكن كان لهُ شديد تعلق بدولة روسيا وهذان الاقليمان اي ليفونيا وغولندة هما الحد الغربي للدولة الروسية في اوربا وعلى بعد منهما الى جهة الشمال ايالة رويل واستونيا . فرويل بناها الدانمركيون واستونيا استولى عليها الاسوجيون فانتزعها منهم بطرس الاكبر . وفي ساحل استونيا خليج فنلندة الكبير وفي شرقيهِ مدينة بطرسبرج التي هي الآن عاصمة الروس واجمل مدنها بناها بطرس وهو في وسط موانع وعوائق كثيرة كانت تدفعهُ عن تاسيسها وهي على خليج كورنستات . تفصل خطوطها تسع نهيرات متفرعة اليها . وبهذه المدينة دار حكومة على جزيرة كائنة عند مجرى نهر نيفا العظيم . وبها سبعة خلجان خارجة من النهيرات

المذكورة متصلة بدار الحكومة هذه وباسوار ديوان البحرية وترسانة السفن وعدة معامل ايضاً · وفي هذه المدينة خمس وثلاثون كنيسة من الكنائس العظيمة وهي زينتها وبهجتها خمس منها لعبادة الغرباء المختلفي المذاهب ومن ابهى زينتها ايضاً ابنية ديوان البحرية وابنية التلامذة المرشحين لان يكونوا ضباطاً وابنية المدارس السلطانية واكاذيمية العلوم وسوق المعاملة ومحل الاجزائية التي جميع اوانيها من الغرفور · وبالجملة ان فيها ابنية كثيرة فاخرة بهجة · وكان فيها نحواً من ٤٠٠٠٠٠ نفس وفي ضواحيها رياض ومتنزهات تزيدها حسناً ورونقاً · مع ان في سنة ١٧٠٣ لم يكن فيها شيء من ذلك انما كانت بطحاء متسعة متروكة وهي معتبرة كانها تحت اقليم انغريا الصغير الذي تغلب عليهِ بطرس الاكبر · واما اقليم ويبرغ وجزء من فنلندة الذي تركتهُ الاسوجيون سنة ١٧٤٢ هما ولاية لوحدها

ثالثاً · اركنجل · سمي بهذا الاسم نسبة الى الملك ميخائيل ومعنى اركنج بالفرنسوية ملاك رئيس لانهُ من روساء الملائكة وسمي باسمهِ تفاؤلاً بحفظهِ عند دخول النصرانية بلاد روسيا منذ زمن طويل وان لم يتمسكوا بهِ الاَّ في ابتداء القرن الحادي عشر · ولم يعرف هذا الاقليم عند الامم الاخرى الا في خلال

القرن السادس عشر وذلك ان الانكليز في سنة ١٥٥٣ ابحثوا
عن ممر في بحر الشمال ليتصلوا بهِ الى شرق بلاد الهند فاكتشف
القبطان كنشلور وكان على احد السفن التي تجهزت لهذه الغاية
مينا اركنجل في البحر الابيض وكان حينئذٍ هذا الاقليم خربًا
لا يوجد فيهِ سوى دير ومعبد صغير للملاك ميخائيل . ولما ركب
الانكليز نهر دوينا وصلوا الى مدينة موسكو واستولوا بسهولة على
التجارة الروسية التي كانت ترسل برًّا الى مدينة نوفغورود
ونقلوها بحرًا الى مينا اركنجل ونال الانكليز نفعًا عظيمًا تجاريًا
بواسطة هذه المدينة . و بعد ذلك بقليل جاء الفلمنك واقتسموا
مع الانكليز ذلك النفع ولبث القومان ينتفعان بهذا الربح العظيم
الى ان تغلب بطرس الاكبر على بحر البلطيك ومخرت بهِ سفنهُ

رابعًا . لابونيا الروسية . تقسم لابونيا الى ثلاثة اقسام قسم
منها لروسيا والقسمان الاخران لاسوج والدانمرك . وهي كبيرة
جدًّا تشغل نحو ثماني درجات من الطول ممتدة في درجات
العرض من الدائرة القطبية الى راس الشمال وكانت الامم التي
تسكنها قديمًا تسمى باسم تروغلوديت «اي سكان المغائر» و بغمات
الشمال «اي ياجوج وماجوج» وذلك لان اكثرهم يبلغ طولهُ
نحو ثلث اقدام ويسكنون الكهوف ولونهم يقرب من لون الجلود

المدبوغة · ولما ظهر غستاف ادولف وادخل بينهم مذهب لوثيرس سموا لاجلهِ باللوثيريين وسموا المسيح با بن ايومالاق واما اهل لابونيا الروسية فتمسكوا اخيرًا بمذهب الكنيسة اليونانية وقيل يعمرون كثيرًا ولا تعتريهم امراض كغيرهم من الامم لخلو بالهم ولانهم لا يشربون في الغالب الاَّ الماء البارد ويقال عنهم انهم يدعون الغرباء من نزلاء بلادهم ان ياتوا نساءهم ولعل ذلك ناشئ عن رغبتهم في اصلاح بنية نسلهم اعتقادًا منهم ان الغرباء احسن شكلاً وبنية وهيئة · وهذه العادة القبيحة كانت جارية عند اللقدمونيين ببلاد اليونان ومع انهم كانوا يعدون من الامم اولى الفضائل كان الرجل منهم اذا راى شابًا جميلاً سالهُ ان ياتي زوجتهُ املاً ان تاتي منهُ بولد حسن · لكن الغيرة والنخوة البشرية والشريعة الالهية تحرم مثل هذه العوائد ولم يكن للابونيين شريعة تمنعهم عن ذلك ولم تكن تتولد فيهم الغيرة على العرض المعروفة عند ذوي الشرائع والاداب

خامسًا · موسكو · وهي جنوبي نهر دوينا بقيت عاصمة لدولة روسيا زمانًا طويلاً قبل ان اتسعت المملكة من جهة الصين والعجم · واقعة في الدرجة الخامسة والخمسين ونصف من العرض · في وسط سهل لطيف المنظر على نهر موسكا

ونهرين اخرين صغيرين يجتمعان مع هذا النهر في نهراوكا . ولم تكن في القرن الثالث عشر الاَّ مجمع كهوف يسكنها الناس من الفقراء معرضين لمظالم ذرية جنكزخان الحاكمة عليهم . ولم تخرج المدينة عن خط الكرملين الذي كان دار اقامة قياصرة الروسية الا في القرن الرابع عشر . واول مولف حكى عن موسكو اوليار يوس النمسوى فانهُ سافر اليها في سنة ١٦٣٣ من الميلاد مع سفير مرسل من قبل احد ادواق هلستين وقد تعجب من عظم اتساع تلك المدينة ومن اسوارها الخمسة واتساع الديوان الملكي وما كان عليهِ اذ ذاك من البهجة والرونق اذ لم يكن في بلاد النمسا ما هو مثلها واما كرليسل الانكليزي الذي ارسلهُ اليها كارلوس الثاني سنة ١٧٧٣ بخطة سفير الى الملك الكسيس فانهُ قال بعكس الاول حيث ذكر في رحلتهِ انهُ لم يجد في موسكو شيئًا يستميل النفس و يسر القلب ولا فندقًا في الطريق ولا منزلاً للمسافرين . فيكون كلٌّ من الاثنين قد كتب بالنسبة الى ما هو معتاده في بلاده ويراه دائمًا فكانت احسن من بلاد النمسوي وادنى من بلاد الانكليزي . الاَّ ان الكونت كرليسل قال انهُ راى على ملابس ملك الموسكو و بطانتهِ الذهب والجواهر لكن لم تكن مصنوعة في بلاده على انهُ يوجد من اهل

موسكو من يحسن الصناعة وقد سبك فيها قبل ذلك بزمان طويل في عهد الملك بوريسغودون اكبرجرس ظهر ببلاد اوربا وشوهد في كنيستهم البطركية انواع من الزينة والزخارف المصنوعة من الفضة . وهذه الاشياء وان كانت من صنع اهل موسكو تحت ملاحظة رجال من الايطاليان الاّ انها كانت قليلة جداً بحيث تبرهن عن عدم تقدمهم اذ انهُ لا يثبت تقدم الامة ونجاحها الا اذا ظهر للعالم ان صناعتها واختراعاتها تزيد يوماً فيوماً اي ان اهلها يوجدون شيئاً جديداً على الدوام . وما جاور موسكو من المقاطعات كان ادنى منها واقل اعتباراً . ولم يكن بها وقتئذٍ من اسباب الرفاهية شيءٌ ولا للفنون ايضاً ذكر يستدعي الشهرة والانتباه الا انها كانت داخلة في سلك المدن الكبيرة من اوربا لا تساع محيطها حيث كان يبلغ عشرين الف خطوة ولما فيها من الجزء الذي يسمونهُ بالمدينة الصينية حيث كان يوجد كثير من غرائب بلاد الصين ولخط الكرملين المتسع القائمة حولهُ قصور ملوك روسيا ولعدد سكانها الذي كان يبلغ نحو نصف مليون من الانفس . وكان ثيودور اخو بطرس الاكبر قد شرع في تحسين هذه المدينة وانفق عليها الاموال الباهظة وبنى فيها البنايات الحجرية واوعز الى كثير

من خواصهِ ان يبنوا فيها بنايات من الحجر واسلفهم الاموال ترويجًا لهم غير ان بطرس الاكبر وضعها في مركز عالٍ اخيرًا ومع انهُ بنى مدينة بطرسبرج لم يهمل موسكو بل بلط اسواقها واقام بها الزين والمتنزهات وجاءها بالثروة العظيمة بما كان يجدده من الابنية ويأتي بهِ من المعامل لتعمل في بلاده وقد انشأ احد خواص بنتهِ الامبراطورة اليصابات جمعية علماء اشتهرت وافادت

سادسًا . اسمولنسك . وهي الى غربي دوقية موسكو وجزءٌ من سرماسيا القديمة ومنها تكونت الروسية البيضاء . كانت سابقًا في يد كبار دوقات روسيا الى ان تغلب عليها في اوائل القرن الخامس عشر لوتانيا الاكبر . ثم استرجعها اصحابها الامراء بعد مرور مائة سنة تقريبًا وسنة ١٦١١ استولى عليها سيجمند التالث ملك بولونيا وبقيت الى ان استعادها الى حكمهِ الكسيس والد بطرس الاكبر سنة ١٦٥٤ وعدت من ذلك الوقت في جملة الولايات الروسية

سابعًا . اقليم نوفغورد . واقع بين بطرسبرج واسمولنسك قيل انهُ اول محل استوطن بهِ السلاف * الصقالبة * الا انهُ لا يعلم بتحقيق من اين جاءوا اليهِ واصل كلمة سلاف من سلا

وهي لفظة تطلق على السيد وعلى العبد ﴿ كالوالي بالعربية ﴾
وغاية ما يعرف عن هذا الجنس الذي امتد جداً في شمال شرقي
اوربا انهم اعتادوا الغارات ورغبوا في الفتوحات الكثيرة بنوا
مدينة نوفغورود العظيمة على نهر يمكن السيرفيهِ من جهة
مخرجهِ واقامت هذه المدينة زماناً طويلاً ناجحة التجـارة وقد
عقدت معاهدات تجارية مع عدة مدن · وسنة ١٤٦٧ تغلب
عليها الملك ايفان باسيلوفتش واخذ منها اموالاً ساعدتهُ في
زخرفة ديوان مدينة موسكو الملكي وزينتهِ وكان قبل ذلك
لا يعرف شيءٌ يذكر في تلك المدينة اي موسكو

ثامنًا · كياف · وهو روسيـا الصغيرة موقعهُ الى جنوبي
اسمولنسك ويقال لهُ ايضًا روسيا الحمراءُ واكرينا . يشقهُ نهر الدنيبر
وقاعدة هذا الاقليم مسماة بهِ بناها ملوك القسطنطينية وجعلوها
ملجأً لمهاجرة قبائلهم والى الان لا تزال فيها اثار يونانية ثبتت فيها
اكثر من الف ومائتي سنة وليس للاثار اليونانية اثر في غيرها
من بلاد تلك الجهات لقيامهم بها عدة قرون · وسكن ذاك
الاقليم بعدئذ الاكرانيون (نسبة الى اكرينا وهو اسمها ايضًا ويقال
لهم القوزاق وهم اخلاط من طوائف متجمعة من قدماء الركسلانيين
والسرماتيين والتتار) ومع ان ارضهم كانت خصبة جداً كانوا

لا يحرثون ولا يعتنون بالزراعة بل كانوا يقتاتون من نباتات
الارض التي تنتجها من نفسها لكثرة خصبها وجودتها · فكانوا
يحصلون على اغلب مقتنياتهم بالنهب والسلب ومما يستحق
الذكر فيهم انهم كانوا يانفون الذل والطاعة الى سواهم ويميلون
جدًّا الى الحرية الا انهم مع التعاقب دخلوا بالرغم في طاعة بولونيا
والترك واخرامرهم سلموا الى الدولة الروسية سنة ١٦٥٤ ولم ينقادوا
اليها تمام الانقياد الا في زمن بطرس الاكبر فانهُ جبرهم على الطاعة.
وتمتاز اكرينا المذكورة بانقسام اهلها الى عشر فرق عليها رئيس
واحد يسمى إتمان ينتخب لهذا المنصب بموجب راي الجمهور ولم
يكن القائد طلق التصرف في نفسهِ واخيرًا صارت الروسية
تبعث اليهم بالحكام من قبلها فيحكمون عوض المنتخب منهم
وفي البداية كان يسكن هذا الاقليم عبدة الاوثان وجماعة
من المسلمين فلما دخلوا في خدمة الاهلين تنصروا وتمسكوا
بمذهب الكنيسة الرومانية ومن ثم بالكنيسة اليونانية حين
دخولهم في يد الروسية · ومن القبائل التي تستحق الذكر من
تلك الامم قوزاق الزابودانة وهم اشبه بحركاتهم وافعالهم باللصوص
بقطعهم الطرق وسلبهم عابريها و ، من الشجاعة على جانب
عظيم · ومما يستحق الذكر فيهم انهم لا يطيقون سكنى النساء

في نجوعهم . والنساء اللاتي يلدن منهم هنَّ قاطنات في جزائر مخصوصة في النهر المتقدم الذكر ولا يعرفون عقد الزواج ولا انتظـــام العائلة المخصوصة بل ينظمون الذكور من اولادهم عند اشتدادهم وترعرعهم في سلك عساكرهم وتبقى الاناث عند امهاتهن وكثيرًا ما يفحش الاخ باختهِ والاب ببنتهِ فتلد منهُ وما من شريعة عندهم او دين يبعثهم على الرفق بعباد الله والانقياد الى المسلك الانساني ولذلك جاءهم كثير من قسوس اليونان موخرًا ومنذ مدة من الزمان بنيت قلعة القديسة اليصـــابات على نهر الدنيبر وكان الغرض الوحيد من بنـــائها قمع هولاء الاجلاف عن شرورهم وادخالهم في سلك الطاعة حتى اجبروا على الدخول في سلك العسكرية تحت اسم عساكر غير منتظمة

تاسعًا . بلغورود . وهي الى الشمال الشرقي من كيـــاف بين نهر الدنيبر ونهر الدون . قيل انها في الاتساع كولاية كياف والخصوبة ارضها تكثر فيها المواشي فيخرج منها شيءٌ كثير في كل سنة الى بولونيا باسم ثيران آكرينا وهي في امن من غارات قبائل التتار الصغيرة لما فيها من الاسوار الممتدة من نهري الدنيبر والدون المحصنة بالقلاع والابراج

عاشرًا · فورونيجة · وهي ممتدة الى سواحل بحر ازوف وبقرب قاعدتها المسماة باسمها عند مصب نهر يسمى باسمها ايضًا انشأ بطرس الاكبر اول معمل للسفن وكان قبل ذلك لم يخطر لاحد من ملوك تلك الممالك المتسعة ان يحدث مثل ذلك المعمل

حادي عشر · استراخان · وهي الى جنوبي فورونيجة قطرها من الطف الاقطار اعتدالاً يبتدئ من الدرجة الثالثة والاربعين ونصف عرضًا وينتهي الى الدرجة الخمسين تقريبًا ودرجات طولها كدرجات عرضها · يتصل بها من احدى جهاتها بحر الخزر وجبال الشركس من جهة ثانية وهي ممتدة ايضًا خلف البحر المذكور ويرويها نهر الاتل الكبير (فولغا) وعدة نهيرات اخرى · وكان التتار يعيشون على جوانب الانهر المذكورة واقاموا في تلك الارض مدة حياتهم كغرباء لا يعتنون بحراثتها ولا بزراعتها · وكان بطرس قد ارسل المهندس بري الى تلك الاقاليم فاقام يخططها · فوجد بها صحارى متسعة مشحونة بالمروج والبقول واشجار الكرز واللوز وراى فيها انعامًا وحشية سمينة ترعى الكلاء في هذه البراري

وكانت مملكة استراخان هذه جزءًا من ارض قفجاق

القديمة التي فتحها جنكزخان · ثم تملكها بعده تيمورلنك فوسع حكومة التتار الى حد موسكو الا انه انقذ البلاد يوحنا باسيلوفتش ابن ايفان باسيلوفتش في القرن السادس عشر وهو اعظم فاتح روسي ضم استراخان الى بلاده التي استولى عليها وكان ذلك سنة ١٥٥٤ · وبما ان هذه المملكة هي فاصلة بين اسيا واوربا يمكنها ان تتاجر مع كلتيهما بنقل البضائع في نهر الاتل من بحر الخزر وهذا كان جل اجتهاد بطرس الاكبر وقد وصل الى بعضه · وتسكن جماعة من الهنود في ضواحي هذه المدينة الى الآن وفي الجنوب الشرقي من مملكة استراخان هذه وادٍ صغير يسمى اورنبرغ · وقد بنيت فيه سنة ١٧٣٤ من الميلاد على شاطئ نهر اورال مدينة سميت باسمه اي الوادي وهو مضرس بشعاب قوه قاف المسمى بجبال قوقاس · وهناك قلاع عظيمة متباعدة تحمي الجبال والنهيرات النازلة من تلك الشعاب ولما كان الاعجام يخافون عند اجتيازهم تلك النواحي من قطاع الطرق اتخذوا المدينة ملجأ لحمايتهم وصون اموالهم فكانت مصائبهم فوائد جمة لها حتى صارت مركزاً لتجارة اسيا وصار اهل بخارى الكبرى واهل هندستان ياتون اليها ويتجرون فيها

ثاني عشر · مملكة كازان · واقعة خلف نهر سبى اورال

واثل الى جهة الشمال · وقعت في نصيب احد اولاد جنكزخان التتاري ثم وقعت في نصيب احد اولاد تيمورلنك وتغلبت عليها بعد ذلك دولةر وسيا في زمن الفاتح الروسي حنا باسيلوفتش وهي عامرة ايضاً بكثير من التتار المسلمين وتمتد هذه الولاية العظيمة الى بلاد سيبيريا · ومن الاثار الباقية فيها يستدل انها كانت قديماً زاهية زاهرة مثرية · وكان بعض اقاليم هذه المملكة الذي كان سابقاً يسمى برميا الكبرى ثم دعي سليكام مركزاً لتجارة الفرس وفراء التتار · ولما كان استر المبرغ الاسوجي اسيراً في تلك البلاد بحث وهو في اسره عن احوالها وحكى ما قرّب للعقول الادعاء الخرافي من ان الرياح قذفت جماعة من الهند فاوصلتهم اليها · فان كان ذلك في الواقع فكيف يمكن لسكان الهند الملاحة في البحار الجرمانية · لكن في قديم الزمان كان لا يستقرب مشاهدة هندي يبيع ويشتري داخل البلاد الشمالية اتياً من بلاد المغرب اكثر من استغراب مشاهدة روماني يسافر الى الهند من طريق بلاد العرب فان الهنود كانوا يذهبون الى بلاد الفرس ويركبون بحر اركانيا ومن ثم نهررها (الاثل) حتى يصلوا الى بوريا الكبرى بركوبهم نهر كاما ومنهُ يركبون البحر الشمالي او بحر بلطيك فيظهر ان الناس من قديم الزمان يتصدى

كثير منهم للمشروعات العظيمة

وإذا امعن النظر الى الجهة الشمالية وجدت حدود بلاد اوربا تختلط بحدود بلاد اسيا . وكان الناس قبلا لا يعرفون تحديد القارات معرفة جغرافية بحسب موقعها ولذلك قسموا الدنيا الى ثلاثة اقسام وهي اوربا واسيا وافريقية وكان الانسان اذا تجاوز بحر ازوف لا يعرف منتهى اوربا ولا بداية اسيا وجميع البلاد التي خلف جبل طورس كانت تسمى باسم سكيثيا وهو اسم قديم ثم سميت ببلاد التتار

ثالث عشر . سيبريا . كانت متصلة بكازان وممتدة الى جهة الشمال من حدود اقليم اركنجل وريزان واستراخان الى بحر اليابان وتتصل بجنوب بلاد موسكو بواسطة جبل قوقاس اكتشف سنة ١٥٦٣ وذلك ان رجلاً من اطراف حكومة اركنجل اسمهُ انيقا رأى جماعة من الناس باقليم اركنجل لهم سحنة عجيبة وملابسهم مجهولة ولغتهم لا تفهم ينحدرون من نهر دوينا ومعهم فراء السمور والثعالب السود يبدلونها بالمسامير وقطع الزجاج كما كان يفعل متوحشو امركا باعطائهم الذهب لاهل اسبانيا فامر انيقا اولادهُ واتباعهُ ان يقفوا اثرهم حتى يصلوا الى وطنهم فتبين انهم السمويدة وهم قبائل اشبه باللابونيين الا انهم مختلفو

الاجناس فكانوا مثلهم لا يعرفون الخبز ويستعينون على جرّ عجلاتهم الصغيرة بحيوانات تشبه الايل (اسمها وفي) وهم يسكنون المغائر والكهوف في وسط الثلوج. والعجيب في هيئتهم الغريبة ان فكهم الاعلى بارز عن انوفهم واذانهم مرتفعة جداً وانهم رجالاً ونساء لا شعر لهم الا في رؤوسهم · وحلمات اثديتهم كخشب الابنوس في السواد

وللسمويدة غرائب في اخلاقهم كما ان خلقتهم وبنيتهم غريبتان وانهم لا يعبدون الذات العلية بل ربما صح ان يقال انهم في عبادتهم اشبه بالمجوس القدماء ويعتقدن باصلين واحد للخير والاخر للشر غيران الشرور كانت بينهم قليلة جداً حتي كان لا يعرف عندهم السرقة وقتل النفس لكونهم منزهين عن الشهوات النفسانية · وليس في لغتهم من الالفاظ ما يدل على الرزيلة والفضيلة وليس لهم من المعارف شيء البتة وذلك لبقائهم على اصل الفطرة وهذا مما يدلنا على ان الناس كافة يميلون باصل طبيعتهم الى العدل ما لم تحملهم شهواتهم الخبيثة الى العدول عنهُ وقد حمل بعض الناس جماعة من هولاء القوم الى موسكو فلما دخلوها تعجبوا من كل ما راوا فيها غاية العجب واعتبروا ملك موسكو اعتبار الالهة ونذروا انهم يدفعون لهُ كل سنة فراء من

السمور عن كل واحد من الاهالي · وبعد قليل من ذلك الحين استوطن جماعة منهم وراء نهر اوبي ونهير ارتيش وبنوا حصونًا وفي سنة ١٥٩٥ بعث ملك موسكو بعضًا من عساكره مع رئيس من القوزاق فغزوا بلاد السمويدة واستولوا عليها ولم تكن اذ ذاك الا صحارى · وقاعدة هذه الولاية توبولسك وهي مدينة كبيرة بنيت عند ملتقى نهري ارتيش وتبول

وبقيت هذه الولاية مدة طويلة مقامًا لامة الهونة التي خرّبت كثيرًا من البلاد ووصلت الى مدينة رومية تحت قيادة اطيلا وقد خلفهم بهذه الارض تتار الازبك ثم خلف التتار الروسيون ويظن انها كانت سابقًا كثيرة الاهالي يستدل على ذلك من كثرة المقابر والرسوم

رابع عشر · ولاية ستياكة · وهي تحت ولاية السمويدة ممتدة على نهر اوبي وما من شبه بين سكان هاتين الولايتين الا في رعي الغنم والصيد في البر والبحر · وقد تقدم أن السمويدة لا يعبدون الهة قط بخلاف هولاء فانهم يعبدون ما كانوا يحتاجون اليه في معيشتهم فيعبدون مثلاً جلود الضان لان الغنم هو اهم ما يؤكل كما ان المصريين في الزمن القديم كانوا يتخذون العجل للعبادة على زعم انهُ يوجد فيه من نفسه القدرة

الالهية لنفع الانسان · وقال بعض المولفين ان الاستياكـــة
يعبدون جلد الدب لكونه يقيهم في الشتاء اكثر من جلد الضان
ولهم معبودات اخرى ليست بذات اهمية · تنصرت منهم طائفة
سنة ١٧١٢ للميلاد وهولاء النصارى لا يعرفون قواعد الدين
كفلاحي الافرنج الخشنين · وذهب جماعة من المولفين الى ان
هذه الامة من برميا وهذا المذهب ربما كان فاسداً لكون برميا
بعيدة عنها واكثرها صحارى فكيف يمكن ان يتركوا هولاء
يقيمون في جهات رديئة غيران امماً كهذه لا يمكن ان يتوصل
الانسان الى اصل منشئها كبقية الامم التي لم تمارس العلوم
والفنون فيعجز الانسان بالبحث عن اصلهم وعقائدهم دون
حصول نتيجة صحيحة · ويوجد مدفوناً باراضي الاستياكـة والذين
بجوارهم كالبورات والياقوت عاج لم يقف احد على حقيقة اصلهِ
فذهب البعض الى انهُ عاج معدني وآخرون الى انهُ سنّ نوعٍ
من الفيلة قد اندثر ولا عجب من ذلك لان بلاداً كثيرة تنتج انواع
الغرائب بمفاعيل الطبيعة العجيبة بحيث تحير عقول الحكماء
والفلاسفة · ويوجد بهذه الولاية كثيراً من حجر الفتيلة والكتان
الغير المحترق فيصنع منهُ اقمشة ويتخذونهُ احياناً للورق

خامس عشر · البيرات · وهي في جنوبي الاستياكـــة

وامها لم تتنصر حتى الان ولم يكن لهم معرفة بتقويم السنين بل
كانوا يتكلون على عدها بالثلوج لكثرتها عندهم وعدم
انقطاعها في الشتاء فاذا سألت مثلاً واحداً عن عمره او عمر ابنهِ
يقول كذا وكذا من الثلوج كما يقال كذا وكذا من السنين
فيتكلون على الثلوج ويعدون مداتها . وذكر بعض الاسوجيين
وقد طاف في تلك البلاد نحو ١٥ سنة انهُ رأى آثار اجساد قديمة
منقطعة بالوان مختلفة وشاهد ذلك في بعض من الاحياء ايضاً
وحكى ذلك ايضاً بعض سكان موسكو وهذا مما يدل ان
اختلاف النوع البشري الان نقص عما كان عليهِ قبلاً حيث
يندر الان وجود هكذا اجناس غريبة الشكل وربما تغيرت
باختلاطها مع غيرها من الامم . ويسكن جنوبي تلك البلاد
اقوام عديدة من التتار منهم الترك القدماء الذين خرجوا من
بلاد التتار وتغلبوا على غيرها من البلاد والكلموك والمغول وهم
نفس السكيثيين اي التتار الذين قادهم مَديس وانتصر بهم على اسيا
العليا واستولوا على ادربيجان وهم ايضاً الذين قادهم جنكزخان
واولادهُ بعد ذلك الى بلاد النمسا واحدثوا سلطنة المغول
تحت سلطة تيمورلنك الا انهُ تغيرت احوال عدة طوائف منها
وسارت تابعة لدولة روسيا بعد ان كانت مهيبة عظيمة السطوة

وقد وجد هناك سنة الف ١٧٣٠ من الميلاد بيت من الحجر تحت الارض فيهِ قواريرومصابيح واقراط وتمثال اميرمن امراء المشرق على فرس وعلى راسهِ عصبة ملكية وامرأتان جالستان على سريرين من الاسرة الملكية وجرة فيها عدة نسخ مكتوبة بالقلم ارسلها بطرس الكبيرلاكاذيمية الاثار القديمة بباريس تبين انها بلغة التبت وذلك دليل كبير يدل على ان المعارف كانت موجودة في تلك البلدة التي صارت بعد ذلك خشنة متوحشة

سادس عشر . كمتشكا . وهو ابعد الاقاليم الى جهة الشرق توجد في شمالهِ الفراء اللطيفة التي هي لباس الاهالي في مدة الشتاء واما بالصيف فلا يلبسون الملابس البتة . وقد تعجب السياح لما وجدوا في الاجزاء الشمالية رجالاً لحاهم اشبه بلحى اهل امركا فمن هنا يظهران دولة روسيا تسلطت على امم مختلفة الاجناس كثيرة الغرائب متفاوتة الاخلاق لا توجد بمملكة من ممالك الدنيا . وقد استفيد ان في هذه الامة الوحشية علماء لاهوت يزعمون ان سكان شبه الجزيرة متولدون من ذات عليا تدعى كوتو لكن يستدل على انهم لا يعبدونها اصلاً وانهُ ليس لهم رغبة فيها ولا يرهبونها . فاذا صح هذا يكون لهم

جاهلية وعندهم خرافات تدل ان لادين لهم . وقيل انهم في اعتقاداتهم يحرمون شيئًا ويحللون اشياء فما احلوه قضاء جميع شهواتهم وما حرموه سنّ المدى والبلطات اثناء السفر وانقاذ الغريق وانقاذ الجار من الهلاك بعكس الواجب واللازم على الجنس الانساني فهم مخالفون للبشر في اكثر عقائدهم وربما تخذوا هذا الاعتقاد عن بعض الفلاسفة الذين زعموا ان انقاذ الغريق معاندة للقضاء والقدر اذ يكون قد حكم عليهِ بالغرق وهذه الفلسفة منكرة عند اولي الفضيلة والانسانية . ويعيدون في كل سنة عيدًا معتبرًا يدعونهُ عيد التطهير وقد اصابوا بالتطهير الاسمي بعد تحليلهم لكل الفواحش وتحريمهم لكل فضيلة ويعتقدون وجود الشياطين . ولذلك تكثر عندهم السحرة كما كان عند اعظم الامم تمدنًا وسحرة هذه البلاد من عجائز النساء ومن هنا يعلم ان من خواص العقول البشرية ان تتفاوت بين عجز الانسان وتولعهِ بمعرفة الاشياء التي لا يصل ادراكهُ اليها . ولاهل كمتشتكا ايضًا عرافون يعبرون الاحلام كما كان ببلاد اوربا منذ مدة قليلة

وقد انتشر الدين النصراني الارثوذكسي من حين ادخلتها روسيا في حكمها اذ ابتنت في بلادهم خمس قلاع . على ان الدين

المسيحي لم يكن محفوظاً عندهم كالواجب ولا سيما ان الخبز والخمر ضروريان في الاسرار الدينية وهما مفقودان عندهم . والحاصل ان اهل هذه القبائل وان كانوا على غاية من التوحش ليسوا ادنى من سواهم فان ثلاثة ارباع امركا والجزء الجنوبي من افريقية وبلاد الشمال من لابونيا الى بحر لابونيا يقارنونهم في المزايا والاخلاق او هم ادنى درجة منهم وقد يمكن ان يكون اكثر من نصف النوع الانساني على هذه الصفة

وفي سنة ١٧٢٥ ارسل القيصر بطرس قبل ان يفاجئهُ الموت بقليل وهو مشتغل بالمشروعات العظيمة القبطان بيرين الدانمركي وامرهُ ان يسير ببحر كمشتكا الى اراضي امركا فلم ينجح هذا القبطان وعاد من سفرتهِ هذه الاولى بدون جدوى الاَّ انهُ استأنف مسيره ثانية بامر الامبراطورة حنة سنة ١٧٣٣ وقد بعثت معهُ القبطان اسبيانجبرغ وبعد ان جدد سفناً للحاجة ووضع فيها الاشياء اللازمة سافر حتى وصل الى شمال اليابان الى بوغاز مولف من عدة جزر متواصلة متتالية ثم رجع من هذه الاراضي ولم يكتشف منها غير هذا البوغاز . وفي سنة ١٧٤١ عاد فطاف بيرين هذا البحر وقد صاحبهُ ليسل دولكس ويبر الفلكي الشهير من عائلة ليسل التي خرج منها عدة علماء

ماهرين بعلم الجغرافية . وذهب قبطان آخر من جهة اخرى للاستكشاف نفسهِ فوصل كلٌ من القبطانين الى سواحل امركا من شبه جزيرة كاليفورنيا واكتشفا هذا الممر الذي سمي ببوغاز بيرين . ولم يجد بهذه السواحل القفرة ما يقوم بمؤنتهما وقد نفذ الماء العذب منها واهلك داء البحر (الاسقربوط) بعض رجالها وتبينوا عن مائة ميل السواحل الشمالية من شبه جزيرة كاليفورنيا وراوا قوارب من الجلد فيها اناس اشبه باناس كنادة ولم يترتب على هذا الاكتشاف ثمرة ومات القبطان بيرين بجزيرة دعيت باسمهِ واما القبطان الثاني فانهُ لما راى نفسهُ قريبًا من كاليفورنيا اخرج عشرة من رجالهِ الى البر فلم يعودوا فاجبر على العود ثانيًا الى شبه جزيرة كمتشتكا بعد ان قطع الرجاء من رجوعهم . واما ليسل دولكس ويير فانهُ مات حال خروجهِ الى البر . وقد لحق بهولاء المكتشفين ما لحق بغيرهم من البادئين بالسياحات في الابحر الشمالية لركوبهم الاخطار والحاصل انهُ لم تاتِ تلك الاكتشافات بنتيجة مثمرة . اه.

ومن هذه الولايات والاقاليم المتقدم ذكرها كانت تتألف دولة روسيا وهي من فنلندة الى بحر اليابان . وبها من الطوائف التتار والهونة والمساجيتة والصقالبة والسميريين والسكيثيين

والسرماط وجميعهم رعايا الروسية غير ان اهل روسيا الحقيقون هم قدماء الركسلانة والصقالبة

واذا امعنا النظر في سائر ممالك العالم المتمدنة وغير المتمدنة نراها على الاكثر مولفة من طوائف مختلفة ففرنسا مثلاً تولف من غوطيين وبرمنديين وجرمانيي الشمال وهم المسمون بالبرغوت والافرنج ونمسويين وبعض رومانيين مختلطين بقدماء القلط وكذلك ايطاليا فهي كثيرة العائلات المتولدة من الامم الشمالية وليس فيها عائلة من الرومان القدماء لكن البابوات في الغالب من نسل البنادقة اللمبرديين او الغوطيين او التوتون ونحوهم . واهل اسبانيا ايضاً مختلطون فمنهم مغاربة وقرطاجنيون واسرائيليون و وسغيطيون و وندالة وكلهم انضموا الى اهل اسبانيا الاصليين . ولهذا الاختلاط في العالم يرى ان التمدن كان يضعف احياناً في بعض الاماكن لاختلاف الاجناس وكثرتها ومما يقضي بالعجب ان اكثر الطوائف تمدنت او اخذت ترقى سلم التمدن ما عدا التتار فانهم لا يزالون على البربرة والتوحش مع مجاورتهم للعالم المتمدن

الفصل الثاني

في تتمة تخطيط روسيا وسكانها وماليتها وجيشها ودينها والحالة التي كانت عليها قبل بطرس الكبير

ان عدد سكان روسيا كان في سنة ١٧٥٩ نحو اربعة وعشرين مليونًا من الانفس واغلبهم ارقاء. ولا يخفى ان كثرة السكان ومقدار عمرانها يكون بمقدار تمدنها ونجاح الصناعة والزراعة فيها. فالصين والهند اكثر ممالك العالم عددًا لانهم اول من احدث التمدن ومال الى اتساع التجارة وتكثير المحصولات وقد مضى عليهم نحو اربعة الاف سنة وهم يسعون ويجتهدون ومع هذا كله فاننا نرى ان ما حصلته روسيا في خمسين سنة من التقدم لم يدركه غيرها مع وجود الاسباب والوسائط المسهلة في مدة خمس مائة سنة . ولاتساع اراضي هذه المملكة ينبغي لها مئات من السنين لتحسب عامرة بالنسبة الى غيرها من الممالك المالئة سكانها ارضها . واما ليفونيا واستونيا وانغريا وكاريلا وجزء من فنلندة واقليم اكرينا وقوزاق نهر الدون والكلموك وغيرهم من التتار والسمويدة والابون واستياكة وسائر عبدة الاوثان في سيبيريا فليسوا مدرجين في هذا العدد ومع كل ذلك فانها من جهة العمار كفرنسا والنمسا ولكن اذا اعتبرنا عظم

اتساعها كان عدد من فيها من الاهالي اقل من كل من هاتين المملكتين بثلاث وثلاثين مرة · وفي سكان روسيا ستة ملايين وستمائة واربعون الفًا يدفعون المعينات السنوية للحكومة ما عدا تسعمائة الف منهم تدفع لقسوس روسيا فقط وهم غير قسوس البلاد التي استولت عليها · ومن هذا يظهر ان لكل واحد من القسوس سبعة اشخاص ولذلك يستحوذون على سبع محاصيل الدولة

وكان يتبع العدد المذكور انفًا عدد الجيوش الذي كان اوائذ يبلغ ثلثمائة وخمسين الفًا على الاقل وقد تناقص بعد ذلك بقليل عدد اهلها لما فشأ بها داء الجدري وقد جاء اليها من بلاد العرب غيره من الامراض الوبائية فحصل خراب في كثير من البلاد وتاخرها نتج عن اشتغال الاهالي بها وخوفهم منها ومما زاد نقصهم كثرة غاراتهم وحروبهم المتتابعة لان اهل الشمال من بلاد نسرماطة الى التتار شنوا الغارة على اكثر الدنيا تقريبًا ·

وفي بلاد روسيا المتسعة كان نحو سبعة الاف واربعمائة راهب وخمسة الاف وستمائة راهبة وقد اجهد نفسه بطرس الاكبر في تقليلهم لما راى تاخر بلاده وان كل شيء قليل فيها كي

لايوجه احد فكرهُ الى جهة الترهب فيلتفت الى ما ينفع بهِ البلاد وهذا العدد الذي يبلغ ١٢ الف راهب وراهبة كان مستوليًا على سبعمائة وعشرين الفًا من الارقاء للقيام بحراثة الارض وزراعتها الخاصة بالاديرة وكان هذا مخلاً جدًّا بممالك روسيا ومضرًّا بمصالح البلاد عمومًا . ولذلك حرمتهم كاترينا الثانية من الثروة واستولت على كل املاكهم ورتبت لهم المعينات من خزينة الدولة . ومنعت سلطتهم ونفوذ كلمتهم وصيرتهم نافعين بخدمتهم الامة والدولة

واما ايرادات روسيا فبلغت في سنة ١٧٢٥ ثلاثة عشر مليون روبل اي خمسة وستين مليون فرنك وهذا يشمل ما يوخذ من قبائل التتار وعموم الدخل والغرامات التي توخذ نقدًا . وكان هذا المقدار القليل كافيًا وقتئذٍ للقيام بمصاريف ثلثمائة وخمسين الفًا من العساكر البرية والبحرية لكن منذ تلك السنة اخذت مداخيل روسيا تزيد وعمرانها يتقدم الى ان بلغت الدرجة القصوى وسوف يذكر ذلك في الكلام عن بطرس الاكبر واجراءاتهِ وفي مختصر تاريخ روسيا المدرج في الجزء الثاني من اخر هذا الكتاب

واما عوائد وملابس واخلاق سكان بلاد روسيا فكانت

اقرب شبهًا بشرق اوربا فكانوا جميعًا يدفعون الاخرجة ويقدمون من محاصيلهم للدولة ويقومون بمصاريف السفراء مدة اقامتهم ومما يحمد من عوائدهم انهم يحرمون الدخول على ملوكهم ودخول الكنيسة بالاسلحة فكانوا يتجردون منها عند الصلاة وفي حضرة الملك مع ان من عوائد الافرنج الخشنة انهم كانوا يقفون بين يدي الله عزَّ وجلّ وامام الملوك وعند اصدقائهم ونسائهم وهم ناقلون سلاحًا من الاسلحة المعدة للقتال تصل الى ما تحت سوقهم . ومن عاداتهم ايضًا يلبسون في ايام المواسم والاعياد ملابس طويلة الظاهر انها اشرف من الملابس القصيرة التى تلبسها الملل القاطنة غرب اوربا فكانوا يلبسون جببًا مبطنة بالسمور ويتعممون بالعمائم . ولا ريب ان مثل هذه الملابس تظهر للرائي اليق من الشعور المستعارة واحسن من الملابس المقمطة بالنسبة الى الاقطار الباردة التي كانت مستعملة عند اممها في ذلك الزمان الّا انها كانت اكثر صعوبة ومشقة عند الحرب وفي الشغل . وما عدا ذلك من عوائدهم فكان خشنًا . وقد قال المورخ البيركرانت ان دولة ايطاليا بعثت بسفير الى روسيا فدخل على ملكها ولم ينزع برنيطته فامر ان تسمر براسهِ ونسبت هذه الحادثة الى التتار وحكاها آخرون عن سفير فرنسا

وكانت حكومة روسيا في ذلك الحين تشبه حكومة الدولة العلية حيث كان عندها وجاق الاسترليتش وهو كوجاق الانكشارية وكثيرًا ما كانوا يتصرفون في التاج الملكي ويوقعون الخلل فى الدولة بقدر ما كان يمكنهم وكان عددهم يبلغ ٤٠ الفًا والذين كانوا منهم متفرقين في الاقاليم كانوا يتعيشون بالسلب والنهب بخلاف القاطنين بمدينة موسكو فانهم يبيعون ويشترون كبقية الاهالي لكن كانوا لا يخدمون اصلاً ويسيئون الى الاهالي كل الاساءة ويرتكبون من المظالم ما لم يسلم بهِ احد من الجنس الانساني ومع ان نزع هذا الوجاق كان من اضرّ الاشياء للراحة والامن الا انهُ كان في الغائهِ صعوبة عظيمة

واما ملك دولة روسيا فيقال لهُ ارستا (قيصر) ولعلها ماخوذة من لفظة شار التي هي لقب كل من تملك على كازان . وكان حنا باسيلوفتش المسمى ايضًا ايفان لما تغلب على مملكة كازان التي كان جده تغلب عليها وخسرها اول من لقب بهذا اللقب ومن ثم انتقل الى سواه وكان الملوك قبلهُ يلقبون بما معناه الامير الاكبر . ولا ريب ان اللقب لا يعد بشيء ان لم يكن الملقب بهِ عظيماً من ذاتهِ فلقب امبراطور التي معناها بحسب الاصل رئيس العسكر صارت علماً لروساء الجمهورية الرومانية

واطلقت اخيرًا على ملوك روسيا وفي الواقع هم احق بها من غيرهم نظرًا لاتساع ممالكهم وقوة شوكتهم

وديانة روسيا الاصلية في القرن الحادي عشر كانت النصرانية الارثوذكسية وهي على المذهب اليوناني لكن فيها من المسلمين وعبدة الاوثان وغيرهم من المسيحيين فمن سيبيريا الى حدود الصين كلهم عبدة الاوثان وبينهم اكثر من سكان اقليم واحد لا ديانة لهم البتة ولا يعرفون الهًا · وقد حكى بعض الذين تجولوا بين هولاء القوم اي عبدة الاوثان والذين لاعبادة لهم انهم وجدوا بينهم من سلامة القلب وحسن الطوية واستقامة الاطوار اكثر من غيرهم وهذه الفضيلة لم تكن فيهم عن معتقداتهم بالاوثان او بوصايا دينية عندهم بل لما كانوا سالكين في عيشتهم مسلك الرعاة يجتنبون معاشرة الغير ومخالطتهم اي ان مسلكهم هذا كان مسلك القوم الذين وجدوا في اول الخليقة من حبهم للانفراد وميلهم طبعًا لتجنب الاضرار بالناس

وقد يقال ان الدين المسيحي لم يدخل روسيا وغيرها من الاقاليم الشمالية الا في القرن العاشر وقد ذهب بعضهم ان اول من ادخله اليها الاميرة اولغا كما ان كولتيدة بنت اخي امير رياني من المتمسكين بمذهب اريوس ادخلته فرنسا في ايام قدماء

الفرنسيس وكذلك زوجة ميسيزلاس دوق بولونيا اتت بهِ الى البولونيين واخت الملك هنري الثاني ادخلتهُ بلاد المجر . وما من عجب في ذلك اذ كان النساء اول من ادخل الديانة النصرانية في هذا البلاد وفي غيرها لانهن اقرب الى تصديق الحقائق وغيرها . ولتسلطهن على قلوب الرجال يقدرن على اقناعهم بالانضمام اليهن . وقد قيل ان الاميرة اولغا تنصرت وتعمدت في القسطنطينية وسميت اذ ذاك هيلانة ويومئذٍ شغف بحبها الامبراطور حنا زيمسيس والظاهر انها كانت ارملة لكن لم ترضَ بحب الامبراطور ولا عبئت بهِ ولم يعتد بها في بادئ الامر كثير من الناس حتى ان ابنها الذي تملك بعدها زمنًا طويلاً لم يحذُ حذوها ولم يخطر ببالهِ ما خطر ببالها لجهلهِ وتمسكهِ بمعتقدهِ ولكن حفيدها ولدمير وهو ابن حظية وقد قتل اخاهُ ليستولي على المملكة عوضًا عنهُ اراد مصاهرة الامبراطور بازيل امبراطور القسطنطينية فلم يسمح لهُ بذلك الا اذا تنصر ففعل واعتمد من الاسقف كريسبرغ الذي بعثهُ اليهِ بطريرك القسطنطينية ليعمدهُ ومن ثم اخذت الديانة المسيحية تنمو في تلك البلاد وذلك من سنة ٩٧٧ . وقد تمم ولدمير هذا ما بدأَت بهِ جدتهُ قبلهُ واول بطريرك تولى في روسيا كان يونانيًا ولذلك

دخل بين اللغة الروسية بعض حروف هجائية من اللغة اليونانية استفادوا منها دون ان يغيروا في اساس لغتهم الاصلية الصقلبية وبقيت بطاركة اليونان الى سنة ١٥٨٨ قائمين في روسيا الى ان تخلى البطريرك ارميا (يرميا) بموجب معاهدة عقدت وقتئذٍ في اقليم نوفغورود وكان مطرانًا وسمي بوب بطركًا عليها عوضًا عنهُ . ومنذ ذلك الحين صارت كنيسة روسيا قائمة بنفسها . وفي الواقع لو بقيت الكنيسة في يد اليونان لاورث ذلك روسيا عارًا ولحق بالكنيسة الخللُ

وكان بطرس من نسل رجل تولى منصب البطريركية على روسيا فبعد ان صار بطاركة هذه الدولة قائمين بامورها طمحوا الى ان يشاركوا ملوكها في احكامهم السياسية ولم يكفهم التسلط الديني والادبي والسياسي الذي كانوا قد احرزوهُ بالتسلط على ذواتهم وكان من المفروض على الملك ان يمشي في يوم من السنة بين يدي البطرك مكشوف الراس قائدًا فرسهُ دلالة على استعباده لسلطتهِ وانقياده لشخصهِ ولما كانوا يرونهُ لهم من السلطة الخارقة العادة على نفس الملك مالوا الى الطمع وتداخلوا في مشاركة الحكام باحكامهم فنشأ عن ذلك فتن وانقلابات في بلاد روسيا كما وقع في غيرها من الدول . وذلك ان

البطرك نيقون تقلد منصب البطركية في عهد الكسيس ابي بطرس الكبير واراد ان يجعل تختهُ اعلى مقامًا واعز سلطانًا من سرير الملك فحصل في الاول على بعض ما يريده ولم يكفهِ ان جعل لنفسهِ مقامًا بجانب الملك وان يكون شريكهُ في المشورة حتى تطوح بزعمهِ الى انهُ لا يمكن عقد صلح او فتح حرب الاَّ برضاهُ وقبولهِ مجردًا الملك من حقوقهِ بذلك . ولما كانت سلطتهُ موَّيدة بثروتهِ العظيمة وكانت دسائسهُ غريبة وجميع القسوس منضمين اليهِ وكثير من الاهالي يعتبره كان الكسيس صاغرًا الى سيادتهِ كالرقيق وقد توصل هذا البطرك الى ان تجاسر بطرد ارباب المشورة من المجالس حيث توقفوا عن قبولهم بافراطهِ ومجاوزتهِ الحد . ورأَى الكسيس من نفسهِ انهُ غير قادر على فصلهِ فعمد الى كبحهِ بوسائل اخرى جبر عليها وهو انهُ عقد جمعية من الاساقفة استمالهم اليهِ فادعوا على هذا البطرك انهُ اخذ اموالاً من البولونيين على سبيل الرشوة واثبت عليهِ ذلك فحكم بنفيهِ الى الدير مدة حياتهِ وانتخبت تلك الجمعية بطركًا غيرهُ . وعند ظهور الديانة المسيحية في روسيا كان بها مذاهب دينية متفرقة كغيرها في الممالك ينشأ غالبًا عن جهل اهلها فهذه الدولة وان كانت هي الدولة الكبيرة النصرانية لم ينتج ظهور الدين

المسيحي فيها حروبًا مدنية داخلية كما وقع في غيرها من الدول المتمدنة لكن وقع بسببهِ بعض نزاع كان يوخرها احيانًا . وكان فيدوربن الكسيس واخوه بطرس الكبيرقد منحا في قوانينهما حرية الدين . فكان في زمانهما لا الدين الارثوذكسي وحده في الامة الروسية بل انتشر معهُ اللاتيني والبروتستانتي والكلفيني وقد رخص كلٌ منهما لكل انسان ان يعبد الله عزَّ وجل على ما تطلبهُ نفسهُ ويختارهُ لها لكن بشرط ان يؤدي ما عليهِ للدولة حق التادية . ومع هذا كلهُ لم تقم في كل روسيا كنيسة كاثوليكية الاَّ في استراخان حين انشأ بطرس المعامل وجلب اليها سبعين عائلة كاثوليكية ومعهم قسوس من الكبوشيين . ومع ان بطرس الكبير كان يميل الى حرية الاديان ويرغب في دخول الاجانب بلادهُ والاختلاط باهلها لم يرضَ باقامة اليسوعيين فيها ولذلك اصدر امرًا عامًا بطردهم من عموم بلاد روسيا وذلك في نيسان سنة ١٧١٨ والسبب انهُ لما راهم كثيرين في الدسائس السياسية والمداخلات الفضولية خاف منهم على الاخلال بالمملكة بخلاف الكبوشيين الذين كان يرغب فيهم ولا يتضرر منهم لا لتفاتهم الى خدمة الكنيسة فقط وتركهم كل ما هو خارج عن الدين وعدم مداخلتهم في ما لا يعنيهم

واما اليهود فلم يكن لهم في روسيا بيع ولا معابد كما كان لهم في غيرها من ممالك اوربا من القسطنطينية الى رومية مع ان تجارة روسيا كانت مقصورة في الغالب عليهم وعلى الملل المقيمة عندهم . وقد اختصت الكنيسة الروسية وحدها دون غيرها من الكنائس الارثوذكسية في الممالك الاخر بان لا يكون بجوارها معابد لليهود

وقد جعل بطرس الاكبر لدولة روسيا شوكة عظيمة في مصالح اوربا لم تسبق ان حازتها منذ دخول الديانة المسيحية فيها وكانت قبلهُ اي قبل زمان بطرس غير منتظمة و كان اهلها يركبون البحر الاسود ويفعلون بسواحلهِ ما كان يفعلهُ النرمنديون في جهة الافرنج عند سواحل المحيط الغربي . وقد جهزت في زمن هرقل اربعين الف قارب وحاصرت القسطنطينية وشرطت على ملوكها دفع الاخرجة . وفي زمن ولدمير ضعفت وكادت تضمحل لانهُ قسمها بين اولادهِ فتفرقت واصبحت مدة ليست بقليلة عرضة لغارات التتار وغنيمة لمطامعهم حتى استعبدوا اهاليها نحو مائتي سنة الى حين انقذها منهم ايفان باسيلوفتش ووسعها ثم خربتها بعدهُ الحروب الاهلية . ولم يكن لروسيا شأن يذكر قبل ايام بطرس الاكبر كما صار لها

في زمانِهِ و بعدهُ سواءٌ كان من جهة العظمة والنفوذ او من جهة كثرة الاهالي ونجاح المحصولات ورواج الصنائع ونحوها . وقبلهُ لم يكن لروسيا قط شيءٌ باقليم فنلندة ولا باقليم بلافونيا الذي هو الان احسن من بلاد سيبيريا بتمامها ولم يكن اذ ذاك القوزاق تحت حكومة روسيا وكان ايضًا اهل استراخان لا يطيعونها حق الطاعة ولم يكن لها نفع البتة من التجارة بالبحر الابيض الروسي وبحر بلطيك والبحر الاسود وبحر ازوف وبحر الخزر اذ لم يكن لها سفن تجارية البتة . ومما كان يزيد في تاخرهم صناعة وتجارة عدم معرفتهم لغات غيرهم من الدول المتمدنة وعدم معرفة احد بلغتهم . فكانت اوسع ممالك الدنيا لكن كانت اكثرها تاخرًا

ولذلك نرى انهُ ما من ملك اسعد من بطرس الكبير حيث انفرد بمعرفة الناس لتاريخِهِ حق المعرفة بخلاف تواريخ موسسي الدول الكبيرة المتمدنة فان اكثرها مشرب بالخرافات الفاسدة والترهات التي يستبعد تصديقها العقل واما ما نحن بصدده الان من الكلام عن هذا الموسس الذي جاء بلاده وهي في حالة عمياء هو من الحقائق الثابتة ولو لم تعضد بالادلة الواضحة والبراهين الجلية لعدها الناس كغيرها من الخرافات

الفصل الثالث

في الكلام عن اسلاف بطرس وجدوده

استولت هذه العائلة على العرش الملكي سنة ١٦١٣ بعد ان كانت البلاد قبل ذلك قد وقعت في تغيرات وانقلابات اوجبت منع اصلاحها وتهذيب اخلاقها وادخال العلوم والفنون فيها . وذلك ان بوريس غودونوف قتل الوريث الوحيد للمملكة سنة ١٥٩٧ وهو ديمتريوس واستولى على البلاد بالافتراء والتعدي ثم ظهر شابٌ من الرهبان ادعى انهُ ديمتريوس وانهُ المستحق والوريث للمملكة وقد تخلص وفرَّ من ايدي الذين اشاعوا قتلهُ . وعضد دعوى هذا الراهب البولونيون وكثير من الذين كانوا يبغضون بوريس ومظالمهُ فطردوه والبسوا التاج الراهب المذكور الا انهُ ما لبث ان ظهر منهُ التعدي والجور والظلم والتعصب فاغضبهم فقتلوه . وتعاقب بعده ثلاثة ملوك ادعى كلٌّ منهم انهُ ديمتريوس فارتقى العرش . وهذا يدل على جهل مملكة روسيا في ذلك الوقت لانهُ من المقرر انهُ كلما زاد توحش الانسان سهل اغراؤُه وغشهُ ولا ريب ان في زمن هولاء المدعين الملك كذبًا قد وقع اختلال كبير في سائر المملكة وتغيرت احوالها فالبولونيون الذين بدأُوا باضرام نار

الفتن بعضدهم للراهب المدعي انهُ ديمتريوس توصلوا الى ان صاروا قريبين جداً من الاستيلاء على البلاد وتقاسم الاسوجيون جزءاً من الدولة المذكورة لجهة فنلندة ولم يكفهم ذلك حتي زعموا ان لهم الحق بالكرسي الملكي فتطلبوه بما جعل الدولة اوائذٍ على اخر رمق مشرفة على الخراب والانقراض وفي اثناء هذه الارتباكات عقدت جمعية من الاعيان سنة ١٦١٣ انتخبت شاباً عمرهُ ١٥ سنة عهدت اليهِ بالسرير الملكي ولم يكن ذلك كافياً لقلع جرثومة الفشل والشقاق . وهذا الشاب هو ميخائيل رومانوف جد العائلة التى ملكت من بعده وابن المطران روستو الملقب بفلاديت وامهُ راهبة لها نسابة بنساء الملوك القدماء . وكان هذا المطران من الملتزمين اصحاب الشوكة والاقتدار الا ان الطاغي بوريس كان جبره على الترهب كما جبر زوجتهُ شرمنتو على ذلك ايضاً اي انها تدخل الرهبنة ثم ان الملك ديمتريوس اخرجهُ وارسلهُ الى مملكة بولونيا بصفة سفير فسجنهُ البولونيون لانهم كانوا يحاربون روسيا ولا غرابة بسجنهِ لان اولئك القوم لم يعرفوا ما للدول على بعضها من الحقوق

وكان انتخاب هذا الشاب رومانوف ابن المطران روستو

في زمن سجن ابيهِ ببلاد بولونيا ففدى والدهُ بما عندهُ من اسرى بولونيا وبمجرد فكهِ من سجنهِ ورجوعهِ الى روسيا جعلهُ ابنهُ بطركاً ولذلك كان هو نفسهُ الحاكم وكان لابنهِ الاسم فقط

واما عادتهم في الزواج فكانت غريبة كما ياتي . كان ملوك روسيا باوربا واسيا لا يتزوجون من نساء الدول الاجنبية منذ سنة ١٤٩٠ والظاهر انهم من حين استيلائهم على كازان واستراخان تخلقوا على نوع ما باخلاق اهل المشرق ولا سيما في العادة الجارية عندهم من ان الملك لا يتخذ زوجة الا من رعاياهُ . ومما يشبه العوائد القديمة تماماً هو ان الملك اذا اراد الزواج أُتي لهُ بعدة بنات من اجمل بنات المملكة فتستلمهن سيدة قصرهِ وتضع كل واحدة منهنَّ في غرفة على حدة وفي وقت الطعام تاتي بهنَّ وتضعهنَّ حول المائدة وحينئذ ياتي الملك متنكراً او غير متنكر وذلك في اليوم المعين للزواج فمن وقعت في قلبهِ وحسنت في عينيهِ خلع عليها خلعة العرس ثم تفرق اثواب اخرى على بقية البنات ويؤمرنَّ بالانصراف الى منازلهن الاَّ ان هذه العادة جرت اربع مرات فقط في ملوك روسيا . وعلى هذا النمط كان زواج ميخائيل رومانوف بلادكسا وهي بنت رجل متوسط الحال اسمهُ استرسنو فبينما هو

يشتغل بزراعة ارضهِ مع خدمهِ اتاهُ جماعة من الحجاب بالهدايا من قبل الملك واخبروهُ ان بنتهُ تزوجها الملك . وكان شخص هذه الملكة معتبرًا عند عموم الامة الروسية واسمها محبوبًا عند جميعهم

ومما يستدعي الالتفات هو انهُ قبل انتخاب رومانوف للتولي على المملكة كان حزب عظيم منها قد وقع انتخابهُ على الامير لادسلاس بن سيجسمند الثالث ملك بولونيا وكذلك الاقاليم المجاورة لمملكة اسوج تطلبت التاج لاحد اخوة غسطا ادولف وعليهِ كان اختلاف عظيم وصعوبات كلية تحيط بنفوذ الملك وسلطتهِ . ولم يكن الملك قبل ذلك الحين انتخابيًا لكن لما لم يبقَ احد من ذرية ملوكها القدماء وهلك بها اخيرًا بالارتباكات سنة منهم اوجب الامر الى انتخاب ملك آخر كما تقدم . فترتبت عليهِ حروب جديدة بين الروسيين والبولونيين مع الاسوجيين لان كلاً منهما كان يزعم ان الحق لهُ في الاستيلاء على التاج الملكي الاَّ انهُ لما كانت دعواهما بغير حق لم تساعدهما الظروف عليهِ مدة طويلة فان البولونيين بعد ان غاروا على الروسيين وتوغلوا في بلادهم حتى كادوا يصلون الى موسكو وسلبوا ونهبوا كما كانت العادة وقتئذ عند وقوع الحرب عقدوا هدنة

لاربع عشرة سنة بموجبها استولت بولونيا على دوقية سمولنسك الصادر منها نهر الدنيبر والاسوجيون ايضًا عقدوا صلحًا من شروطهِ ان يدخل اقليم انغريا في قبضتهم وان يمنع الروس من التجارة ببحر البلطيك ولهذا السبب بقيت روسيا زمانًا طويلاً منفردة عن دول اوربا . ومنذ عقد هذه المعاهدة لبث الملك ميخائيل رومانوف حاكمًا بالراحة والطانينة ولم يطرأ على دولتهِ من التقلبات ما يفسد ادارتها او يصلح حالها . ومات ميخائيل الموما اليهِ سنة ١٦٤٥ واستولى على الكرسي بعده ابنهُ الكسيس ميخايلوفتش وهو ابو بطرس وكان عمرهُ عند موت ابيهِ ١٦ سنة فتناول الملك بالارث الشرعي وكان البطرك يضع التاج على راس ملوك روسيا كما كان في زمن ملوك القسطنطينية الرومان ولذلك كان يجلس البطرك مع الملك في مجلس واحد ويقرر التساوي بينهُ وبين الشوكة الملكية

واتخذ الكسيس في زواجهِ طريقة ابيهِ حيث انتخب اجمل البنات اللاتي قدمن لهُ وهي احدى بنتي رجل من اكابر البلاد اسمهُ ملسلسكي سنة ١٦٤٧ وتزوج نديمهُ او بالحري وزيرهُ مرسو بالبنت الثانية وكان مرسو هذا مطلق التصرف في الدولة نافذ الكلمة فنشأ عن نفوذه عصيان الاستراليتش والرعايا .

وتزوج الكسيس ثانية في السنة التي بعدها بامرأة نارسكانية

وكانت مدة الكسيس مشغلة بالفتن الداخلية والخارجية وسفك الدماء وقد خرج عليهِ استنكورازين احد روساء قوزاق نهر طنايس واراد التملك على استراخان فاشغل الحكومة زمنًا طويلاً واوقع الرعب في قلوب الاهالي وبعد حروب كثيرة قبض عليهِ وقتل وقيل ان ١٢ الفًا من احزابهِ شنقوا بامر الملك على الطرقات في استراخان فلم يؤثر ذلك في اهلها ولا اخافهم لانهم لما كانوا طبعوا على الخروج وعدم الانقياد وقلة التهذيب كانوا يصرون على اخذ الثار ويضمرونهُ الى حين سنوح الفرص. وحارب الكسيس ايضًا البولونيين فظفر بهم وعقد معهم صلحًا اكسبهُ الاستيلاء على سمولنسك وكياف واوكرينة . واما قتالهُ مع الاسوج فكان محفوفًا بالخون وعدم التوفيق فلم يظفر بهم ولذلك بقيت بلادهُ ضيقة من جهة حدودهم

وبعد ذلك غارت الدولة العثمانيـــة على بولونيا سنة ١٦٧١ فاخذت كامنديس العظيمة واستولت على جميع ما كان لمملكة بولونيا باوكرينة وضربت عليهم الجزية فارعب ذلك الكسيس وجعلهُ يرسل رسلاً الى كل دول اوربا يستنصرهم على الدولة

العثمانية ما عدا فرنسا لعلمهِ انها كـانت اوانئذٍ محالفة للدولة العلية فردت رسلهُ بالخيبة بسبب النزاع والتنافر الذي كان واقعًا بينهم فلم يمكنهم التحزب والتجمع ضد الدولة الظافرة . الاَّ ان البولونيين في سنة ١٦٧٤ امتنعوا من دفع الجزية للعثمانيين فاخذ السلطان يتهددهم بالتغلب على بلادهم وارسل عليهم القوات فاعانهم عليها الكسيس من جهة القرم واقام حناسو بيسكى البولوني بحروب عجيبة ولا سيما في وقعة كوكزيل الشهيرة التي اكسبتهُ النصر التام وسهلت لهُ طرق الجلوس على تخت بولونيا فنازعهُ بذلك الكسيس وطلب ان يضم بولونيا المتسعة الى مملكتهِ فلم يفز من طلبهِ هذا الا بالقليل

وكان الكسيس مع كثرة الموانع والفتن قد وضع اسسًا للقوانيين والشرائع وادخل في بلادهِ صناعة الاقمشة والحرير وان كانت لم تمكث الا زمنًا قصيرًا الا انها كانت كافية لان تكسبهُ شرفًا وفخرًا لانهُ بدأ بها وقد اقام ابنية كثيرة قريبة من نهري الاثل وكاما وانزل بها قومًا من لسيانة و بولونيا والتتار كان استأسرهم اثناء حروبهِ معهم وكانت العادة عندهم ان الاسارى يبقون بيد الآسر كارقاء ان شاء ابقاهم وان شاء اطلقهم ولذلك اختار ان ينتفع بهم في تلك الاماكن لعمارها وزراعة

ارضها . وبذل جهدهُ في تربية عساكرهِ وتعليمهم الاّ ان المنية خانتهُ فلم يتمكن من اتمام غايتهِ بل تركت الى حين استيلاء بطرس الكبير على المملكة وكانت وفاتهُ في اوائل سنة ١٦٧٧ ولهُ من العمر ست واربعون سنة . وبموتهِ اختل النظام في بلادهِ وكان قد ولد لهُ من زوجتهِ الاولى ولدان ذكران وهما فيدور وايفان وست بنات ومن زوجتهِ الثانية بطرس والاميرة ناتاليا وكانت ولادة بطرس في ٣٠ أيار سنة ١٦٧٢ وعلى هذا كان عمرهُ عند موت والدهِ اربع سنوات تقريبًا وكان بطرس واختهُ غير محبوبين في البداية عند احد من المملكة الروسية ولم يخطر لاحد قط انهُ يستولي على الملك ويأتي بالاعمال الغريبة النافعة

وكان فيدور موصى لهُ بولاية العهد من ابيهِ لانهُ اكبر اولادهِ وهكذا كانت العادة عند عموم الامم المتمدنة ولا سيما في فرنسا . وهو ضعيف البنية كثير الامراض ومع ذلك لم يمتنع عن الجلوس على الكرسي بل اسلتم زمام الاحكام وجعل يديرها بمعرفتهِ ويهتم بها بقدر ادراكهِ وكان اخوه ايفان مثلهُ ايضًا كثير الامراض والعلل يعتريهِ داء التشنج في اكثر اوقاتهِ وكان اشهر اخواتهِ صوفيا وقد امتازت على غيرها بفطنتها

ووفور عقلها واشتهرت بذلك كما اشتهرت بمعاندتها لبطرس وبغضها لهُ واهتمامها بالاضرار بهِ

واما فيدور فمع ما كان عليهِ من الرغبة في نجاح وطنهِ وتشييد موسكو كان يرغب ايضًا في حط سلطة الامراء في بلاده فاغضبهم ذلك وجعلهم غير راضين منهُ ولم يكن فيهِ من حسن السياسة والتبصر في العواقب ما يجعلهُ نافذًا في اجراءاتهِ . وكانت الحرب اذ ذاك واقعة بينهُ وبين التتار ولضعف جسمهِ كان يمتنع عن ان يتصدى للقيام بحروب ذات انتصارات نافعة كآبائهِ . وتزوَّج على طريقة اسلافهِ بامراة من رعاياه اصلها من ضواحي بولونيا الاَّ انها ماتت حالاً فتزوَّج بعد سنة بغيرها وهي بنت كاتب سرّه وبعد مضي ايام من زواجهِ هذا اشتد بهِ المرض فلازم الفراش وبقي اياماً عليهِ الى ان رأى من نفسهِ انهُ لا بد من موتهِ وان حياتهُ لا تطول ولذلك اوصى بالملك من بعده لاخيهِ بطرس من ابيهِ لما كان يعهدهُ في اخيهِ ايفان من الاعتلال والضعف وتوفي سنة ١٦٨٦ وبطرس اذ ذاك ابن عشر سنين الاَّ انهُ كان ذا نيرة وادراك ومقاصد عظيمة

وقد تقدم معنا ان الملوك يتزوجون على تلك العادة المسهلة لايجاد زوجات حالاً بخلاف بناتهم فانهُ كان يندر

ايجاد ازواج لهنّ فكن يقضين كل عمرهنّ بلا زواج فيلتزمن اخيرًا للترهب ودخول الاديرة · وكانت صوفيا ثالثة بنات الكسيس من زوجتهِ الاولى وكانت ذات قريحة جيدة وافكار سياسية لكن كان يتغلب عليها رداءة الطبع والبغض وحب الانتقام ولما رات ان اخاها ايفان مريض وبطرس صغير ارادت ان تستلم زمام الاحكام وتشارك بطرس فيهِ وتديرهُ بمعرفتها وتتسلط عليهِ بسياستها

الفصل الرابع

في الكلام عن ايفان واخيهِ بطرس والفتنة التي قام بها وجاق الاسترلتش

جلس بطرس على كرسي روسيا بعد موت اخيهِ فيدور وهو ابن عشر سنوات وكان اخوهُ ايفان يزاحمهُ على الملك ويطمع فيهِ بتحريكات اختهِ صوفيا وكانت تكره بطرس كل الكره وترغب لهُ الهلاك والموت املاً ان يصفو لها الوقت وتسود بارائها وغاياتها وكان معظم كرهها لخالتها الارملة الشابة زوجة ابيها لحرصها على حياة ابنها بطرس واعتنائها بالامور بحسب مشتهاها وبناءً عليه اتخذت حزب الاسترلتس سندًا لها واغرتهُ على اثارة الفتنة وقلب كرسي الملك بالايقاع بمحبيهِ واحزابهِ ومن بيدهم زمام الاحكام والفواد فاصغوا لها وشمروا عن ساعد

العزيمة ونهضوا نهضة المنتقم فاول ما بدأُوا بهِ انتقامهم من تسعة قواد ادعوا انهم لم يدفعوا لهم المرتب تماماً · فاتوا القصر الملكي بعد موت فيدور بايام وجعلوا يصيحون متشكين من اولئك القواد وطلبوا تسليمهم ودفع مطالبهم فاجيبوا الى ما طلبوا ودفع اليهم المال تماماً وعزل القواد التسعة فلم يكتفوا بذلك بل امروا ان يسلم القواد اليهم واكثروا من التجمهر والصياح والتهديد والتوعد الى ان قبضوا على الضباط المذكورين فحكموا عليهم حكماً عاماً بان يعاقبوا بالضرب على الطريقة المصطلح عليها عندهم وهي ان يجرَّد المرء من ثيابهِ ويلقى الى الارض على بطنهِ وياخذ اثنان جلادان العصي الثخينة فيضربانهِ ضرباً متواتراً حتى يامر الحاكم بالكف · فبعد ان عاقبوهم هذا العقاب اجبروهم على تقبيل ايادي روسائهم والزموهم الى دفع دراهم فرضوها عليهم فقبضوها وفرقوها على العساكر · وفي تلك الاثناء جمعت الاميرة صوفيا جمعية مولفة من الاميرات اللاتي كن من العائلة الملكية ومن بعض قواد الجيوش والحكام والاساقفة واعيان وتجار وخطبت فيهم قائلة ان الامير ايفان هو احق بولاية العهد لكبرسنهِ واستحقاقهِ ووجهت بافكارهم الى وجوب وضع معاطاة الاحكام في يدها

فانفضت تلك الجمعية على غير اتفاق تام ولذلك جمعت اليها
روساء الاسترلتش ووعدتهم بزيادة مرتباتهم وحركتهم الى عداوة
عائلة نارسكان وهي عائلة الاميرة الشابة والدة بطرس وبالاخص
على اخويها واعطتهم دفترًا مشتملاً على عدة حوادث هيجت
بها غضبهم منها ان احدهما حنا نارسكان اخذ ثوب بطرس
وجلس على سرير الملك وانهُ حاول خنق الامير ايفان اخيها
وان الطبيب الفلمنكي المسمى دانيال ونغاد قد دسَّ السم
للملك فيدور فاماتهُ وبالاختصار ان هذا الدفتر كان يتضمن
تحريك الاسترلتش والانتقام من اربعين شخصًا كانت تكرههم
زعمت انهم مضرون بالملك وبالمملكة ومن الواجب ذبحهم
ولهذه الوشايات ثار اولئك البرابرة ضد من عاند صوفيا
فاخذوا الاميرين دولغروكي ومافووا القوهما من الشبابيك فتنا ولتهم
العساكر على اسنة الحراب من الاسفل . ثم دخلوا دار الاحكام
فوجدوا فيها احد اخوال بطرس وهو اتنان نارسكان اخو الملكة
فذبحوه وكسروا باب الكنيسة فوجدوا فيها ثلاثة رجال
فاخرجوهم ونزعوا ما كان عليهم وجعلوا يضربونهم بالسكاكين
حتى ماتوا . وكانوا لفوران غضبهم يمرون في الاسواق شاهرين
السلاح فيقتلون كل من يصادفونهُ ولا يعرفونهُ وذات مرة

صادفوا شابًا من عائلة سلتيكوف التي كانت مالكة قبلاً وكانوا يحبونها جداً ولم يكن ممن يقصدون قتلهُ لكن الغضب اعمى بصائرهم وتوهم البعض انهُ هو نفس حنا نارسكان الذي كانوا يبحثون عنهُ فقتلوه وبعد ان اعتقدوا انهُ ليس هو المطلوب وعرفوه يقينًا حملوا جثتهُ وجاءُوا بها الى ابيهِ ليدفنها فشكرهم وكافأهم عوض ان يضجر منهم فعنفتهُ زوجتهُ وبناتهُ وزوجة ابنهِ المقتول على هذا الضعف فاجابهنَّ فلنصبر الان الى ان يدنو زمن الانتقام . وبلغ ذلك الاستريليتش فجاءُوا اليهِ الى بيتهِ وجذبوه من شعره وذبحوه على باب بيتهِ . وكان البعض منهم يطوفون باحثين على الطبيب الفلمنكي الذي زعموا انهُ دس السم لملكهم وقد صادفوا ابتداء تطوافهم ولدهُ فسالوه عن مقر ابيهِ فانكر معرفتهُ وهو يرتجف من الخوف والرعب فقتلوه ورموا بشلوه في الازقة وقد صادفوا ايضًا طبيبًا نمسويًا مارًا في طريقهِ فقبضوا عليهِ وقالوا لهُ ان لم تكن انت نفس الطبيب الفلمنكي الذي سم ملكنا فيدور فانت طبيب مثلهُ ولا ريب في انك قد تكون امت كثيرين بالسم فجزاؤك الموت فقتلوه وداموا على تفتيشهم وبحثهم دون كلل ولا ملل الى ان عثروا بالطبيب الفلمنكي وهو بصفة شحاذٍ ولم تخفَ عليهم حالتهُ فقبضوا عليهِ

وسحبوه الى قرب دار الحكومة فرأتهُ الاميرات اخوات الملك وكن يحببنهُ لجلالة قدره ويثقن بهِ كل الوثوق ولذلك سالن لهُ العفو منهم فلم يقبلوا وقالوا لهن لا يستحق القتل لكونهِ قتل بالسم ملكنا فقط لكن لكونهِ ساحرًا ايضًا فقد وجدنا عندهُ ضفدعة كبيرة جافة وجلد ثعبان · ثم انهم اكثروا من الصياح وطلبوا ان يسلم اليهم ايفان نارسكان الشاب وقد بلّغوا انهُ مختفٍ داخل السرايا وقالوا ان امتنعتم عن تسليمهِ احرقناها باجمعها · فلم يسع الاميرات ورجال القصر الاَّ الاجابة وذهبوا الى المكان الذي كان فيهِ ايفان وبلغوه طلب الاسترلتش فقبل الموت بصبر ودعا البطرك للاعتراف فعرفهُ ومسحهُ وناولهُ القربان وتقدم ايفان مع الاميرات اللاتي رفعن على عواتقهن صورة مريم العذراء وتقدمن الى امام الاسترلتش يشفعن بالطبيب وايفان ويسألنهم بالعذراء وبالمسيح ان يتركوهما وقد جثون امامهم اذلاء يتوسلن بحرارة وبالحاح فلم يسمعوا لهن بل اخذوا ايفان وقرنوه الى ونغاد الطبيب الفلمنكي وعقدوا لجنة يفكرون في اي ميتة يميتوهما فجزموا بان يقطعوهما بالبلطات قطعًا قطعًا وكان هذا القصاص جاريًا عند التتار بحق من قتل اباهُ او وليهُ ويسمى عندهم بعقاب العشرة آلاف قطعة وبعد ان عوقب ايفان وونغاد

بالعقاب المذكور رفعت قوائم اجسادهما ورؤوسهما على قوائم درابزون من حديد كان منصوبًا هناك . وفيما كان هولاء يبذلون الجهد في الانتقام امام الاميرات كان كثيرون من رفاقهم يشتغلون بنهب وذبح من كان يخطر لهم انهُ عدوٌّ لهم ومن كانت الاميرة صوفيا تسيء الظن بهم

وقد انتهت هذه الافعال القبيحة والعقوبات الرديئة في شهر حزيران من سنة ١٦٨٢ بجعل الاميرين ايفان وبطرس حاكمين تحت نظارة اختهما الاميرة صوفيا فكانت كوكيلة عليهما وقد اظهرت سرورها مما فعلهُ الاسترلتش من الذنوب وكافأتهم احسن مكافاة وضبطت اموال المقتولين واملاكهم وامتعتهم واعطتها للاسترلتش واذنت لهم فوق كل ذلك ان يشيدوا بناية يرسمون عليها اسماء جميع من قتلوا عقابًا لهم في مقابل خيانتهم لوطنهم ودفعت اليهم كتابات تبقى بيدهم تتضمن الشكر لاعمالهم والرضا عنها

الفصل الخامس

في وقوع المشاجرات والفتن التي عقبت قيام الاميرة صوفيا على المملكة

لقد تقدم معنا ان الاميرة صوفيا استولت على كرسي دولة روسيا بما حصلت عليهِ من النفوذ فكان كلُّ شيءٍ مفوضاً لامرها ولم يكن لاخويها الاَّ بعض الاسم فقط وقد وصلت الى درجة عليا لم يسبق ان نالتها اميرة مثلها فكانت توقع على كل اوامر الدولة واوراقها و يرسم شخصها على المسكوكات السائرة واخذت في مجلس الشورى المحل الاول والراي الاول فكان كل شيءٍ يتعلق بكلمتها وذلك لفطنتها و براعتها وكونها كانت كاتبة شاعرة فصيحة جامعة بين العلم والحسن الفائق الذي زاد في معارفها وفطنتها لكن كان طمعها يضرُّ بفطنتها ور ونق معارفها ويسوّد وجه جمالها

ففي سنة ١٦٨٤ زوجت اخاها ايفان بفتاة من عائلة سلتيكوف الذي قتلهُ الاسترلتش كانت في سيبيريا حيث كان ابوها محافظاً في احدى قلاعها فقدمت مع من قدم من البنات على حسب العادة التي تزوج عليها اسلافهُ وحصلت على رضاهُ

وانتخابهِ . وفي اثناء هذا العرس اثار الاسترلتش فتنة واسعة النطاق تتعلق بالاعتقادات الدينية ومن الغريب ان يظن ان قوماً كهولاء يبحثون في المسائل الدينية ويقاتلون من اجلها وقد سبق ان بدىء بالنزاع في روسيا على رسم الصليب هل يكون بثلاثة اصابع او باصبعين وقام رئيس من القسيسين اسمهُ اباكوم اجتهد في تفسير الروح القدس واحدث مذهباً جديداً وذلك في ١٦ تموز سنة ١٦٨٢ فذهب على مذهبهِ جماعة من الاهالي والاسترلتش وعظمت احزابهُ وكثرت واقام عليهم رئيس اسمهُ رسبوب فتجمعوا وجاؤوا الكنيسة الكبرى حيث كان الاسقف والاهالي يصلون فاخذوا يرمونهم بالحجارة حتى اخرجوهم منها ودخلوا يستمدون نزول الروح القدس فذهب جماعة الاسقف المطرود الذي كانوا يلقبونهُ بذئب الزرية الى الاميرة صوفيا واخويها وعرضوا عليهم ما كان من امر جماعة اباكوم فبعثوا بالاسترلتش الذين لم ينضموا الى المذهب الجديد وتبعهم جمهور غفير من الاهالي وحدث بينهم القتال والنزاع وكثرت المشاحنات والاختلافات حتى افضى بهم الامر اخيراً الى تعيين لجنة من القسيسين للنظر في هذا الامر . فاجتمعت اللجنة في دار الحكومة وقد سمح لكل من اراد من القسيسين

الحضور في تلك اللجنة دون مانع وبدئت في العمل والنظر في المذهب الجديد واخذ رسبوب يجادل ويناضل في اثبات ادعاء اباكوم واجهد جماعة الاسقف انفسهم في بطلانهِ فاتسع الجدال والادعاء حتى اتصل الى النزاع فاخذوا يترامون بالحجارة ويتلاطمون واخيرًا تمكنوا من القبض على رسبوب فضربوا عنقهُ وبعض جماعتهِ وتفرق الباقون بامر الاميرة صوفيا واخويها

ولم تخمد جمرة هذه الفتنة حتى عقبتها فتنة أخرى اشد منها وذلك ان اميرًا اسمهُ كونسكوا كان ممن سعى في قيام صوفيا ومعاضدتها فطلب ان تشركهُ في الملك مكافاة على خدمتهِ السابقة لها فأَبت وارجعتهُ خائبًا . فاستغنم هذه الفرصة ودخل بجماعة رسبوب فضمهم اليهِ مع بعض الاسترلتش واعلن الفتنة مدعيًا انهُ يخدم الدين بما يرضي الله عزَّ وجلّ فاضرمت نيران تلك الفتنة ثانية اشد مما كانت في الاول ووقعت المذابح الهائلة المريعة ولما كانت غاية كونسكوا التسلط على البلاد عزم على قتل الاميرة صوفيا واخويها وكامل العائلة الملكية ومن يلوذ بها بحيث لا يبقى لهُ ممانع ولا معارض فاضطر الامراء الى الالتجاء الى دير الثالوث الاقدس وهو يبعد ١٢ فرسخًا عن موسكو وكان

حصيناً جداً وفيهِ قلعة ودار حكومة يحاط بهِ خنادق متسعة
واسوار مبنية بالاجرّ مملوءة بالمدافع ويسكن هذا الدير كبار
الرهبان والقسوس . فلما أُدخلت اليهِ العائلة الملكية امنت على
نفسها من مطامع الخوارج وارتاح بالها ومن ثم اخذت الاميرة
صوفيا تكاتب كونسكوا وقد وعدتهُ المواعيد الحسنة وانها تجيبهُ
الى كل ما يطلبهُ وان تكون بيدهِ فانخدع بمواعيدها وجاء اليها
مع بعض اصحابهِ حتى اذا وصل الى منتصف الطريق خرج عليهِ
اصحابها فقتلوه وقتلوا ٣٧ نفساً من اصحابهِ وواحد اولادهِ . فبلغ
ذلك الاسترلتس فهاجوا وماجوا وتسلحوا وجاءوا الدير المذكور
وفي نيتهم تدمير الدولة وخرابها عن آخرها ومحو اثار تلك العائلة
فعرف ذلك امراء المدينة وكبراؤها وكثير من الاهالي فتسلحوا
وتسلح اتباع الامراء وتسابقوا الى جهة الدير للمحاماة عنهُ وعن
ملوكهم . فحدث بالقرب من الدير المذكور مواقع هائلة سفكت
فيها الادمية الغزيرة واشتدت فيها نيران الخصام وقتل كثيرون
من الفريقين حتى اوجب الحال تداخل البطرك اخيراً مع
الاسترلتس وجعل يسكن من غضبهم فكفوا عن القتال عند
ما وجدوا ان الاهالي على ازديادٍ ياتون فرقاً فرقاً من جهات
كثيرة للدفاع عن الدير وعن ملوكهم وابدوا الطاعة وعرفوا ان

لاتقوم لهم قائمة في مثل هذه الاحوال · فارادوا ان يتلافوا امرهم فتقدم منهم نحو ثلاثة الاف واربعمائة استرلتشي ووضعوا الحبال في رقابهم ونساؤُهم واولادهم خلفهم يبكون ويطلبون لهم العفو والسماح ودخلوا الدير حناة الرؤُوس مع انهم من قبل بثلاثة ايام كانوا يطلبون هدمهُ وتدميرهُ بالنار وكان دخولهم ازواجًا ازواجًا بصف واحد كاولاد المدارس وبايديهم الفؤُوس عليها قرام من الخشب وعندما قربوا من ملوكهم خروا لهم سجداً ثم وقفوا ينتظرون منهم الامر بعقابهم وقصاصهم فعفي عنهم وساروا عائدين مظهرين فرحهم في ملوكهم يدعون لهم بطول العمر وفي افئدتهم منهم نار تتلهب مما لحق بهم من الفشل وصبروا على نية العود الى الانتقام عند سنوح الفرص وبعد ذلك اخذ المتجمعون يتفرقون وهم فرحون بخلاص ملوكهم ومسرورون من معاملتهم وعادت الاميرة صوفيا واخواها من دير الثالوث الاقدس الى مقرهم وهم امنون من الرجوع الى الثورة ثانيًا

ولم تزل للاميرة صوفيا الكلمة الاولى في المملكة وبين الرعايا وقد الجاتها الضرورة الى التخلي عن اخيها ايفان بعد ذاك الحب الاعمى لمارأته غير صالح للملك واقتصرت على وكالة اخيها بطرس اسمًا لكن اشركت معها في الملك الامير بانزيل

غالتزين وقلدتهُ الوزارة وكان حكيماً عاقلاً . وقد قال عنهُ
احد سفراء الدول الاجنبية وهو في روسيا وقد عرف مزاياهُ
واطوارهُ ومعارفهُ انهُ ابرع من بديوان روسيا فهو مؤدب ظريف
لا يتشبث الا بالمعالي وعظائم الامور وكان يفوق بمعارفهِ اهل
روسيا قاطبة متوقد القريحة حسن السياسة قلدتهُ صوفيا الوزارة
وجعلتهُ ناظر العساكر ومدبر الدولة وشريك الكلمة والراي .
اه . وهذا الرجل هو الذي بدأ باذلال الاسترلتش واخضاعهم
ففرقهم بين العساكر يوماً بعد يوم وابعدهم الى اوكرينة وكازان
وسيبيريا ونحوها حتى تشتتوا دون ان يعلموا وامنت المملكة
من فتنهم . وبنفس مدة هذا الوزير نزل البولونيون للروسيين
عن جميع حقوقهم في اقليمي سمولنسك واوكرينة وذلك سنة
١٦٨٦ . وهو ايضاً الذي ارسل السفير الاول الروسي الى
فرنسا سنة ١٦٨٧ في زمن لويس الرابع عشر ولم يكن سبق
اتصال بين هاتين الدولتين . فتلقت ذلك جمعية الاثار في
فرنسا تلقي الفخار كأن تلك السفارة اتية من الهند وكان اسم
السفير المرسل دولغروكي ولم يكن اتباعهُ من اهل التمدن والتفنن
ليحسنوا السلوك ويحلوا محل القبول لدى الملك الفرنسوي
ولذلك حبطت مساعي هذه السفارة وعادت خائبة

وبقيت المملكة الروسية مدة خالية من الحروب الداخلية والخارجية وكانت ضيقة الحدود من جهة بلاد اسوج ومتسعتها من جهة بولونيا الا ان المنازعات والمهاوشات بينها وبين قبائل التتار كانت متصلة ولا سيما تتار القرم المجاورين وكذلك كان النزاع والمحاورات بينها وبين الصين في شان الحدود والضواحي . وكانت مملكة التتار هي خرسونيزة التورية المشهورة بمخالطة اليونان قديماً واعتقادها بكل خرافاتهم وكانت ملوك هذه الخانيه يلقبون بقريم قبل ان فتحها اولاً جنكزخان سنة ١٦٨٧ و١٦٨٨ ولهذا السبب عم هذا اللقب البلاد فصارت تسمى بالقرم ولما اشتد امر التتار فيها وكثرت تعدياتهم سار غالتزين المذكور بنفسهِ يقود جيشاً جراراً الى محاربتهم ليطهر بلادهُ من الدنس الذي لحق بها بسبب اعمال هذه الطائفة ومنع الجزية التي كان ملكها قد ضربها على البلاد الروسية . ولما لم يكن للعساكر الروسية من الانتظام والترتيب شيءٌ مما هو في غيرهم من الدول المتمدنة لاقوا تاخراً عظيماً في بادي الامر لانهُ لم يكن بينهم ارتباط واتحاد كاف وليس لهم من التربية ما يجعلهم يعرفون اهمية مركزهم في بلاد العدو وكانت المهمات والذخائر كثيرة معهم الا انهم لما وصلوا الى نهر ساما لم يجدوا

على الوفاء وعدم الخيانة . ثم سار بهم الى الانتقام من اختهِ صوفيا وكانت قائمة في مدينة موسكو مع اخيها ايفان الذي كانت تنفر منهُ القلوب لقباحة منظرهِ . و بمدة قصيرة انتصر عليها وعلى احزابها وقبض على كثير منهم وعاقبهم العقاب الذي استحقوه فمنهم من قطع لسانهُ ومنهم من اماتهُ ضربًا بالسياط على ظهرهِ كما فعل برئيس الاسترلتش . ولما كان للامير غالتزين نسيب بين احزاب بطرس لم يعاقبهُ العقاب الذي عاقب غيره بهِ بل نفاهُ الى مدينة كرغا وعين لهُ كل يوم ثلاثة صلدات اي خمس عشرة بارة ومن ثم اعاد اختهُ الاميرة صوفيا الى ديرها بمدينة موسكو لتقضي ايامها بهِ بالرغم عنها ولم يترك لاخيهِ ايفان امرًا في الحكم سوى وضع الاسم فقط ومنعهُ من كل مداخلة فصرف حياتهُ محرومًا من التملك الى ان مات سنة ١٦٩٦ كما ياتي

ومنذ ذلك الحين صار بطرس ملكًا على كل الروسية وحاكمًا عليها مطلقًا دون ممانع ولا شريك باستقلال ولا تخلص من كيد الاسترلتس الذين كانوا عاهدوا اختهُ على قتلهِ ومحو اسمهِ . ولو كان تم لهم ذلك لكانت مملكة روسيا حتى الان في حالة تاخر وانحطاط ولم تصل الى الدرجة العظمى التي وصلت اليها بمدة قصيرة وكانت حرمت من المنافع الغزيرة والتمدن

مخازن و بيوتًا يضعوها فيها · فشغل ذلك خاطر غالتزين
وراى عظم الصعوبة الواقع بها واراد ان يتخلص منها فلجأ الى
حكمتهِ ومعرفتهِ · وخطط مدينة عند ذاك النهر وامر نحوًا من
ثلاثين الف رجل ان تشتغل بها بجد واجتهاد ليجعلها مقرًّا
لجيوشهِ ومركزًا لهُ ومخزنًا لمهماتهِ فصرف نحوسنة في بنائها حتى
انتهت وكانت كلها من الخشب سوى بيتين منها كانا من الاجر
و وضع عليها المدافع وسورها بسور من الحشيس والتراب. ثم
رجع دون ان يكون لهُ من النجاح ما يذكر سوى بناء هذه
المدينة

وصدف بعد رجوعهِ انهُ اتفق مع الاميرة صوفيا على قتل
بطرس ونزع القوة منهُ حيث كان حزبهُ يتقوى ويشتد ويكثر
فاستمالا حزب الاسترلتش وقام نحوستمائة منهم وطلبوا الايقاع
بهِ وقتلهِ فلم يتيسر لهم لانهُ نجا بنفسهِ وفرَّ الى دير الثالوث الاقدس
وهو المحل المعد لتامين العائلة الملكية · ولما امن على نفسهِ دعا
اليهِ باحزابهِ واخصائهِ الامراء وجماعة من النمسويين والغرباء
اتخذهم مع احزابهِ وخطب فيهم خطابًا فصيحًا حركهم الى الانتقام
من اختهِ ومن احزابها وبيَّن لهم رداءة الحال الصائرة اليهِ البلاد
من تعدي الاسترلتش واتحادهم مع اختهِ وغالتزين لانهم عاهدوها

الادبي والديني الذي ادخلهُ اليها هو وزوجتهُ كاترينا من بعدهِ
والحاصل ان الله اعدَّ لتلك البلاد درجة سامية بين دول
العالم فخلص بطرس من اشراك اعدائهِ وسلمهُ قيادة امةٍ متوحشة
متاخرة ليذهب بها الى ميدان المعارف والتقدم ويدرجها في
سلم النجاح حتى تصل الى المقام الاول فسبحانهُ وتعالى يخرج
الحال من المحال ويستخرج الوجود من العدم

الفصل السادس

في الكلام على استيلاء بطرس الكبير وما وقع في بداية استقلالهِ
من النقض والابرام

ومع ان بطرس الاكبر كان ثابت العزم رابط الجاش
مصيب الراي حسن التبصر لا يكل من العمل ولا يمل ولا تغير
الحوادث همتهُ كان ايضاً قوي البنية لطيف المزاج حسن الوجه
طويل القامة معتدلها ذا هيبة ووقار يقدم على عظائم الامور غير

مبال بالمصاعب والاهوال ولو كان من الملوك الذين تربوا تربية حسنة في مدارس عالية كلية ووجد بين قوم متمدنين مهذبين طائعين لكان بدون شك قد اوصل بلاده الى درجات عالية جداً من المجد والفخر اكثر مما اوصلها اليهِ غير ان معاملة اختهِ صوفيا لهُ في بداية عمره اوجبتهُ ان يبقى على جانب من الجهالة في حال الشبوبية والانهماك بالملاهي والملذات والتعمق بالشهوات الجسدية قيد اليها بالبطالة والتقاعد عن الشغل يوم كان الحل والربط بيد اختهِ المذكورة

وفي حزيران سنة ١٦٨٩ تزوج ببنت احد رعاياه على العادة المالوفة عندهم التي سبق ذكرها وهي بنت امير الاي يدعى لابوشني ولم يكن هذا الزواج ليغير شيئاً من اميالهِ القديمة الباقية فيهِ فكان يحب الزهو واللهو ومعاشرة النساء والميل اليهنَّ وربما كنَّ هنَّ اللاتي علمنهُ الرقة واللين ولهذا كان يصرف قسماً من الوقت بهذا الصدد كما انهُ كان يصرف وقتاً ايضاً بالتمرينات العسكرية والمباحث السياسية حيث كان لهُ ولع بها وكان الاختبار والاستعمال والحوادث تقلب من اطواره فتغير منها شيئاً كثيراً . وقد قال بعض المؤلفين انهُ كان في اول عمره يكره ركوب البحار والانهار ويخشاه جداً حتى انهُ كان يتصبب منهُ

العرق عند ذكر سفر من اسفارها وهذه ما لبثت ان تغيرت تغيراً عجيباً فاصبح مع التمادي يشتاق الى السفر في البحار ويفضلهُ على كل شيء . وهكذا كانت الفضيلة تدنو منهُ شيئاً فشيئاً والاعمال الحميدة تحل فيهِ يوماً بعد يوم حتى اصبح من افراد المالكين والمصلحين . واخيراً اصبح يخجل من نفسهِ مزيد الخجل على ما كان عليهِ من الجهالة والبطالة ووجد نفسهُ محتاجاً الى معرفة بعض اللغات الاجنبية فدرس من نفسهِ دون استاذ اللغة النمسوية والفلمنكية حتى صار بوقت غير طويل يقدر ان يتكلم ويكتب بهما دون غلط وكان اعتقادهُ بان امة النمسا والفلمنك هما اكثر الامم تادباً وتفنناً قد حملهُ على ان يتعلم لغتيهما وذلك ان جماعة من النمسويين كانوا يشتغلون في موسكو بالصنائع والفنون المجهولة في بلاده وكان يرى في الفلمنكيين براعة في الفلاحة والفنون البحرية التي هي من اعظم احتياجات المملكة

وكان كل عزمهِ موجهاً الى امرين يراهما من الزم الاشياء لديهِ وهما قهر الاسترلتش وتفريقهم كل التفريق ومنع تعديهم عن بلادهِ وعن ملوكها وامرائها وقتال تتار القرم ومحاربتهم . وعليهِ فقد اضعف من قوة اولئك واذلهم وحارب تتار القرم حرباً لم يفز منها نفس الفوز الذي كان ينتظرهُ ولذلك هادنهم

صارفًا جهدهُ الى اصلاح داخليتهِ اولاً وتعليم جيشهِ الفنون الحربية . وكانت نفس هذه المقاصد هي مقاصد ابيهِ الكسيس الاَّ ان الدهر خانهُ فلم يساعد ذاك كما ساعد هذا ونقرران الاب كان قد احضر من بلاد الفلمنك رجلاً ماهرًا ببناء السفن اسمهُ بوتلير وجاء معهُ بعدة نجــارين ونوتية وصرف عليهم المصاريف الباهظة فبنوا في نهر الاثل بارجة كبيرة وسفينة صغيرة وركبوا النهر عليهما وساروا الى اقليم استراخان وكان قصدهُ بهاتين السفينتين توسيع تجارة بلادهِ مع العجم بواسطة بحر الخزر غيران حاكم استراخان خرب السفينتين ودمرهما عند رفعهِ اعلام العصيان وذبح القبطان وفر النوتية الى بلاد العجم ومنها ساروا الى الهند ولهذا لم يبقَ في موسكو الانجار واحد ماهر اسمهُ بران بقي مدة مهملاً . ففي ذات يوم بينما كان بطرس يتمشى في اسما عيلوف احد منازل جدهِ راى عن بعد منهُ قاربًا انكليزيًا صغيرًا مهجورًا فسال عنهُ احد مصاحبيهِ واسمهُ تيمران وهو نمساوي واستاذهُ في الرياضيات فقال لهُ هذا صنع لاجل الشراع والتجذيف فقط فهو يسير بهما . فقصد ان يجربهُ ويسير عليهِ فراهُ محتاجًا للاصلاح والتلفطة والقير فاحضر لهُ بران المذكور فاصلحهُ وانزلهُ في نهير يوزا بضواحي مدينة موسكو فاعجبهُ

وامر بنقلهِ الى بحيرة كبيرة بقرب دير الثالوث الاقدس وامر
بران المذكور بمد بارجتين وثلاث سفن حربية صغيرة . ولما
انتهى من بناء السفن المذكورة والبارجتين ركب عليها في سنة
١٦٩٤ وسار بها قاصداً اقليم اركنجل وهناك امر بران ايضاً بانشاء
سفينة صغيرة تسير في ميناه ثم ركب البحر المتجمد الشمالي ولم يتفق
لغيرهِ من الملوك قبلهُ الاطلاع عليهِ واخذ معهُ في سفرهِ هذا
البارجتين لاجل المحافظة وسفينة فلمنكية ايضاً للدفاع عنهُ
اذا اقتضت الحال . وبعد ذلك رجع مسروراً بنجاح افكارهِ
وعلق امالاً كبيرة بمستقبل ايامهِ واخذ في تعليم كثير من اهل
بلادهِ فن الملاحة والعسكرية البحرية وجعل نفسهُ قدوة لهم بان
تعلم ذاك الفن والتمرن بهِ امامهم فمالوا اليهِ واجتهدوا كل الاجتهاد
ومع كل ذلك لم يدركوا براعتهُ التي نالها اثناء تعلمهِ . هذا وان
كان يصعب في مثل تلك الظروف انشاء عمارة بحرية حربية
الاَّ ان تجاريبهُ التي اجراها في مثل هذا المعنى كانت محفوفة
بالنجاح والتوفيق وكثيراً ما كانت قريحتهُ تحملهُ على اجراء كل
ما يخطر في ذهنهِ فيخدمهُ النجاح وتظهر النتيجة حالاً

وفي هذا الاثناء كان قد استأمن على امورهِ لوفورت
الشهير وهو انسان ايطالي من عائلة قديمة عريقة في الحسب

والنسب وكان ما يراهُ من اهتمام الملك بطرس ومن رغبتهِ في الانشاءات بحركةُ الى الاقدام على عظائم الامور فنال حظوى عظمى عندهُ واحبهُ حبًا عظيماً فكان هذا الحب من اكبر اسباب سعادتهِ . وكان يأتمنهُ على اعظم اسرارهِ ويستشيرهُ فيها . وقد استشارهُ في امر ذي خطر جدًا وهو انهُ اطلعهُ على غايتهِ من اهلاك طائفة الاسترلتش وقلع جرثومة شرورها لكونها هي التي كانت تضرم دائمًا نيران الفتن في البلاد . ولما انتهى في راسهِ هذا الامر وتقرر عندهُ اجراؤهُ جمع في منزل لهُ في الخلاء يدعى منزل بريوبازنسكي خمسين شابًا من شبان بلادهِ الذين يعتمد عليهم ويعهد فيهم البسالة وجعلهم جيشًا واقام عليهم ضباطًا من الشبان اولاد الامراء المخلصين لهُ ودرجهم في الفنون الحربية ورقاهم في درجات العسكرية وزاد في عددهم يومًا بعد يوم وانتظم هو ايضًا معهم فجعل نفسهُ في بادىء الامر موسيقيًا يضرب على الطبل في وقت التعليم ثم نفرًا عسكريًا ثم قائد عشرة ثم قائد مائة وان كان هذا من الامور الغريبة التي لم يسبقهُ اليها احد من اسلافهِ الَّا انهُ كان نافعًا جدًا ووجد نفسهُ مضطرًا اليهِ لان حالة بلادهِ العسكرية كانت على غير انتظام بل كان عند القتال يقود كل امير اتباعهُ للحرب على طريقة غير مرتبة لا تكسبهم

فخرًا اثناء محاربتهم . وكان هذا الجيش الذي اوجدهُ وزاد
عددهُ بعد ذلك مختصًا بالقصر المذكور وسماهُ جيش خفر
بريوبازنسكي ولما راى نفسهُ قد نجح في هذا العمل انشأ جيشًا
اخر على هذا النمط سمي فيما بعد جيش سمونسكي وبعد مدة تجدد
عندهُ جيش اخر مولف من الغرباء بلغ عددهُ نحو خمسة الاف
رجل جمعهُ غردون الانكليزي الايقوسي . وهكذا كان يقوي
جيوشهُ ويعددها وينظمها بنفسهِ وبمعرفة قواد من الدول
الاوربية قد اعتادوا وتمرنوا على الفنون الحربية وفي خاطرهِ
انهُ لابد لهُ ذات يوم من ابادة الاسترلتش الذين هم اشبه بوجاق
الانكشارية في الدولة العثمانية قديمًا ولما راى لوفورت اهتمام
بطرس بانتظام الفنون العسكرية وتجييش الجيوش على غير
الطرز الجاري في بلادهِ واراد تقديم خدمة لهُ قادهُ اليها ذكاؤُهُ
وهمتهُ تعهد لديهِ بجمع جيش مقداره اثنا عشر الف رجل وبمدة
قليلة تم ما تعهد بهِ على الطريقة المحبوبة من بطرس وذلك من
الفرنسويين الهاربين . وعندما انتهى بطرس من جمع هذه
الجيوش اقام عليها كلها لوفورت المذكور كقائد عام استعدادًا
لمقاومة الاسترلتش وغيرهم من اصحاب الفتن الذين يقصدون
الضرر بالحكومة وبقي لوفورت صارفًا الجهد والهمة الى تهذيب

هذه الفرق وتعويدها التمرين والتعليم

وفي ذات يوم خطر للملك ان ينظر الحالة الحاصل عليها جيشهُ الجديد ومعرفتهُ في الحرب والقتال فابتنى حصناً واقام فيها فرقة سماها فرقة المدافعة وامرها بالمدافعة عن الحصن والمحافظة عليهِ . وجاء بالباقين وجعلهم فرقة ثانية للمهاجمة واشار عليهم بالقتال والتمرين العسكري وكان المهاجمون يقاتلون تحت امرة لوفورت وعوض ان يكون القتال مجازيًّا وقع حقيقة فسفكت فيهِ الدماء وقتل بعض من الفرقتين وجرح لوفورت . فهذه الالعاب وغيرها من مثلها التي كان يجريها بطرس في معسكرهِ كانت لا تخلو من نفع حسي قاد العسكر الروسي الى البسالة والانتظام معاً

وكما ان لوفورت قلد قيادة الجيوس دون ان يكون لهُ سبق معرفة بالفنون الحربية العسكرية كذلك جعل اميرا البوارج البحرية دون ان يسبق لهُ ان عرف شيئاً من ذلك فيما قبل . اي انهُ لم يكن قبل توجيه هذه الرتبة اليهِ قد درس فن العسكرية البحرية او البرية والتمرن عليها غير ان ركون بطرس اليه واقتناعهُ بانهُ حكيم ذو قريحة جيدة حملهُ على توجيه هذه الرتبة اليهِ ومع كل هذا فانهُ كان مع وجود بطرس الاكبر وانتباههِ الى انفاذ اوامره

في الجيوش البرية والسفن البحرية وتدريبها على مقتضى افكاره صاحب الاسم بالرتبة فقط · ومن ثم امر لوفورت ببناء عدة مراكب طويلة منها سفينتان محمول كل منهما ثلاثون مدفعاً وتم بناؤها في مصب ويرونيزا وهو نهر يصب في نهرتن صوبي وجعلتا لدفاع التتار عن تلك الجهات حيث كانت العداوة لاتزال تتجدد بين الروسيين وهذه الطوائف وفي سنة ١٦٨٩ راى بطرس في نفسهِ انهُ مضطرٌ لفتح الحروب مع كل من الصينيين والاسوجيين والعثمانيين الاّ انهُ كان يتردد في ذلك ولا يعرف اي دولة من الدول الثلاث المتقدم ذكرها يمكنهُ ان يباشر الحرب معها



الفصل السابع

في المخابرات التي وقعت بين الصينيين والروسيين بشان الحدود وما عقب ذلك من الشروط والمعاهدات

من الواجب ان نذكرهنا الحدود الواقعة بين كل من دولتي الصين وروسيا فاذا تقدم الانسان من سيبيريا الاصلية وتوغل شمالاً اي في جهة الجنوب التي تقيم فيها طوائف من التتار والكلموك البيض والكلموك السود ومسلمو المغول وكفرتهم

قرب من درجة ١٣٠ طولاً و٥٢ عرضاً وذلك على نهر امور وفي شمال هذا النهر سلسلة جبال تمتد الى البحر المنجمد الشمالي وطولهُ خمسمائة فرسخ يجري ببلاد سيبيريا والتتار الصينية وبصب بعد تعاريج كثيرة في بحر كمتشتكا ويقال لهذا النهر عند التتار المانش اي النهر الاسود وعند الصينيين نهر دراعون اي نهر التين

وكان الصينيون والروسيون يتنازعون حدود ممالكهم ببلاد سيبيريا التي بقيت مجهولة زماناً طويلاً وكان السبب ان للروسيين حصوناً عند نهر امور تبعد عن السور الاعظم ببلاد الصين ثلاثمائة فرسخ وقع بسببها العدوان بين المملكتين وآل الامر الى اهتمام كل منهما بما يعود بالنفع الى بلادها وتوسيعها الا انهما اختارتا الصلح والمخابرة بالسلم على الحروب والدسرور والخصام فارسلت سفارة من قبل الصين الى مدينة نبكو وهي احدى الحصون المتقدم ذكرها وكانت تلك السفارة موالفة من سبعة من الاعيان العظام مصحوبين بعشرة الاف جندي للحفظ والحراسة والخدمة كعادة اهل المشرق الذين طبعوا على الفخار والمباهاة ومن هذا نستدل انهُ لم يسبق لمملكة الصين ان بعثت سفارة قبل ذلك الحين لعقد جمعيه او اتفاقية مع احدى الدول وارسلت

الروسية سفارة تحت رئاسة غالوين حاكم سيبيريا فظهر بمظهر
الابهة والجلال امام السفارة الصينية وابدى باعماله وعظمتهِ
تجاهها ماجعلها تحتقر نفسها وتعترف بعظمة الروسيين . واصحب
الصينيون معهم رجلين من طائفة القسوس (اليسوعيين)
احدهما برتغالي يسمى بريرا والاخر فرنسوي واسمهُ جربلون
وهما يعرفان اللغة الصينية واللاتينية واتى غالوين برجل نمسوي
يعرف اللسان الروسي واللاتيني وهكذا كانت المخابرات باللاتينية
بين كلتا السفارتين بواسطة هولاء التراجمين وعقدت شروط
بينهما واتفقتا على الحدود فكان جنوبي نهر كربيش للصينيين
وشماليهِ للروسيين ورفعت الرايات عندهُ وقد تمت المحالفة بين
الدولتين وتعاهدتا على دوام الصلح بموجب اتفاقية كتبت
باللاتينية وكل منهما اخذ نسخة موقعة من الثانية وبقي الصلح بينهما
زمانًا طويلاً . وارسل القيصر بعد ذلك رجلاً دانمركيًا سفيرًا
الى بلاد الصين فقام بما روج المعاملات التجارية بينهما وسهل
طرقها واستمر الوفاق الى ان نقض سنة ١٧٢٢ ومن ثم عاد ثانية
الى حالهِ ورجعت التجارة الى مجراها على غاية الامن والنجاح

الفصل الثامن

في استيلاء الروسيين على بحر ازوف وما وقع لبطرس من النصر في قلاعهِ وارسالهِ طائفة من الشبان الى الدول الاجنبية بقصد تعليمها العلوم والفنون

خطر لبطرس محاربة الدولة العلية العثمانية بينما كانت مشتغلة بالحروب ومثقلة بالارتباكات والخسائر لانها حاربت البندقيين واشغلت قسماً كبيرًا من جيوشها هناك · والامير مرزوني حاكم البندقية الذي كان اعاد لها جزيرة كريت طمح الى نزع جزيرة الموره منها وليو بولد امبراطور المانيا تقدم من جهة المجر واهالي مملكة بولونيا كانوا يهاجمون التتار الذين كانوا تابعين للعثمانيين فاغتنم بطرس هذه الفرصة للاستيلاء على البحر الاسود واخذ يمرّن جيوشهُ ويعدد القوات لهذه الغاية ومن ثم ارسل الجنرال غردون على خمسة الاف رجل في امتداد نهر تن الى مدينة ازوف ليستولي عليها وارسل ايضًا بالجنرال لوفورت على ١٢ الفًا في الجهة الثانية من النهر المذكور وبعث بفرقة من الاسترلتش تحت قيادة جان البروسي وفرقة من القوزاق وجماعة من الطوبجية · وكان قائد هذه الحملة العام شرمتوف فسار في اوائل فصل الصيف سنة ١٦٩٥ الى جهة مدينة ازوف الواقعة عند مصب نهر تن وعند نهاية بحر ازوف·

ولما كان من مقصد القيصر بطرس ان ينال فضيلة علم القتال وان يتمرن على الفنون العسكرية تطوّع في هذا الجيش كواحد منهم وسار بينهم وفي اثناء مسيرهم تغلبوا على برجين عند شاطئ نهر تن

ولما كان مقصد الروسيين في هذه الحملة الاستيلاء على قلعة ازوف صعب عليهم ذلك في البداية لانها كانت جيدة التحصين وعليها جماعة من الابطال العثمانيين ولم تكن السفن التي تجهزت كافية لان تقوم تجاه سفن الدولة العلية ولم يكن قد سبق لهم ان حاصروا قلعة قبل ذلك الحين فمن ثم عادوا خاسرين وكان مدير الطوبجية في الجيش الثالث رجل بروسي اسمهُ يعقوب عوقب بالضرب من رئيسهِ جان على تقصيره في الحصار اثناء القتال ففر من الجيش ودخل القلعة واسلم وذلك بعد ان سمر المدافع الروسية ودافع فيها دفاعاً نجح فيهِ كل النجاح .

ومن هذا يظهر ان المعاملة بالرفق واللين بالعباد كما هو جارٍ الان في بلاد روسيا والدولة العلية اليق جدًّا من العقاب واوفق من الجبر والقساوة عند دعوة الخلق الى الطاعة والانقياد ولا سيما الذين تعودوا المعاملة والصفات الجميلة وصاروا اصحاب عرض وشرف وناموس غير ان التشديد في ذاك الزمان كان يرى انهُ ضروري في روسيا لخشونة اهلها وكثرة رعاعها لكن

لما تغيرت فيها العوائد والاخلاق سلكت الامبراطورة اليصابات مسلك الرفق والرحمة بانها انهت ما باشربهِ والدها بطرس من تغيير تلك القساوة السابقة وبدلها بالطف المعاملات اللينة وقد وضعت على نفسها ميثاقًا وعهدًا ان لا يعاقب احد بالموت في مدة حكمها فهي اول ملكة احترمت النفوس البشرية وحقنت دماءها بل كانت تحكم على المجرمين المستحقين الاعدام بالشغل في المعادن وغيرها من اشغال الدولة النافعة لها ولا يخفى ان هذا القانون ملحوظ فيهِ وجه الشفقة والرحمة كما هو ملحوظ بهِ ايضًا الاصابة والحكمة لان العقاب الذي تجريهِ باقي الدول اي الحكم بالقتل على رؤوس الاشهاد ليس بكافٍ لزجر مرتكبي الجرائم فان فيهِ الراحة بخلاف الشغل فانهُ ينهك الجسم ويثقل على المحكوم عليهم بهِ اذ انهم على الغالب يكونون من الاشقياء الكسالى فيرغمون على الشغل في كل يوم ويعتادونهُ

ولنرجع الى الكلام عن بطرس فانهُ اعتاد اقتحام الاخطار بسبب تجلدهِ وثباتهِ في كل امر يتصدى لهُ وذلك انهُ عاد ثانية الى حصار ازوف وقاد جيشًا اعظم من الاول وذلك في فصل الربيع من سنة ١٦٩٦ وكان في خلال هذه السنة توفي اخوهُ ايفان فضم مصاريف منزلهِ الى ما يصرف في مرتبات العساكر

اذ لم يكن دخل الدولة اوائئذ كافيًا للقيام بحملات كبيرة وكان قد كتب الى الامبراطور ليوبولد والاقاليم المتحدة الفلمنكية ومنتخب برندبورغ يطلب منهم مهندسين وطوبجية ونوتية فاجابوهُ واستخدم جماعة من فرسان الكلموك وقد فاز بنجاح عظيم من جهة اسطولهِ الصغير . وبعد محاصرة طويلة ومعاناة صعوبات جمة لاقاها بدفاع العثمانيين سلمت القلعة الى جيشهِ وخرج المحاصرون تاركين فيها اسلحتهم وذخائر والتزموا ايضًا الى تسليم يعقوب الذي كان قد التجأ اليهم

ولما راى بطرس نجاحهُ في بحر ازوف اراد ان يحصن قلاعهُ ويجدد فيهِ العمارات فاحدث قلاعًا متينة ومرفأً كبيرًا يسع السفن الكبيرة قاصدًا بذلك الاستيلاء على بوغاز كفة الذي هو باب البحر الاسود واقام تجاه البحر المذكور ٢٢ بارجة تحمل كل منها من الثلاثين مدفعًا الى الخمسين وتسع بوارج كبيرة محمول الواحدة ستون مدفعًا . واذ كان عملهُ هذا يحتاج الى اموال غزيرة طلب من كبار الملتزمين والاغنياء في حكومتهِ ان يساعدوهُ ويمدوهُ بالاموال وراى ايضًا ان مداخيل القسيسين والاساقفة والاديرة كثيرة وانها لا تصرف في سبيل نافع فارغمهم ان يساعدوا باعمالهم مشروعاتهِ حبًا بمصلحة وطنهم فتسهل لديهِ

كل ما كان يرجوهُ وامر القوزاق ان يبنوا عدة سفن كالسفن المستعملة عندهم يمكنهم السير بها بسهولة قرب سواحل القريم وكان قصدهُ بذلك طرد التتار واجلاء الدولة العلية عن القرم وتسهيل التجارة مع العجم عن طريق كرجستان وكانت هذه التجارة سابقًا جارية منذ قديم الزمان بين اليونان وطرابزون وبلاد القريم وقد خطر لبطرس الكبير اخيرًا ادخالها تحت طاعتهِ لانتفاع بلادهِ بها

ولما راى بطرس من نفسهِ الفوز اراد ان يعود قومهُ ان يسلكوا سبيل الرتب ويعرف منهم الحائز على رضاهُ والتفاتهِ مكافاة على صدق الخدمة والمتروك منهُ مجازاة على التقاعد والكسل فصنع اول نشان الافتخار ولم يكن في الدولة الروسية قبل ذلك الوقت وكتب على احدى صفحتيهِ (بطرس الاول امبراطور روسيا) وعلى الثانية (ازوف · منصور بالنيران والمياه) اي بطرس منصور وكان يتاثر في هذا النجاح لسبب كاد مرارًا يمزق احشاءهُ ويضيق منهُ صدرهُ وهو انهُ كان يرى ان البوارج التي كانت ببحر ازوف لم تكن من صنع قومهِ ولا ملاحوها منهم بل كانوا من الاجانب ولهذا وجد نفسهُ مضطرًّا الى الالتفات على نوع ما لترقية بلادهِ من جهة المعارف والصنائع ليا هلهم

الى ان يكونوا بين طلائع العالم المتمدن ويكون لهُ بواسطتهم النجاح الذي يوملهُ لبلاده ولحكومتهِ وعليهِ فقد انتخب في شهر اذار (مايس) سنة ١٦٩٧ ستين شابًا من الروسيين من فرقة لوفورت وبعثهم الى مملكة ايطاليا فساروا الى البندقية وليكورنا يتعلمون الفنون البحرية وصنعة السفن وارسل ايضًا اربعين شابًا اخرين الى بلاد الفلمنك ليدخلوا معاملها ويتعلموا ما يقدرون ان يتعلموهُ منها واوصى بعضهم ان يتطوع في العسكرية لتعليم فنها وارسل طائفة ثانية الى بلاد النمسا بقصد التطوع ايضًا في الجيش النمسوي وبهذا قصد ان يجمع بين تعليمات ومعارف ثلاث دول عظيمة كانت مشهورة في ذلك الزمان في اوربا ولم يرَ نفسهُ اذ ذاك كافيًا لان يأتي بلادهُ بالمقصد النافع بل خطر لهُ ان يذهب هو بنفسهِ الى اوربا يتدرب على الوسائط النافعة فياتي بما يمكنهُ من تعليمهِ لقومهِ وينشر بنفسهِ فيهم الفوائد بحيث يكون هو الاستاذ الاول في بلاده فيعلم برغبة فعالة ويجعل نفسهُ قدوة لرجال بلاده المتقاعدين ولا سيما الاغنياء منهم ولهذا عزم على السفر متخفيًا الى بلاد الدانمرك واقليم برندبورغ وبلاد الفلمنك ومدينة البنادقة وفينًا ورومية اذ كان يعلم ان كل ما يقصده موجود في هذه البلاد ويمكنهُ تعلمهُ بسهولة او على الاكثر

النظر اليهِ والانتفاع من الفرجة بقدر الامكان

الفصل التاسع

سفر الامبراطور بطرس وسياحتهُ الاولى

لما قوي براس بطرس الكبير فكر السياحة ومبارحة البلاد وجد من نفسهِ انهُ لا يليق بهِ ان يكون بصفتهِ الملكية فجعل نفسهُ من اتباع ثلاثة من قواد بلاده وهكذا كان سفره متخفيًا بصفة خادم لا يظهر قط انهُ صاحب البلاد الروسية وامبراطورها والقواد المذكورون هم الجنرال لوفورت والفيكونت الكسيس غليون وكيل الجيش العام وحكمدار سيبيريا الذي عقد مشارطه الصلح كما تقدم مع عساكر سفراء الصين ودونتسين دباك كاتب سر الملك وكان هذا الاخير قد اقام مدة طويلة مستخدمًا في دول اجنبية وعارفًا بعوائدهم واطوارهم وكان مع كل قائد اربعه كتَّاب واثنا عشر مديرًا وخمسون نفرًا من الضباط ومجمل القول ان جملتهم كان مائتي رجل بينهم بطرس كما تقدم بصفة تابع ولم يكن لهُ من اسباب الرفاهية والنعم ما يليق بمن هو مثلهُ بل اصحب معهُ خادمًا ورحلاً قصيرًا لاجل السخريه وفراشًا بسيطًا من فرش الخدم كي لا يعرف من بينهم . ومن امعن النظر في عمل هذا الرجل العظيم يتحقق انهُ لم يسبق لهُ نظير في

تاريخ العالم . ولم يذكر قط ان ملكاً شاباً في سن ٢٥ سنة يخرج عن
ممالكهِ لاجل غايه نافعة لبلاده في زمن مستقبل وينهك جسمهُ
ويتحمل اثقال السفر ويخدم خدمةً لقصد ان يحل بلاده محل
حسن الادارة ويؤهل اهلها ان يذكروا في صدر التاريخ . وكان
موت اخيهِ ايفان وانتصاره السابق على التتار وسجن اختهِ الاميرة
صوفيا واعتقاده بمحبة الناس لهُ جعلهُ ان يكون مطمئناً على
المملكة في مدة غيابهِ . وقد عهد بالوكالة الى رجلين من اعيان
الروسية اسم احدهما ستركيف والاخر رومادونوسكي ولم يطلق
لهما التصرف بل امرهما ان يتذاكرا عند وقوع الامور المهمة مع امراء
الدولة والمجلس العالي . ولما كان يخشى من وجاق الاسترلتس
واعتدائهِ واحداثهِ الفتن في مدة غيابهِ فرقهُ على حدود القرم لمنع
غارات التتار والمحافظة على ازوف واقام على مدينة موسكو
الجيش الذي جددهُ الجنرال غردون تعزيزاً للراحة والامن فيها
وهكذا كان قد دبر حال بلاده قبل سفره بحكمة واصابة ليكون
مطمئن البال اثناء بعده عنها وانتقلوا من موسكو بقصد الوصول
الى البلاد المتقدم ذكرها

وان كانت هذه السياحة محمودة العقبى الا انها كانت
تمهيداً لحرب سفكت فيها دماء كثيرة وعطلت انفاذ مقاصده

في بلاده مدة طويلة . ومن ثم وجب ان نذكر هنا حالة اوربا في تلك الايام والارتباكات الواقعة فيها ليكون القاري على بصيرة اثناء تفصيل هذه الحوادث فنقول ان المغفور لهُ السلطان مصطفى العثماني كان مشتغلاً بمحاربة ليوبولد ملك النمسا من جهة المجر وحكومتهُ مضطربة من استيلاء بطرس على ازوف وهو يخشى منهُ التقدم في البحر الاسود وقد خرجت المورة من يده ودخلت في يد البنادقة . وحنا سربيسكي ملك بولونيا الذي اشتهر بمنصرتهِ على كوكزيم وبانقاذ مدينة بج توفي في ١٧ من شهر حزيران (جون) سنة ١٦٩٦ وبسبب موتهِ تنازع مملكتهُ كل من اوغسطوس منتخب سكس وارمند امير كنتي من العائلة البوربونية وان كان قد صار انتخاب الثاني عليها الا انهُ ما تولاها بل فاز بها اوغسطوس . وسنة ١٦٩٧ توفي كارلوس الحادي عشر ملك اسوج وخلفهُ ابنهُ كارلوس الثاني عشر وهو ابن ١٥ سنة ولموتهِ هذا زادت امال بطرس بتوسيع بلاده من جهة اسوج غير مكتفٍ بتوجيه انظاره الى جهة البحر الاسود والاستيلاء على ما يمكنهُ الاستيلاء عليهِ في المستقبل ولا بغير مطامع كان يضمرها الى حين حلول الزمان الموافق . ودولة النمسا كانت مقيمة الحرب على ساق وقدم مع الدولة العلية والدولة الفرنسوية التي

كان تعاهد عليها مع كل من دول اسبانيا والانكليز والفلمنك وقد اشرفت في ذاك الوقت على عقد الصلح واجتمع لهذا الغرض وكلاء الدول المرخصون في قصر رسويك بمدينة هايا

وقد انتهز بطرس والذين معهُ هذه الفرصة وسار في سنة ١٦٩٧ من طريق مدينة نوغورود الكبيرة حتى انتهى الى طريق اسثونيا الى ليفونيا وهما اقليمان تنازعهما سابقًا الروس فاستولى الاسوجيون عليهما ورأى بطرس الى خصب ليفونيا وحسن موقع مدينة ريغا قاعدة هذا الاقليم فتحركت فيهِ دواعي الطمع ورغب في تلك الارض واصرَّ في نفسهِ انهُ لا بد ذات يوم ان يكون صاحب هذين الاقليمين وطلب بواسطة السفارة التي هو فيها مشاهدة القلاع والاستحكامات ومقدار القوة التحصينية فحاول الكونت دي البرغ حاكم المدينة منعهُ من ذلك ولم يعتنِ بهذه السفارة . فلم يقلل هذا من عزمهِ وبقي مصرًّا على طمعهِ منتظرًا سنوح الفرص والعودة الى البلاد . ثم سار بجماعتهِ من هناك الى بروسيا البرندبرغية وهي التي كان قدماء الفندال يسكنون قسماً منها في الزمان القديم وهي فقيرة قليلة العمران غير ان ملكها قد جدد في ديوانهِ ابهة وجعل لهُ رونقًا مقبولاً فتلقى جماعة بطرس بما يليق واكرمهم . وكان اعيان مدينة

برلين عاصمة بروسيا لابسين ملابس فرنسوية مزينة بخلاف الروسيين فانهم كانوا لابسين على شكل ملابس اهل المشرق وعلى رؤوسهم قلانس مرصعة باللآلئ والجواهر وسيوفهم مرسلة على احزمتهم ونشأ عن تفنن هذه الملابس منظر عجيب ورونق غريب . وكان بطرس وقتئذ على الزي النمسوي ومعهُ امير كرجي عليهِ ملابس العجم مما زاد في رونق هذا المنظر وبهجتهِ

ثم قصد اهل السفارة طريق اقليم بوميرانيا وبرلين ومن ثم افترقوا فذهب بعضهم في طريق مغدنبرغ وبعضهم في طريق همبرغ وهي مدينة قديمة العهد تجارية المركز غير انها لم تكن في تلك الايام كثيرة الثروة والتحسين كما صارت فيما بعد ومن همبرغ الى مدينة مندان واجتازوا اقليم وستفاليا حتى انتهوا الى امستردام . وكان بطرس قد سبقهم اليها من قبل وصولهم بخمسة عشر يوماً فنزل اولاً بدار شركة الهند الا انهُ انتقل منها الى منزل صغير اتخذه لنفسهِ في الترسانة البحرية وهو متزيّ بزي قبطان وبعد ذلك ذهب بجمعيتهِ الى قرية سردام التي هي معمل للسفن في تلك البلاد في ذلك الوقت لانها كانت كبيرة عامرة كثيرة الاشجار مثرية وعند وصولهِ اليها تعجب من كثرة الاشغال فيها ومن مواظبة سكانها عليها وسرعتهم في انشاء

السفن وتطقيمها بكل مواردها بوقت قريب وتعجب ايضاً من كثرة المخازن ومن الآلات التي بواسطتها يسهل العمل وتكون بها الصناعة في غاية من الاحكام والاتقان فبادر لشراء مركب كان صاريهِ مكسوراً فاصلحهُ بنفسهِ ثم اخذ يتعلم صناعة اجزاء السفن وصار يشتغل بذلك كاحد الفعلة وسلك بعيشتهِ مسلك واحد منهم ولم يوجه بفكره الى بناء السفن فقط بل كان يشتغل معهم في معامل الحديد والحبال وفي المطاحن المعدة لنشر الاخشاب ولعصر الزيت ومعامل الورق وتعلم ايضاً عمل الاسلاك المعدنية المتطرقة وقيد اسمهُ في دفتر الترسانه بطرس ميخائيل وكان معروفاً عندهم بالمعلم بطرس ولم يكن للفعلة في مبدا الامر مخالطة بهِ لما تاكدوا انهُ ملك فكانوا يهابونهُ كل الهيبة الا انهم الفوا عليهِ لما راوه على العيشة البسيطة نظيرهم ووجدوا فيهِ من حب الميل اليهم وموانستهِ ورغبتهِ بالاختلاط بهم وصاروا يعتبرونهُ كواحد منهم . وبينما هو آخذ في الشغل والعمل في تلك المعامل في قرية سردام اذ بلغهُ خبر اكيد بان حكومة بولونيا عقدت مجلساً لانتخاب ملك لها وقد اختلف المجلس وانقسم على نفسهِ الى قسمين قسم يطلب اوغسطوس منتخب سكس والثاني يطلب الاميردوكونتي الفرنسوي وكان

بطرس يميل الى الاول اي اوغسطوس فوعدهُ ان يمدهُ بثلاثين الفًا من جيوشهِ وكتب وهو في المعامل امرًا الى جيوشهِ بالتوجه لاعانة اوغسطوس وكانت يومئذٍ متجمعة في اوكرينه

وبقي هو على تعلم الفنون السابق ذكرها يصرف كل عنايتهِ واهتمامهِ الى اتقانها حق الاتقان وقد عين وقتًا من اوقاتهِ ليذهب بهِ الى امستردام لدرس فن التشريح على رويش احد مشاهير علماء هذا الفن فعمل عمليات جراحية ونجح نجاحًا جعلهُ يكون على استعداد بنفع بلادهِ او بالحري بنفع جيشهِ بها عند الحاجة وفضلاً عن ذلك ليتعلم علم الطبيعة والمواليد في منزل برغمستروستان وهو رجل من الاهالي حاز الشهرة بسبب حبهِ لوطنهِ وبذلهِ للاموال الجسيمة في تحصيل ما يكون بهِ النفع العام وبارسالهِ الى جميع الاقطار رجالاً من ارباب المهارة والذكاء ينفق عليهم الاموال الغزيرة ليبحثوا عما يوجد فيها من الغرائب وبارسالهِ ايضًا سفنًا على حسابهِ لاكتشاف اراضٍ جديدة · وبقي بطرس على مثل عملهِ في امستردام وسردام الى ان سافر الى اوترخت وهايا على طريقة بسيطة اي من غير احتفال ومباهاة تليق بمنصبهِ الملكي قاصدًا بذلك غيليوم ملك الانكليز ورئيس الجمهورية الفلمنكية ولما تلاقيا سلم احدهما على

الآخر بمودة وخلوص ثم شاهد دخول سفرائهِ الى الديوان الانكليزي وكيفية ملقاهم وما صنع لهم من الاعتبار على الطرق الانكليزية فسر منهُ ولذلك اوعز الى سفارتهِ ان تهدي الحكومة المذكورة ستمائة جلد من السمور النفيس فاهدي مقابلها لكل واحد منهم سلسلة من الذهب وثلاث مركبات · وقد زار هذه السفارة وكلاء الدول المفوضون الذين كانوا مجتمعين اذ ذاك في جمعية رسويك لانتخاب ملك بولونيا ما عدا وكلاء فرنسا فانهم لم ياتوا لزيارة السفارة المذكورة وليس ذلك لكون الامبراطور بطرس منتصراً الاوغسطوس وكارهًا للامير دوكنتي الفرنسوي بل لاشتداد الصداقة التامة التي كانت واقعة حينئذٍ بينهُ وبين غيليوم ملك الانكليز اذ ان غيليوم كان لا يرغب الصلح مع فرنسا اصلاً

وبعد ان اقام بطرس هناك مدة رجع الى امستردام وحدهُ وعاد الى ما كان عليهِ في الاول في هذه المدينة ومن ثم تمم من نفسهِ بناء سفينة كبيرة تحمل ستين مدفعًا وكان باشر بمد هذه السفينة قبل سفره وبعد ان انزلها البحر ارسلها الى مينا اركنجل اذ لم يكن لهُ اوانئذٍ في الاوقيانوس غير ذاك المرفإ ولم يقتصر حال وجوده في امستردام على تعلم الصنائع والفنون بل كان

يدخل بخدمتهِ الهاربين من الفرنسويين والنمسويين والايطاليان ويبعث بكثير من ارباب الصنائع المختلفة الى موسكو ليقيموا فيها ويشتغلوا على حساب المملكة او على حسابهم ولا يبعث منهم الا بالذين يتاكد مهارتهم وشاهد بنفسهِ براعتهم في نفس تلك الصنعة لانهُ كان قد برع باكثر الصنائع وصار يحسب بالدرجة الاولى لرغبتهِ بذلك وفطنتهِ وذكائهِ ولا سيما فن رسم الخارطات والجغرافية قاصداً بذلك اصلاح خارطة بلادهِ ورسم جبالها وانهارها وطرقها ترويجًا لغاياتهِ ومصلحتهِ . وقد حفظ الخارطة التي رسمها بيدهِ بمساعدة رجل نمساوي اسمهُ براكيل تهيئة لوصل بحر الخزر بالبحر الاسود وبحر ازوف ببحر الخزر ايضًا وهو ما يستبعدهُ العقل ويكاد لا يصدقهُ غير انهُ كان يتقوى ويحقق آمالهُ عندما يرى ان النجاح حليفهُ وخدينهُ في كل مشروعاتهِ

وفي تلك الاثناء انتصرت جيوشهُ على التتار في شهر آب (اونسطوس) سنة ١٦٩٧ بالقرب من بحر ازوف وتغلبوا ايضًا على مدينة الذهب المسماة اركابيا ويقال لها عند الافرنسيس بريكوب فنال بذلك عظيم اعتبار وكبير موضع في اعين اوربا ولا سيما عند الذين كانوا يلومونهُ على تركهِ ملكه وبلاده واقامتهِ على

تلك الحالة المهينة بشان الملوك والحاطة من قدرهم والموخرة في حالة جيوشه اذ كان قد بعد عنهم يشتغل بالفلسفة والطبيعيات والصنائع ونحوها ومن ثم عاد للاجتماع بسفارتهِ في بلاد الانكليز وذلك في سنة ١٦٩٨ فارسل لهُ غيليوم سفينتهُ الخصوصية مع سفينتين من السفن الحربية وجاء البلاد الانكليزية واقام فيها مدة وهو على ما تعودهُ في امستردام من بساطة العيشة والماكل وتمّم هناك ما كان باقيًا عليهِ من معرفة فن صناعة السفن اذ كان الانكليز ابرع واكثر اتقانًا بمد السفن على القياس الهندسي وبرع براعة كلية في هذا الفن حتى اصبح من اكبر اساتذتهِ وشرع هناك بمد سفينة على الطرز الانكليزي فجاءت متقنة جدًّا تحسب من اعظم السفن واسرعها سيرًا . وقد مالت افكارهُ الى تعلم صنعة الساعات لانهُ راها في لندن متقنة وتحتاج الى دقة واتساع عقل فصرف وقتًا على تعلم اصولها وفروعها وبالاختصار ان جماعة المؤرخين اتفقوا ان الامبراطور بطرس قد تعلم في سياحتهِ هذه كل الصنائع والفنون او بالحري اكثرها ولا سيما صنعة السفن فانهُ اشتغل فيها من سبك المدافع الى فتل الحبال . وقد باشر كل ذلك بيدهِ ودخل معامل كثيرة متنوعة

وقد راى ان دوام الصداقة بينهُ وبين الانكليز امر ضروري

لا غنى عنهُ ورأى ان اكبر وسيلة لذلك استخدام جماعة منهم في بلادهِ كما فعل ببلاد الفلمنك بل كان يرى ان في الانكليز مهارة ومعرفة صناعية أكثر من غيرهم فاختار لذلك نفعين اولاً دوام محبة الانكليز لهُ وركونهم الى ميلهِ اليهم وثانياً ترقية بلادهِ بمعارفهم وصنائعهم وكان من جملة الذين ادخلهم في خدمة دولتهِ المهندس الماهر فرغسون الايقوسي. وهو الذي رتب العمليات الحسابية بديوان روسيا مع انهم كانوا قبلاً لا يعرفون هذا العلم بل اصطلحوا على عوائد التتار فيها وهي العد بحبوب مستديرة ينظمونها في سلك من النحاس وهي وان كانت تقوم عندهم بالغرض المطلوب الا انها كانت تذهب بكثير من الوقت فضلاً عما كان يقع بسببها من تشوش الاذهان وحصر الافكار والصعوبة في ضبطها اذ ان بعد العد لا يعلم الانسان هل غلط في عدهِ او لا ولهذا كانت كثيرة الخطاء . وقد صاحب فرغسون شابان انكليزيان من مكتب الرياضيات للعمل في بلادهِ ولذلك كان فرغسون لهُ المقام الاول عند بطرس وكان بطرس فيما بعد يلازمهُ على الدوام حيث انهُ كان يرصد وإياه الكواكب والاجرام ويحسب كسوف الشمس والقمر وكان المهندس برسي يشهد لهُ بمعرفة علم الفلك معرفة كافية وقال في كلامهِ ان

بطرس برع جدًا بمعرفة الاجرام السماوية وقوانين تجاذبها وسيرها ومعدلِهِ وقد نشر بطرس هذا الفن في بلادهِ واجهد نفسهُ في ان يعوّد اهلها عليهِ وبواسطتهِ يمكنهم من رفع الاعتقادات الخرافية من بينهم ومن ثم بعث بطرس بالمهندس بري الى بلادهِ لعمل بعض قناطر وجسور على انهر كبيرة ووصل بعض الانهر باخر وتخطيط خارطة تسهل لهُ وصل بحر الخزر بالبحر الاسود والبحر المحيط بواسطة خلجان اذ كان هذا الفكر يشغلهُ على الدوام دون ان يفكر بما يحول دونهُ من الصعوبة في مثل تلك الايام

ومما يستدعي الذكر هنا ان جماعة من تجار الانكليز طلبوا الى الامبراطور بطرس ان يسمح لهم ببيع التبغ في بلادهِ فيدفعوا عوضًا عن ذلك الى خزينتهِ خمسة عشر الف ليره . وكان قبل ذلك الحين ممنوعًا بيع هذا الصنف في روسيا حيث ان البطاركة كانت تزعم ان التدخين مخالف لقواعد الدين النصراني ولذلك لايجوز استعمالهُ ولهذا السبب كان ممنوعًا ادخالهُ بالكلية الى بلاد روسيا غير ان بطرس اعتقد ان ذلك لاصحة لهُ وان الدين لايمنع قطعًا التدخين ولا يتعلق اصلاً بهِ وان سبب منعهِ كان اما من قبيل الغايات او لتنفيذ مآرب

البطاركة الذين كانوا يتداخلون في كل امر فالذي يوافقهم صادقوا عليهِ وسلموا بهِ والذي لا يوافقهم منعوهُ وحرموهُ متسندين على ان الدين لا يسمح بهِ وعلى هذا رخص بطرس ببيع التبغ في بلادهِ ودخولهِ دون معارضة البتة

وعند ذلك عزم بطرس على السفر من لندن قاصداً مبارحة تلك البلاد والرجوع الى بلادهِ عن طريق النمسا وقبل سفره امر غليوم ملك الانكليز بقيام تمرين حربي بحري اكراماً لهُ فاعجب منهُ جداً وكان يرى ذلك وهو متأنٍ متمعن حتى ظهر من حالتهِ انهُ لابد ان يجري مثل هذه الحرب فعلاً مع الاسوج وغيرهم فلا يضيع شيئاً مما يراهُ دون ان يستفيد منهُ ويتعلمهُ ليحصد ثمرتهُ ذات يوم . وبعد ذلك اهدى غليوم بطرس بارجة كان من عادتهِ ركوبها عند سفرهِ الى الدانمرك . وتسمى رويال ترنسبورت وهي ظريفة جداً متقنة الصفة فركب عليها وعاد الى بلاد الفلمنك في شهر اذار من سنة ١٦٩٨ واخذ معهُ ثلاثة من رباني السفن الحربية وعشرين قبطاناً واربعين ضابطاً وثلاثين جراحاً ومائتين وخمسين من الطوبجية واكثر من ثلثمائة رجل من ارباب الصنائع والحرف المتنوعة وهولاء جميعهم ركبوا البحر في هذه السفينة وساروا من بلاد

الفلمنك الى مينا اركنجل ومنها وزعهم الى محال متعددة بحسب
اللزوم الذي كان يراهُ وبعث بالذين كانوا قد دخلوا بخدمتهِ
وهو ببلاد الفلمنك على السير في طريق مدينة نرول وهي وقتئذٍ
في حكم الاسوج . وسافر الجنرال شرمتوف رئيس السفارة الى
رومية والى نابلي ثم الى البندقية ومنها الى جزيرة مالطة ورحل
بطرس الى كرسي النمسا مع من بقي من اتباعهِ وكان قصدهُ
مشاهدة ما عند تلك الدولة من المعارف ومن العلوم العسكرية
والروابط الحربية لانهُ لم يكن يقصد في سياحتهِ هذه تعلم
المعارف والصنائع فقط بل كان يقصد معرفة احوال الدول
وقواتها وميزانية سياسة كل دولة من الدول التي زارها .
واجتمع بالامبراطور ليوبولد امبراطور النمسا وكان اجتماعهما
خالٍ من كل تكليف واحتفال اذ كان بطرس قد لاقى امبراطور
النمسا وهو كاحد الناس اي بغير صفتهِ الرسمية

ولم يرَ بطرس في بلاد النمسا من التمرينات الحربية والالعاب
العجيبة ما يستحق الذكر الا الموسم المسمى عندهم بموسم المضيف
والمضيفة وهذا الموسم كان قد بطل عندهم قبلاً الا ان ليوبولد
جددهُ حيًا بضيفهِ الجديد وهو على الاصطلاح الاتي . ان
الامبراطور والامبراطورة تتشكلا بشكل رب المنزل وربتهِ وابنهُ

الاكبر الملقب بملك الرومانيين وسائر اولاده واعضاء عائلته يتلقون في غرفة كل رجل من الضيوف بحيث يتزى كل منهم بزي من الملل ويلبس ملابسهم . وذلك بالقرعة فياخذ كل منهم ورقة من جملة الاوراق مكتوب عليها اسم تلك الملة وكيفية لبسها وقد يتفق ان الاميرة تتزيا بزي فلاحة او خولية ومثلها الامير ومن ثم يذهبون الى غرفة الرقص ويرقصون وهم بتلك الصفات المتنوعة وكل منهم يجري عادة الامة اللابس ملابسها بقدر استطاعته وقد اتفق ان الامير جوزف ولي العهد والكونتة دي ترون كانا على هيئة قدماء المصريين والارشيدوق كارلوس والكونتة دي ولستين على هيئة الفلمنكين في عهد شارلكان والارشيدوقة ماريا ايصابات والكونت دوترون على هيئة التتار والارشيدوقة جوزيفين والكونت دوور كلا على هيئة العجم والارشيدوقة مارينا والامير مكسمليان على هيئة فلاحي شمال الفلمنك واما بطرس فكان من نصيبه ان تزى بهيئة فلاحي اقليم فريزة وكانوا يخاطبونه بشان بطرس روسيا الاكبر بما يخاطب به الفلاحون وكان الامبراطور والامبراطورة يقومان بخدمة ضيوفهما ولا سيما وهما على المائدة فهكذا كان الموسم الذي حضره بطرس في بيت الامبراطور وان كان ليس بذات اهميه

تاريخية الاَّ ان ذكر هكذا عوائد لا يخلو من فائدة

وبعد ان صرف بطرس اياماً في النمسا عزم على السفر الى البندقية فبلغهُ خبر فتنة كبرى وقعت في بلاده اضطربت منها كل ممالكهِ وانتشرت اهميتها في غيرها من الممالك

الفصل العاشر

في رجوع بطرس الى روسيا وعقاب المتحزبين وابطال وجاق الاسترلتش واجراء التغييرات في بلادهِ

ذكرنا ان بطرس قبل سفرهِ كان قد خاف من وقوع الفتن في بلادهِ فدبر امور بلاده تدبيراً جعلهُ مستريح البال مدة ليست بقصيرة لانهُ فرق وجاق الاسترلتش واقام في موسكو الجيوش المنظمة الى غير ذلك غير ان ما كان قد وقع منهُ بعد ذلك غاظ بعضاً من الامراء المسنين والقسوس الذين خافوا من اضعاف السلطة والنفوذ اللذين كانا لهم فالامراء المذكورون كانوا يميلون الى بقاء العوائد القديمة على ما كانت والقسوس ادعوا ان كل ما يحدثهُ بطرس هو من قبيل الكفر والالحاد وانضم اليهم حزب الاميرة صوفيا وقيل ان احدى اخواتها كان لها دخل بتحريض

الاهالي على الثورة والخروج حتى وقع في قلبهم هم عظيم من دخول الاجانب بلادهم واخذوا يتذمرون من ذلك الى ان سمح بطرس اخيرًا بدخول الدخان الى البلاد وبيعهِ فيها بحيث زاد غيظ القسوس وكدرهم اذ كان ذلك بالرغم عنهم · ثم ان هذه الاوهام الفاسدة الباطلة سرت من الاهالى كالوباء الى وجاق الاسترلتش الذين كانوا متتشرين على ضواحي اقليم لوثانيا فاجتمعوا وصاروا جميعًا الى مدينة موسكو عازمين على إرجاع الاميرة صوفيا من الدير وتوليتها على الملك ومنع الامبراطور بطرس من دخول البلاد حيث تجاسر على هتك حرمة عوائدهم القديمة وبسبب هذه الفتنة حدثت وقعات جمة بين الثائرين والعساكر المنظمة التي هي تحت قيادة الجنرالين سين وغوردون انتصرت بها العساكر وهزمتهم عن مدينة موسكو الى بعد ١٥ فرسخًا وهذه النصرة غاظت كثيرًا من الاهالي غير الثائرين كيف ان القواد الاجانب يوقعون بابناء بلادهم ويفوزون عليهم

وعند وصول مثل هذه الاخبار الى بطرس وهو في بلاد النمسا انسحب من هناك بطريقة سرية سائرًا الى بلاده لاطفاء نار تلك الفتنة فمر في اثناء طريقهِ على بولونيا واجتمع فيها بالملك

اوغسطوس على طريقة خفية ودبر معهُ ما يكون بهِ اتساع بلاده من جهة بحر بلطيك ثم سار من هناك ودخل موسكو بغتةً دون ان يشعر بهِ احد فتعجب الجميع من ذلك وفي الحال باشر العمل بنفسهِ وكانت الفتنة ثائرة لكن كانت النصرة والفوز فيها لعساكره وقد قبضوا على كثير من الاشقياء واودعوهم الحبوس فعاقبوهم عقابًا جسيماً كلاًّ بقدر ذنبهِ وكافأ العساكر والقواد المنتصرين مكافاة حسنة وقتل عدة من قواد الثائرين ومن القسوس والاساقفة ومنهم من اماتهم بمرور العجلات عليهم وهم ملقون الى الارض ودفن امراتين وهما بقيد الحياة وعلق كثيرًا على الاسوار وابقى كثيرًا من جثث القتلى في الاسواق مدة يومين ولا سيما حول الدير الذي كانت فيهِ الاميرة صوفيا واختها افذوكسيا واقام اعمدة من الحجر نقش عليها جناياتهم وعقوباتهم وبدد شمل من كان معهم بمدينة موسكو من اولادهم ونسائهم فانتشروا ببلاد سيبيريا واستراخان وازوف فنتج عن نفيهم وابعادهم الى تلك الجهات ان الاراضي المهجورة الخالية من العمران التي سكنوا فيها عمرت وتجدد فيها الخصب بحراثتهم وزرعهم

وقد لام بعض المورخين بطرس على فتكهِ مثل هذا

الفتك ببعض الاهــالي والقسوس ولا سيما بجماعة الاسترلتش لزعمهم انهُ كان قد انتفع بهم لواذلهم وادخلهم كالاسارى بين طوائف الفعلة والمشتغلين باشغال الدولة وانهُ بعملهِ هذا خسرهم مع ان النفوس البشرية محترمة يمتنع عن هدر دمها ما امكن . غيران هذا اللوم لم يكن في محلهِ لان اهالي روسيا في تلك الايام لم تكن متمدنة التمدن الموجب الشفقة ولا كان وجاق الاسترلتش ممن يعرف احترام النفوس البشرية بل كان على الدوام جرثومة شر وفساد وعلة ثورات وفتن ورأى بطرس من نفسهِ ان لا امن يسود في بلادهِ على الدوام الا بقلع هذه الجرثومة والقــاء الرعب بقلوب الاهالي لينزعوا من رؤوسهم الطمع فلا يعودوا الى الخروج ثانية وبذلك يتمكن من اتمام مقاصدهِ بتقدم بلادهِ وتوسيعها . وقد فاز بطرس بقلع تلك الجرثومة ولم يبق الا قسماً قليــلاً في استراخان من الاسترلتش اذلهم فيما بعد اي في سنة ١٧٠٥ . وفوزهُ هذا على الغاء هذا الوجاق كان يؤملهُ منذ زمان ولهذه الغاية رتب الجيوش ونظمها واعدهــا فتم لهُ ما قصد وانتهى اليهِ ما اراد حتى امن باسهم وشرهم

وفي شهر اذار من سنة ١٦٩٩ استاثرت المنية بالجنرال لوفورت

وهو ابن ٤٦ سنة فدفنهُ بطرس باحتفال عظيم يليق بجنرال مثلهُ خدمهُ بامانة لابل يليق بعظماء الملوك لانهُ مشى هو بنفسهِ في جنازتهِ قابضاً في يدهِ رمحاً طويلاً ولابساً ملابس الجندية ومتاخراً وراء قواد المئة لانهُ كان لم ينل بعد في جيش الجنرال المذكور رتبة قائد مائة بل هو دونها وكان قصدهُ بذلك احترام نظام العسكرية وضبط قواعدهِ وتعظيم مقام قائده وان يكون قدوة لغيرهِ من ابناء بلادهِ فيتعودون عاداتهِ · وبعد موت هذا القائد بقي الانتظام والنجاح يتدرج على حالهِ حتى ثبت للناس ان علة تلك الاعمال هو الامبراطور بطرس وليس لوفورت

ومن ثم رجع بطرس الى ترتيب جيشهِ وتدريبهِ وزيادتهِ وجعلهِ على نسق الجيش النمسوي والبسهُ الملابس القصيرة على نسق واحد بدلاً من الملابس الطويلة التي كانوا يلبسونها قبل ذلك ورتب لهم طرق تعليم الحركات العسكرية وجعلها على غاية من الاحكام والانتظام · وكما ان بطرس ترقى في الرتب العسكرية بالتدريج شيئاً فشيئاً اراد ان يجري على خطتهِ ابناء الامراء والاعيان من بلادهِ بحيث لا يصلون الى درجة الضباط الا بعد استخدامهم انفاراً وتنقلهم بالرتب بحسب استحقاقهم وهكذا

ادخلهم في جيوشهِ المنظمة وعودهم ان يتخذوهُ مثالاً وعين جماعة منهم في اسطول ويرونيزة وفي اسطول بحرازوف فاخذوا يتعلمون اولاً من انفار النوتية . وكان في تلك الاثناء جماعة الانكليز والفلمنك المقيدين في خدمتهِ مهتمين باقامة الجسور وانشاء الترسانات واصلاح السفن ومشتغلين بمصلحة اخرى اكثر اهمية وهي وصل نهري الطونة بالاثل وكان براكيل النمسوي قد شرع في ذلك ولم يتممهُ . ومن ذلك الحين اي بعد ابطال وجاق الاسترلتش وتقرير الامن والراحة في بلادهِ وتنظيم الجيوش اللازمة لهُ اخذ في تنظيم مجالس شوراهُ الملكية وتقرير احوالهِ المالية وتحرير القوانين الدينية وتاييد كل مشروع يكون بهِ نظام الاهالي ويكسبهم حسن التربية والتمدن الحقيقي . وقد لاقى صعوبة كلية بتقرير احوال خزينتهِ وزيادة دخلها لانهُ كان قبل ذلك الحين يدفع كل امير خراج اراضيهِ بقدر معلوم بجمعهُ من فلاحيهِ المستعبدين لهُ وكذلك مشائخ البلاد كانوا يدعون ان لا قدرة لهم على دفع شيء الاَّ الذي يريدونهُ ويطيب لهم فابطل بطرس هذه العادة وضرب الاخرجة على عموم الاهالي بقوانين عينها بحسب ما ارتآهُ واستحسنهُ وان تجبى تلك الاخرجة راساً من ذويها بواسطة مامورين قاصداً ذلك منع الامراء

شيئًا فشيئًا من استعباد الاهالي وتعلقهم راسًا بالحكومة

وكان كثيرمن الناس يظن ان مقاومتهُ للاكليروس تلقيهِ بصعوبات جمة وتحملهُ اثقال مقاومتهم ودسائسهم غيران ذلك كان بعكس مايظن فانهُ تغلب عليهم بسياستهِ وحكمتهِ وعرف من اي باب يمكن ان يدخل في مثل هذا السبيل . فمنعهم من التداخل في الامور السياسية مطلقًا ونزع ما كانوا يدعونهُ من الحق بالسيف والتعقب بالجنايات والجرائم وارجعهم عن افكارهم من دعواهم ايضًا بان اختيار وضع التاج الملكي راجع لارادتهم الى مثل ذلك من الامور التي كانوا يتطلبونها ويدعونها حتى افضى بهِ الامر اخيرًا اي بعد موت البطرك ادريان في اواخر القرن السابع عشر ان الغى منصب البطركية بالكلية وضبط اموالاً غزيرة كانت تتعلق بهذا المنصب وتصرف فيهِ وضم تلك المداخيل الى خزينة الدولة . كل هذا وجماعة الاساقفه والقسوس لم يجسروا على مقاومتهِ لعلمهم بقوتهِ ولكونهِ كان يفوقهم علمًا وعملاً

هذا وينبغي ان نذكر هنا القوانين الذي وضعها الامبراطور بطرس للاكليروس في اخر مدتهِ اي في سنة ١٧٢١ وان كان في غير محلهِ لكن ذكرها مع ما تقدم من انزال سلطتهم اوفق .

وقد قال نفسهُ عند سنهِ لهذه القوانين · اننا بعد ان رتبنا القوانين العسكرية والملكية لا يبري الله ذمتنا اذا اهملنا القوانين الدينية كما اهملها اسلافنا السابقون والملوك الماضون الذين كان يمنعهم عنها الخوف منهم وهذا الذي الزمنا الى ان نشمر عن ساعد العزيمة في سن نظام ديني مستحسن ووضع اصول محاكمة انتهى · ورتب جمعية من القسوس خصوصية لاجراء تلك القوانين التي سنها وجعل على افراد تلك الجمعية ان ياتوا قبل الدخول بتلك الخدمة مظهرين طاعتهم لهُ ويحلفون اليمين التي يعرضها عليهم ليثبت بذلك السلطة الملكية المطلقة وهذه صورة اليمين · اني قد التزمت وتعهدت ان اكون امينًا مطيعًا خادمًا تحت استرعاء ملكي الحقيقي ومن يعينهُ ويستنسبهُ للخلافة بعدهُ لما لهُ في ذلك من الحق والقوة التي لا تقاوم واقر واذعن انهُ الحاكم المطلق التصرف في هذه الجمعية واقسم بالله تعالى الذي لا تخفى عليهِ خافية اني غير موارب في كلامي بل اقصد بهِ المعنى الصريح لكل من سمعها · انتهى ·

وقد راى بطرس ان الرهبنة اي عدم زواج الرهبان في ممالكهِ المحتاجة للعمران وكثرة الاهالي مضرٌّ بالمصلحة العامة والطبع البشري وراى ان حب البطالة والكسل يقود كثيرًا

الى الترهب وان كثيراً من البنات والشبان يترهبون فيقع من بعضهم على الدوام مغايرات تضرُّ بالكنيسة والخطة فامر ان لا يترهب احد قط ما لم يتجاوز سن الخمسين سنة بحيث تكون قد ضعفت بهِ الاميال الطبيعية وان لا يقبل قط انسان من ماموري الحكومة او مستخدميها مهما بلغ من العمر. وبقي هذا الامر نافذاً في كل مدة حكمهِ الا انهُ نسخ بعد موتهِ لمارات اسلافهُ ان مراعاة جانب الاديرة ضروري وانها لا تقوم الا بالرهبان الاقوياء بالعمل والجد . اما منصب البطركية فلم يعد اليها حتى هذه الايام ولا يزال يصرف ايرادهُ العظيم في مرتبات العساكر وعلوفاتهم

وبسبب مثل هذه الاعمال السابقة وقع اللغط بين الناس حتى كان يزعم بعض القسوس وقد كتبوا عنهُ . انهُ هو المسيح الدجال حيث لا رغبة لهُ برجال الله وقد اسقط رئيس الكهنة الاول من بلادهِ . واجاب على اصحاب هذا القول قسيس اخر يغلط الذين زعموا انهُ الدجال اذ ليس في اسمهِ ما في اسم الدجال من عدد الستمائة والستة والستين وكذلك لفقد علامات الدابة . وكان بطرس لا يمنع مثل هذه الكتابات لحبهِ بترويج فن الطباعة في بلادهِ ولعلمهِ انهُ الاساس الوحيد لنجاحها وعمرانها

وتقدمها وانهُ بدون انعطاف الناس اليهِ ومزاحمتهم على نشر
افكارهم منهُ مفيدة كانت او غير مفيدة تحركهم الى الدرس والتفنن
بالمعارف ولهذا كان يقوي فن الطباعة فتقوى به المعارف والاداب
وقد رتب للكنيسة اموراً نافعة جداً اكثرها سلبهُ منها لانهُ نظم
طائفة القسوس تنظيماً موافقاً وجعلهم بالتدريج من اصحاب
المعارف الدينية والمدنية وفرض على كل قسيس وجوب الدرس
في ثلاث مدارس كان انشاها في موسكو لتعليم اللغات واللاهوت
ومن لم يدخل المدارس المذكورة لا ينتظم في سلك الطائفة
ومما راهُ بطرس موافقاً لافكارهِ تغيير الاصوام الكبيرة في جيشهِ
اي انهُ منعهم من ان يمتنعوا عن اكل اللحوم وان لا يضعفوا اجسامهم
باكل كل ما ليس بذي روح بل بالعكس وحسب ان هذه
العادة التي عودت بلادهُ عليها الكنيسة اليونانية قديماً هي ليست
من القواعد الدينية الاساسية فتلقى رجال جيشهِ ذلك بقبول
وتركوا ذاك الاعتقاد ومالوا الى اكل كل ما يقدمهُ لهم من اللحم وغيرهِ
من المغذيات المقوية للاجساد التي خلقها الله لتتقوى لا لتضعف
بغير قصدهِ . وغير ايضاً حساب الدولة واصطلاحها وجعل
اول السنة شهر كانون الثاني كما هو في كل ممالك اوربا بعد
ان كان اول السنة عندهم شهر ايلول (سبتمبر) وكان هذا

التغيير في اوائل سنة ١٧٠٠ وهي اوائل القرن الثامن عشر الذي اذاعهُ بطرس بالعفو العام وعجب كثير من قومهِ كيف امكن لبطرس احداث مثل هذا التغيير وبقي جماعة منهم مصرين على المخالفة لعلمهم ان الله خلق الدنيا في شهر ايلول (سبتمبر) وداموا مدة حتى اخيرًا التزم الجميع على العمل بذلك الحساب الجديد وانقادوا اليهِ بالرغم

وقد اتسعت دائرة الاصلاح بما احدثهُ من التغيير والتبديل خصوصًا في امر الزواج فانهُ بعد ان كان طالب الزواج لا يرى خطيبتهُ الا بعد ان يقترن بها صار يجتمع بها في كل اوقاتهِ ويعاشرها كغيرها وقد دخل في عقولهم ان هذه العادة القديمة التي لا تزال باقية بين بعض الطوائف والملل هي حسنة عند من يسوغ لهم دينهم اخذ اكثر من زوجة واحدة ولا يمنعهم من الطلاق عند الاقتضاء بخلاف الدين النصراني الذي يحتم بوجوب الاكتفاء بزوجة واحدة لا تفصل الا بالموت ولهذا راوا من الضرورة معاشرة اللاتي يعتمدون على الزواج بهن وان يروهن قبل الوقوع بهن . وهذا من مقاصد بطرس لانهُ قصد ان يعود رعيتهُ على عوائد الامم المتمدنة التي اقام بها زمانًا واختار احسن عوائدها

وكان من جملة الاشياء التي كان يرغب فيها بطرس ويريدها ان يعود اهالي بلادهِ على لبس الملابس الضيقة كالفرنسوية وغيرهم من الافرنج الذين اختلطوا بهم وجاءوا لتعليمهم ومع ان الانسان من طبعهِ يبغض الاجانب ولا يستحسن باعينهِ عوائدهم مهما كانت حسنة ما لم يكن فاقداً محبة الوطن والجنسية الا ان الرجل العاقل يعرف النقص الواقع فيهِ ولا يخفى عليهِ الكمال الموجود في غيرهِ وهكذا كان بطرس يرى في حال ملابس اهل بلاده وعدم موافقتها لهم لان يحسبوا في مصاف العالم المتمدن ولا سيما استرسال لحاهم وتركها على حالها ولذلك حتم عليهم بوجوب ترك تلك الملابس وحلق لحاهم او اصلاحها وان كان يرى في ذلك صعوبة لكنهُ نجح بهِ بما كان يجريهِ فيهم من اللطف واللين وبالتدريج حصل على تمام ذلك النجاح

والمقصود من سن القوانين والشرائع تمكين الالفة بين الاهالي وبين الضيوف الذين جاءوا البلاد وتوسيع دائرة الحرية الشخصية واستئناس الرعية بعضهم ببعض ولذلك الف الجمعيات الاحتفالية واكثر من المآدب والمحافل العامة وامر ان يحضر تلك الاحتفالات النساء والبنات وهن لابسات ملابس

نساء جنوبي اوربا وجعل تلك الجمعيات كمواسم واعياد
تنتظر من آن الى آخر من رجال ونساء للاجتماع والمخالطة
والحاصل ان كل ما حدث في روسيا من التمدن والتقدم كان
جديداً حتى علة المخالطة والائتلاف على المسرات والمعاشرات
العائلية وكان بطرس سببها . ولكي يذيق رعاياهُ لذة ما اوجدهُ
فيهم من الحرية ومحبة الذات ومعرفـة حقوقهم وشدة محبتهِ لهم
ابطل كل ما كانوا يستعملونهُ قديمًا في مخاطبات ملوكهم شفاهًا
وبعرضحالاتهم من الالفاظ التبجيليه (كعبدكم وعبد عبدكم) الى
غير ذلك وحصر ذلك (باحد رعيتكم) ولم يحدث هذا التغيير
اتفاقًا بالامة او اخلالاً بطاعتهِ بل نتج عنهُ استمالة قلوب الرعايا
لهُ وحبهم الاكيد وشعروا بلذة نتائج الحرية وكرهوا الحالة
التي كانوا عليها قبلاً من الاستعباد ولا سيما عند ما راوهُ على الدوام
وفي كل اسبوع يحدث شيئًا جديداً محبوبًا منهم وقد بعثتهُ همتهُ
الى تحديد المسافات ومعرفة ما يقطعهُ الانسان اثناء اسفارهِ
فاقام في الطرقات العامة اعمدة من الخشب بين كل ميل وميل
ولا سيما في الطريق بين موسكو وويرونيز وجعل اعمدة ممتازة
عند نهاية كل فرسخ ليعرف الفرسخ من الميل وبنى عند كل
عشرين ميلاً محطًا للمسافرين ومنزلاً للمبيت فيهِ

وكان طبعهُ لا يالف الزينة والزخرفة الاَّ انهُ وجد نفسهُ مضطرًّا لتزيين ديوانهِ وتاثيث دار حكومتهِ بالاثاث الفاخر مجاراة لدواوين اوربا وانشأَ نشان ماري اندراوس وهو من رتب الافتخار المستعمل في اكثر اوربا وكان اول من نال هذا النشان غلوين الذي خلف لوفرت برتبة اميرال اول واعتبر كل رجل حاز هذا النشان حائزًا على المكافاة الاولى في البلاد الروسية وقد استحسن كثير من اصحاب العقول المهذبة في بلادهِ هذه الابتداعات والتغييرات النافعة التي كانت تصدر منهُ وتلقوا ذلك بالقبول والشكر واقنعوا غيرهم من اصحاب العقول الخامدة بحسن تلك الاحوال فترتب على ذلك خمود نيران التشكي والتظلم من الذين يميلون الى بقاء العوائد القديمة

وبينما كان بطرس مشغلاً بالانشاءَات والتحسينات التي تقدم ذكرها لم يفتر عن النظر فيما يعود عليهِ بالمنفعة الخارجية من جهة جيرانهِ فعقد هدنة مع الدولة العلية انتفع بها انتفاعًا عظيماً مكنهُ من ان يسعى الى توسيع بلادهِ من جهة اخرى والسبب الذي اوجبهُ الى مصالحة الدولة العليَة هو ما راهُ من تجمع قواتها كونها فرغت من الحروب التي كانت مشغلة بها قبل ذلك مع النمسا والبنادقة وضمت كل عساكرها المتفرقة فراى من الاصابة

مهادنة ساكن الجنان السلطان مصطفى خان اعتقاداً منهُ بان العثمانيين رجال بسالة واقدام وانهُ يصعب عليهِ اتمام مقاصده في ذلك الحين من جهة البحر الاسود وبقي مستوليًا على بحر ازوف وموجهًا اهتمامهُ الى انشاء الاساطيل في نهر الطونة ونهر الاثل

الفصل الحادي عشر

في

وقوع الحرب بين الروسيين والاسوجيين وذكر واقعة نروا الشهيرة

كان تطرف كارلوس الحادي عشر ملك اسوج والد كارلوس الثاني عشر باطلاق التصرف وتجاوز الحد في الاجراءات سببًا لوقوع الفتن والارتباكات في بلادهِ الاسوجية من اقليم انغريا الى مدينة درسدن فتخرب بها كثير من البلدان وكان اهل بولونيا قد تنزلوا عن معظم اقليم ليفونيا وعن كل اقليم استونيا لكارلوس بشرط ان تحفظ لهم المزايا والعوائد الجارية فيهم على حالها ولا يحدث فيها ادنى تغيير فلم يراعِ كارلوس هذا

الشرط ولا ترك لهم الحرية بعوائدهم ومزاياهم فغاظهم ذلك وانتخبوا احد ملتزمي ليفونيا واسمهُ بطقول ليذهب الى كارلوس ملتمساً منهُ المحافظة على المعاهدة فسار بطقول وبرفقتهِ ستة من وكلاء هذا الاقليم الى استهلم قاعدة بلاد اسوج وذلك سنة ١٦٩٢ فدخلوا على الملك وبثوا شكواهم مع رعاية الادب والوقار فعوض ان يصغي اليهم ويستمع شكواهم عاملهم بالقساوة فقبض على رفاق بطقول ووضعهم بالسجن وامران يقتل هو شرقتلة فلم ينفذ فيهِ هذا الامر لانهُ تمكن من الخلاص وفرَّ هارباً الى بلاد السويس ومكث بها مدة الى ان بلغهُ ان اوسطوس منتخب سكس وعدانهُ اذا تولى مملكة بولونيا ردَّ ما سلب من هذه المملكة الى اصلهِ وعندما تولى اوسطوس المملكة سار اليهِ بطقول الى درسدن وعرض عليهِ امر استرجاع اقليم ليفونيا وان ذلك على جانب عظيم من السهولة وان ما من مشقة كبيرة بالانتقام من ملك لا يزيد عمره عن ١٧ سنة وهو كارلوس الثاني عشر الذي ملك مجدداً بعد ابيهِ المتوفى · وسمع بطقول ايضاً وهو في درسدن ان في خاطر بطرس ان يتغلب على كل من انغريا وكاريلية وهما اقليمان اغتصبهما الاسوجيون في ايام الدولة الديمتريوسية الادعائية الكاذبه وهما بيد حكومة الاسوج الى

ايامهِ فسافر من درسدن الى موسكو ليحرض ملكها ايضًا فصادف نجاحًا عظيماً وانزلهُ بطرس منزلة القواد العظام وارسلهُ بجملة الى محاصرة مدينة ريغـــا قاعدة اقليم ليفونيا . وتعاهد بطرس واوغسطوس ملك بولونيا وفردريك الرابع ملك الدنمرك على محاربة كارلوس الثاني عشر الصغير الذي كان يظهر من ظواهر امرهِ ان لا قدرة لهُ على الثبات والدفاع

وفي اوائل الشتاء بعث بطرس ستين الفًا من عساكرهِ الى جهة انغريا لكن لم يكن بينهم من العارفين بفنون الحرب المعودين على القتال الاَّ اثنا عشر الفًا فقط وهم الذين كان قد باشر تعليمهم بنفسهِ والباقون كانوا من العساكر غير المنظمة من القوزاق والتتار والشراكسة وكان مع هذا الجيش ١٤٥ مدفعًا وحاصر بطرس بهذا العدد مدينة نروا وهي واقعة باقليم انغريا ولها مينا يسهل الدخول منهُ ويتراءى للناظر انها توخذ بوقت قريب

واما كارلوس الثاني عشر فانهُ كان اوائئذٍ لا يبلغ الثامنة عشرة الاَّ انهُ كان شجاعًا بالحروب صارفًا كل همهِ اليها ولما راى ان مركزهُ صعب وان اعداءهُ تحزبوا عليهِ اسرع الى بلاد الدانمرك فغزاها ودوَّخها بمدة لا تزيد عن الشهر والنصف ثم

ارسل الامدادات الى مدينة ريغا حيث كان بطقول ورفع الحصار عنها واجلى الاعداء الى مكان بعيد وسار هو بنفسهِ الى امام مدينة نروا حيث كانت عساكر الروس تحاصر المدينة وقد اشرفت على التسليم وصادف ان بطرس قبل وصول كارلوس اقام على حصار المدينة الاميركرواي واصلهُ من فنلندة دخل خدمة القيصر منذ مدة يسيرة والامير دلغروكي وذهب الى اقليم نوفغورود آخذًا معهُ خصيصهُ منزيكوف بقصد الاستيلاء على تلك المدينة . وبسبب غيابهِ وقعت المناظرة بين كرواي ودلغروكي والتنافس بما افضى الى التاخر والتقهقر كما سيظهر

وخرج كارلوس من البحر في شهر تشرين الاول (اوكتوبر) بتسعة آلاف مقاتل فقط وسار الى مدينة رويل حيث كانت طائفة من الروس نازلة فضربها وهزمها امامهُ ثم سار على طريق نروا فصادف في طريقهِ معسكرًا اخر فحاربهُ وانتصر عليهِ وهزمهُ وفرَّ المنهزمون الى جهة نروا ولما نظرهم رفاقهم وقع الرعب في قلوبهم وخافوا مجيء كارلوس خصوصًا لانهم كانوا عرضة لشدة البرد ووقوع الثلوج . واصبحوا بانتظار وصولهِ . واما هو فلم يتردد عن الحمل بجيشهِ القليل العدد وبمدافعهِ التي

كانت اوائئذ عشرة على جيش الروس الذي كان عدده ثمانين الفًا وعدد مدافعهِ مائة وخمسين مدفعًا واغتنم كارلوس فرصة رياح عاصفة وثلوج متراكمة كانت تقذف على الروسيين فشن الغارة عليهم واقتحم مراكزهم وانقض عليهم بغتة وهم لا يعلمون مقدار قوتهِ ولا مقدار العساكر التي كانت تقاتل معهُ ولا عرفوا انها لا تبلغ تسعة الاف رجل واخذوا باصوات المدافع الاسوجية التي كانت تندفع كراتها عليهم وهم يسمعون اصواتها ولا يرونها وكل من القائدين كرواي ودلغروكي يرغب ان يتخلى عن الاخر ويتركهُ وحدهُ في مقام الدفاع وقصد ايضًا الدوق كرواي ان يامر الجيوش بحركة عسكرية خالفهُ فيها دولغروكي فافضى الامر الى النزاع وترك مدافعة العدو وهجم الضباط الروسيون على النمسويين فقتلوا كاتب كرواي والاميرالاي لبون وجماعة من الضباط وبهذا السبب ترك كل ذي خطة خطتهُ ووقع الرعب والخوف في قلوب جيوش بطرس وبهذه الطريقة تمكن الاسوجيون من الانتصار وجعلوا يضربون عساكر فارة ويطلقون المدافع على قوم منهزمين وما من نفر وقف في سبيل الدفاع والمحاربة بعد ان راى ما راى من عمل القواد والضباط حتى اوجب الامر كثيرًا من اولئك الفارين ان يلقوا بانفسهم

في نهر نرول مفضلين الغرق على الموت بيد العدو وكثير من الروسيين القوا بسلاحهم بين ايدي الاسوجيين وجثوا على ركبهم يسالونهم العفو والامان ومثل ذلك فعل الدوق كرواي فانهُ ذهب مع الجنرال ألارد وثلاثين الفًا من الضباط النمسويين والانفار الذين تحت امرتهم وسلموا الى كارلوس الثاني عشر وجثوا بين يديهِ ومروا من امامهِ حاسرين رؤُوسهم وكذلك دولغروكي فانهُ سلم الى العدو بجميع من معهُ واستولى كارلوس على كل المدافع الروسية والذخائر والمهمات ولم يعلم الروس عدد الاسوجيين وقلة جيوشهم وان مدافعهم عشرة فقط الا بعد ان سلموا سلاحهم وصاروا بايديهم وكان من جملة الاسارى ميتيلسكي بن ملك كرجستان فبعثهُ كارلوس الى ستوكلم . وكان مجمل ما قتل من عساكر الروس ستة الاف نفس ومن الاسوجيين الفًا ومائتين

ومن غريب عمل كارلوس الثاني عشر انهُ بعد ان امن على المدينة وانتهى من هذه الوقعة سمح لنصف العساكر الروسية ان يرجع الى بلادهِ مجردًا عن السلاح والنصف الاخر دفع اليهِ سلاحهُ وسمح لهُ ان يجتاز نهر نرول ويذهب من هناك الى البلاد الروسية غير ملتفت الى ما وراء ذلك من الاعمال غير الموافقة

بين عدوين كبطرس وكارلوس ولم يفكر ان ذلك يعيد لبطرس قوتهُ ويرجع اليهِ رجالاً قد تمرنوا على الحروب وحضروا الوقائع الهائلة واعتادوا على القتال بل اكتفى بما نالهُ منهم من السلب حيث استولى على كل مهماتهم التي كانت في المخازن واخذ سفن النقل التي كانت مشحونة بالزاد والذخائر وجميع الادوات الحربية والمدافع . وصارت تلك الجهة تحت تصرف اسوج واقاموا في مدينة نروا ولم يبقَ للروسيين اثر في كل تلك الجهة وصار الاقليم بتمامهِ الى حدود بلسكو مفتوحاً للاسوجيين وظهر للعالم قاطبة اوانئذٍ عظم سطوة كارلوس واستصغروا بطرس وثبت لديهم انهُ لا يقدر على مقاومة الملك كارلوس الثاني عشر الذي مع صغر سنهِ قهر باقل من سنة ملك الدانمرك وملك بولونيا وملك الروس وانتصر عليهم حتى حسب بذلك اول ملك باوربا الا ان بطرس لثبات عزمهِ وقوة جاشهِ لم تقلل هذه الكسرة من عزمهِ ولا اضعفت شيئاً من مقاصدهِ ولا قللت مقدار ذرة من مشروعاتهِ واغراضهِ

الفصل الثامن عشر

في ما وقع لبطرس بعد واقعة نروا وافتتاحهِ بعض مدن أُخر
ووقوعهِ بكاترينا التي اتخذها فيما بعد زوجة ولقبت بلقب
امبراطورة وما عقب ذلك من النجاح ورجوعهِ الى
موسكو منصورًا ظافرًا قبل استيلائهِ على نروا

وفي اواخر سنة ١٧٠٠ في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) بينما كان بطرس سائرًا يقصد اوغسطوس ملك بولونيا لاجل المخابرة معهُ والمفاوضة بلغهُ انتصار اسوج على عساكرهِ فلم يرتع ولا اضطرب بل لحق بهِ قليل تأثير من جرى عدم وجودهِ بين جيوشهِ ولذلك أخر الاجتماع باوغسطوس واسرع الى ما يعود عليهِ بالنفع الاهم وارجاع ما خسرهُ في واقعة نروا فجمع الجيوش المتفرقة المتبددة في مدينة نوفغورود الكبرى وبعد ان تم اجتماعها نقلها الى مدينة بلسكو عند بحيرة بيبوس وصار الى موسكو واخذ بتجييش الجيوش من سائر الانحاء وبسبك المدافع لتسد مسد المدافع التي اخذت في تلك الواقعة ولما لم يكن عندهُ مواد للسبك جمع اجراس الكنائس والاديرة فصنع منها مائة مدفعًا كبيرًا ومائة وثلاثة واربعين مدفعًا اصغر منها يحمل الواحد منها ١٢ اقة من الرصاص وارسلها جميعها الى بلسكو

محط جيوشهِ . وطلب من ملك الدانمرك ان يمدهُ بثلاث فرق من المشاة فاجابهُ بالوعد لكنهُ لم يفِ لهُ بهِ

وفي ١٧ شباط (ففريه) من سنة ١٧٠١ خطر لبطرس الذهاب الى ميدان الحرب فسار الى مدينة برزان على ضواحي اقليمي كورلندة ولوثيانيا ليقابل فيها الملك اوغسطوس ويحملهُ على دوام التصميم على محاربة اسوج وبعد المقابلة المذكورة طلب اليهِ ان يشهر الحرب على اسوج ووعدهُ ان يمدهُ بعشرين الفًا من الجنود وبمبالغ وافرة من الاموال . غير انهُ لما كانت حكومة بولونيا اشبه بجمهورية اسي انها مقيدة عقدت مجلسًا حضرهُ بطقول وامراء البولونيين ولدى المفاوضة قرروا عدم موافقة بطرس وغاظوا بذلك اوغسطوس ملكهم لانهُ كان يحب استرجاع اقليم كبير اغتصبهُ الاسوجيون قبلاً ولو اطاعوهُ لتسنى لهُ ذلك الاَّ انهم كانوا يخشون مضايقة اهل سكس والروسيين وكانوا ايضًا يخافون سطوة اسوج . فنشأ عن ذلك حرب اهلية داخلية

ولما راى بطرس ان حليفهُ اوغسطوس ضعيف الشوكة وان للعساكر السكسونية امدادات وافرة وان هيبة كارلوس الثاني عشر قد وقعت في قلوب الناس من سائر الجهات عزم

ان لا يعول في هذا الغرض الاَّ على قواهُ العسكرية وجيوشه الحربية فقط وفي غرة شهر اذار (مارس) رجع الى موسكو لانجاز امر قواهُ الحربية فامر الامير ربنان ان يسير باربعة الاف جندي الى مدينة ريغا عند شواطىء نهر دوينا حيث نزلت العساكر السكسونية وقد ازداد الرعب في قلوب الناس عندما سمعوا باجتياز كارلوس ذاك النهر وامتلاكهِ بالسرعة عدة مدن وقلاع من اقليم لوثيانيا . وبسبب ذلك تقوى الحزب البولوني المضاد لاوغسطوس وتغلب عليهِ . واما بطرس فلم يعدل عن شيء من مقاصدهِ وما زال مقرراً في ذهنهِ الرجوع الى نروا والاستيلاء عليها وارجاع شرف جيوشهِ التي حلَّ بها ما حلَّ عندها . واتى بطقول الى بطرس واستخدم في جيوشهِ وجاء بعدة عساكر وضباط من النمسويين وطوَّعهم جيشاً واعد لهم ما يلزم من المؤن والذخائر والادوات الحربية

وراى بطرس ان من الضرورة انشاء السفن في بحيرة بيبوس الكبرى التي يبلغ طولها ثلاثون فرسخاً فرنسوياً وعرضها من اثني عشر الى خمسة عشر فرسخاً لتمنع السفن الاسوجية من التعدي على اقليم نوفغورود ويتيسر بها لجيوشهِ عند اقتضـــاء الحال الخروج الى السواحل الاسوجية ولذا انشاً بطرس في ظرف

سنة ١٧٠١ مائة سفينة تسع الواحدة منها نحو خمسين رجلاً وسلح سفنًا اخرى للحرب في بحيرة لادوغا . وكان يدير كل الاشغال بنفسهِ ويلاحظها بذاتهِ ليكون على وثيقة من وجودها وترتيبها وموافقتها

وبينما كان كارلوس الثاني عشر يحرب في البلاد ويسير في جهة بولونيا كان بطرس مشغلاً بالاعدادات الحربية ويجلب من مملكة سكس الى موسكو الاغنام لجز اصوافها يصنع منها الجوخ الجيد بالمعامل التي انشاها لعساكرهِ وبلاده والحاصل انهُ بمدة سنة من تاريخ واقعة نروا السالفة الذكر حصل عند بطرس من الجيوش المتعلمة المتمرنة ما انهزم بهِ اعظم قواد كارلوس

وذلك انهُ في سنة ١٧٠٢ جاء بطرس مدينة بسكر وارسل فرقًا الى سائر الجهات لاجل مقاتلة الاسوجيين الذين كانوا يتفرقون في البلاد فجرت فيما بينهم وقائع كثيرة كان الفوز بها على الدوام للروسيين . وحمل الجنرال شرمتوف الروسي بقرب مدينة دربت على القائد الاسوجي اسليبنباخ حملة عظيمة هائلة بدد شملهُ بها واستولى على عدة معسكرات واغتنم اربع الوية وفاز فوزًا تامًا وانهزم اسليبنباخ الى انباخ

وكانت بحيرة بيبوس وبحيرة لادوغا ميداناً للوقائع البحرية ومع ما كان لاسوج فيها من السفن المنتظمة والمحكمة الضبط والربط كان الروسيون ينتصرون عليها على الدوام ويكسرون ما يقع منها بين ايديهم وبذلك كان بطرس يتهدد اقليمي ليفونيا واسثونيا حيث كانت سفنهُ تاتي متتابعة حاملة جنوداً من جنوده واستولى شرمتوف القائد الباسل على بارجة اسوجية اثناء نزولهِ البحيرة وقتالهِ فيها وكان يسير في تلك الجهات حاملاً بجيوشهِ بايعاز بطرس من مكان الى مكان وكان النصر يصحبهُ اينما سار فيطرد الاسوجيين الذين كانوا يعيثون فيها وكان ملكهم كارلوس يتوغل في بولونيا

وفي شهر تموز (جوليه) كان القتال واقعاً بين الفريقين برًّا وبحرًا في جهة اقليم ليفونيا واقليمي انغريا واسثونيا وبلغ بطرس ان احد الاساطيل الاسوجية تعين لتخريب سواحل اقليم اركنجل فقصد ذاك الاقليم بغتة ولم يشعر اهلهُ الاَّ وهو على شواطيء البحر المتجمد وقد تعجب الناس حين بلغهم انهُ حضر الى تلك الجهة حيث كانوا يعتقدون انهُ سار الى مدينة موسكو · واخذ يسعى بما يقي ذاك الاقليم وتحصينهِ وسلك مسلك الحزم والتبصر فرسم بنفسهِ صورة قلعة دونيا الجديدة ووضع اول حجر من

اساسها واقام البناء فيها بعجلة وعاد من هناك الى موسكو ومنها الى ميادين الحرب . ومن ثم سار شرمتوف متأثراً اسليبنباخ القائد الاسوجي فالتقى بهِ عند نهر صغير بالقرب من ابناخ فاطلق المدافع عليهِ والتحم بين الروسيين والاسوجيين قتال عظيم كان النصر بهِ اخيراً للروسيين فانهزم اسليبنباخ من وجه شرمتوف تاركاً لهُ ١٦ راية و ٣٠ مدفعاً وكثيراً من المهمات والذخائر وقصد قلعة نوتبورغ

واما شرمتوف فانهُ توغل في الفتوحات وجعل يضرب على كل محل افتتحهُ مغارم جسيمة وتغلب على مرينبورغ وهي مدينة صغيرة على حدود اقليمي ليفونيا وانغريا ولما كانت قد سلمت بدون مشارطة اضرم الاسوجيون النيران في مخازنها فحنق من ذلك الروس واحرقوا المدينة برمتها واستاسروا كل سكان المدينة رجالاً ونساءً وكان من جملة الاسرى بنت كان قد رباها قسيس وهي كاترينا الشهيرة التي رفعت الى اعلى درجات المجد فصارت زوجة لبطرس وملكت بعدهُ البلاد الروسية تحت اسم الامبراطورة كاترينا وان كان قد رفع الى درجات الملك كثيرات من النساء اللاتي حكمن على شعوب وامم الاَّ انهنَّ كن من اصل عالٍ ومن زوجات الملوك وبناتهنَّ بخلاف

كاترينا التي نالت بالفضيلة والذكاء والحزم والجمال ما نالتهُ وسناتي على تاريخها في غير هذا المكان من هذا الكتاب ان شاء الله

ثم ان الروس بقوا باقليم انغريا على الظفر والنجاح وقد سار الاسطول الاسوجي من وجه الاسطول الروسي الى مريبورغ وهي مدينة بطرف بجيرة لادوغا فراى الاسوجيون الذين عليها ان الروسيين حاصروا قلعة فوتبورغ وكان بطرس قد امر الجنرال شرمتوف بهذه المحاصرة املاً بالاستيلاء على تلك القلعة من ان يصير لهُ بواسطتها صلة وعلاقة ببحر البلطيك . واما القلعة فكانت حصينة متينة مبنية في جزيرة ببحيرة لادوغا وبحسب وضعها الطبيعي كانت مشرفة على البحيرة ولهذا كان لصاحبها الصولة على مجرى نهر نيفا الذي يصب في بحر بلطيك . واقام الروسيون على حصارها الليل والنهار من ١٨ ايلول (سبتمبر) الى اخر شهر تشرين الاول (اكتوبر) وهم يطلقون عليها المدافع من كل جهاتها ويضايقونها كل المضايقة حتى توصلوا اخيرًا الى اسوارها وثقبوا جدرانها ثلاثة ثقوب وتسلقوها وذلك بعد ان قلَّ عدد الحامية ولم يبقَ منهم الاَّ نحو مائة رجل فقط ومع ذلك وقف هذا العدد القليل في الثقوب المذكورة ودافع دفاعًا

عظيمًا ليمنع دخول الروسيين منها وكان اسليبنباخ فيها فوعد
الروس بتسليم القلعة بشرط انهُ يحضر ضابطين من ضباط
الاسوجيين يريهما الثقوب المذكورة ليخبرا بها كارلوس ويخبراه ايضاً
ان الجيش الباقي في القلعة نقص الى حد ٨٢ نفرًا وان الباقين
ليس في وسعهم الثبات والدفاع وانهُ يتعذر عليهم منع الروسيين
فاجابوهم الى ذلك واحضر ضابطان من اقرب مكان الى تلك
القلعة وشاهدا ما تقدم ذكرهُ وبعد ذلك دخل الروسيون
القلعة

ولما راى بطرس نجاح جيوشهِ في كل الجهات اتحف
المستحقين منهم بنياشين الفخار من الذهب والفضة دلالة على
الشرف وعلى اهلية حامليها وثباتهم في مواقف الحرب كما انهُ
عاقب الجبناء منهم والكسالى الذين هربوا عند الحملة والهجوم
وامر رفاقهم ان يصفقوا على وجوههم ويهينوهم بكل اهانة واحتقار
تاديبًا لهم ولغيرهم . ثم اخذ في اصلاح قلعة نوتبورغ وترميمها وسماها
شلوسلبرغ اي مدينة المفتاح لاقليمي انغريا وفنلندة واقام عليها
واليًا منزيكوف احد مشاهير قواده

وبعد ذلك راى بطرس وجوب رجوعهِ الى موسكو وقيامهِ
على الراحة عدة اشهر وزيادة قواه الحربيــة برًّا وبحرًا فامر

شرمتوف وجميع القواد الحائزين الفخار ان يدخلوا موسكو بالصفة الرسمية وعليهم سمات الفخار وان يمشي خلفهم الاسارى وامامهم اعلام اسوج التي ربحوها اثناء الحرب وكذلك علم البارجة التي اكتسبوها في بحيرة بيبوس . وباشر بنفسهِ ترتيب هذا الموكب ليكون دخولهُ ذا رونق وتاثير حسن في مدينة موسكو وعند دخولهم المدينة لاقاهم الاهالي باحتفال عظيم حاملين على عواتقهم الزهور والاشجار الخضراء . ومثل هذا الاحتفال مما يستدعي التنافس والعظمة غير ان كارلوس الثاني عشر كان يحتقر ذلك ولا يعبأ بهِ وكان منذ واقعة نروا ينظر الى اعدائهِ بعين الازدراء والاحتقار يستصغر بسالتهم ويحتقر مواكبهم

الفصل الثالث عشر

في ذكر ما وقع بمدينة موسكو من التغيير وما اسسهُ بطرس
من بناء مدينة بطرسبرج اي مدينتهِ واستيلائهِ
اخيرًا على مدينة نروا

ولما كان بطرس يكره البطالة وتضييع الاوقات بدون الاتيان بجدوى ومنفعة للبلاد اراد بمدة اقامتهِ هذه في موسكو

ان يشتغل بما يعود عليهِ وعلى بلادهِ بالنفع العميم فاحدث تغييرًا عظيمًا بالقوانين والنظامات ولما كان يرغب في ترك كل العوائد القديمة وفصلها عن بلادهِ ويريد ان يذيق رعيتهُ لذة العيش وراحة الحياة والحرية في كل الانواع مع المحافظة على الشرف والناموس راى ان لا بد لهُ من اظهار تلك العوائد او بعضها لرجالهِ . فاعد وليمة فاخرة بداعي زواج احد اتباعهِ جمع اليها جميع امراء دولتهِ رجالاً ونساء وامرهم ان يلبسوا الملابس التي كان يلبسها اجدادهم فحضروا على هذا النمط وهم يستقبحون تلك الملابس وكان من العادة قبلاً ان لا توقد النار في ايام قيام الاعراس ولو وقعت في زمن البرد الشديد فجرى العمل على هذه العادة في تلك الوليمة وكان ايضًا اهل الاعصر السالفة لا يشربون النبيذ في مثل هذه الولائم بل شراب العسل ونحوهِ فامر بطرس بذلك ولما راوهُ مصرًّا على القيام بكل العوائد القديمة شكوا اليهِ ثقلها فاجابهم متهكمًا ان هذه العوائد هي عوائد اسلافكم ومن اللازم اتباعها . فكان عملهُ هذا وما شاكلهُ سببًا كبيرًا لازالة الشكوك من الذين كانوا يرغبون في التمسك بالعوائد القديمة لدى مشاهدتهم حسن العوائد الجديدة والاصطلاحات المألوفة التي كان العقل يفضلها ويميل اليها

ومما احدثهُ بطرس في تلك المدة دار الطباعة وهي من انفع الاشياء التي جاء بها لتهذيب قومهِ وتمدنهم وقد صبَّ لها احرفًا روسية ولاتينية واحضر كل ما يحتاج اليهِ من ادواتها والاتها من بلاد الفلمنك وجاء ببعض كتب حكمية وفنية وادبية من لغات اجنبية ودفعها الى مترجمين يترجمونها الى اللغة الروسية وانشأ المدارس لعلم الهندسة والهيئة وغيرها من العلوم وانشأ مستشفى كبيرًا جعلهُ على منوال ما راه في مدينة امستردام من المستشفيات بحيث لا يبقى من فيهِ من الشيوخ والشبان على البطالة بل يشتغلون بما فيهِ المنفعة بحسب مقدرتهم وفوق كل ذلك اقام عدة ابنية كبيرة راى ان المدينة في حاجة اليها . وفي اثناء ذلك كان قد ذهب الى مدينة ويرونيزة وامر فيها بصنع سفينتين محمول الواحدة ثمانون مدفعًا ويكون بهما صناديق مستطيلة محكمة القفل توضع تحتهما ترفعهما عن تلال الرمل المتجمعة عند شواطيء بحر ازوف ولا تكون عرضة للاخطار عند المرور من تلك الشواطي

وفي شهر اذار (مارس) ذهب ليعاين ما امر بانشائهِ من السفن في ترسانات مدينة اولمِنتز الواقعة بين بحيرتي لادوغا واونيغا وليرى معامل الاسلحة التي كان انشاها في تلك الناحيه

وبعد ان صرف عدة ايام في تلك المدينة سار الى قلعة شلوسلبورغ لاجل تحصينها وحصنها بنفسهِ بكل ما راها محتاجة اليهِ . وكان بالقرب من بحيرة لادوغا قلعة عظيمة مهمة تدعى قلعة نياز اونيا قريبة من نهر نيفا فراى بطرس ان لا بد لهُ من الاستيلاء عليها ليتمكن من استمرار فتوحاتهِ وانجاز اغراضهِ فسار بنفسهِ وحاصرها برًّا ومنع وصول المدد اليها بحرًا وهو اذ ذاك برتبة قائد مائة تحت رئاسة شرمتوف القائد العام وسير سفنًا مشحونة بالعساكر لطرد السفن الاسوجية التجارية والحربية . وفي ١٢ ايار (مايس) حفر شرمتوف خنادق توصل الى تلك القلعة فالتزمت التسليم . وصادف ان سفينتين من سفن اسوج رستا عليها بعد ذلك بقصد اسعافها فانقض عليهما بطرس واستأسرهما واستولى على ما بهما فجوزي على ذلك بان وجه اليهِ من قبل قائده نشان الافتخار الملقب (نشان ماري اندراوس) وبعد استيلائهِ على هذه القلعة عزم على بناء مدينتهِ التي سماها باسمهِ وهي مدينة بطرسبرج على مصب نهر نيفا عند خليج فنلندة . وقد وضع اساسها في فضاء تلك الارض السبخة تتصل بالبر من طريق واحد والاساس الاول الذي وضعهُ هو على ستين درجة من العرض واربع واربعين ونصف من الطول وهو من حجارة

بعض ابراج قلعة نياز وكان في الاول لا يخشى الاسوجيون امراً من بناء هذه المدينة كونها واقعة على بحيرة لا يمكن للسفن الكبيرة ان ترسو فيها ولا تصوروا انها تتقدم وتزيد عماراً ونجاحاً لكنهم بعد قليل راوا ان الاستحكامات الروسية قد تقدمت وتزايدت وان المدينة تجددت وتكاملت وان جزيرة كرونسلوت الصغيرة الواقعة تجاه المدينة صارت في سنة ١٧٠٤ قلعة حصينة لا يمكن الاستيلاء عليها وان الاساطيل العظيمة الراسية عندها لا يخشى عليها من العدو حيث ان مدافع القلعة تمانع عنها وتحميها

واحضر بطرس من موسكو واستراخان وكازان واوكرينا ارباب حرف وصنائع ليقيموا في مدينتهِ الجديدة ولم تفتر همهُ قط عن عمل يلوح في ذهنهِ ولا ضعفت همتهُ بما راهُ من صعوبة العمل في ذاك المشروع لصعوبة البناء في تلك الارض الرطبة وتسويتها ودكها لتتصلب وتصلح للبناء ولاراى في صعوبة البعد الواقع بين مدينتهِ وبين المدن التي تلزمهُ منها المساعدات والات العمل ونحوها ولا قلت رغبتهُ بسبب الامراض الوبائية التي اهلكت جانباً عظيماً من الفعلة والبنائين حتى انهُ بمدة خمسة اشهر انشأَ مدينة بموقع حسن وان لم يكن ما انشاهُ بها الا بعض بيوت صغيرة وابنية ليست بذات اهميه تذكر لكنهُ

كان قد خططها تخطيطاً كافياً كفل لها النجاح في المستقبل
فاخذت تنمو وتزيد وتعمر بالتدريج وتداول الايام . وبعد مضي
خمسة الاشهر المذكورة حضرت الى تلك المدينة سفينة تجارية
فلمنكية بقصد الاتجار معها فكافأ بطرس رئيس تلك السفينة
بالارباح الباهظة والانعامات الغزيرة ومن بعد ذلك جعلت
السفن الفلمنكية تاتي تلك المدينة وتعود منها بالارباح حتى
اتخذت تلك الطريق ديدنها . وكان يهتم بنفسهِ بجميع الذين
كانوا يقصدون تلك المدينة ويرغبون بالسكنى فيها ويجتهد
بتامينهم وراحتهم . وبلغهُ مجيء قائد اسوجي الى تلك المدينة
بفرقة من الاسوجيين بقصد الايقاع بها وهدمها فاسرع اليهِ بفرقتين
صغيرتين من حرسهِ الخاص وهزم القائد المذكور وارجعهُ بالخيبة
والزمهُ اجتياز النهر والجلاء عن تلك الارض ولما اطمأن
بالهُ على مدينة أولينتز امر بانشاء عدة سفن صغيرة فيها وعاد
من هناك ثانياً الى بطرسبرج ومعهُ ست سفن من سفن النقل
وهو ينتظر الفراغ من الباقي

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ارسل لاوغسطوس
ملك بولونيا اثني عشر الفاً من عساكره لمعاونتهِ وثلثمائة الف
روبل من خزينتهِ التي كان يجلب اليها الاموال من الرعايا

بالطرق القانونية ويصرفها في سبيل نافع وفي حروبهِ وانشاءاتهِ وتحصين قلاعهِ ومصاريف جيوشهِ وقد حصن بوقت واحد اقاليم نوفغورود وبلسكو وكياف وسمولنسك وبحر ازوف وارككجل واسس مدينة بطرسبرج وفوق كل ذلك قدر ان يمد حليفهُ وخصيصهُ اوغسطوس ومن ثم وجد نفسهُ انهُ مضطر لحفظ مدينتهِ من الاعداء على الدوام فذهب الى البحر وسبر عمقهُ وعين فيهِ محلاً لبناء قلعة اي انهُ وضع رسمها من الخشب وعهد بمناظرة بنائها على الرسم المذكور الى منزيكوف وهي قلعة كروسلوت . ومن ثم عاد في نفس هذا الشهر الى موسكو ليصرف مدة الشتاء فيها وكان مدة اقامتهِ هناك صارفاً كل عنايتهِ بالحث على تكميل ما امر بانشائهِ على نهر ويرونيرة وفي مدينة ازوف بوجه السرعة وكذلك ما امر بانشائهِ في احدى مرافئ البحر المذكور تحت قلعة نغانروك . فلحق الدولة العلية غيظ من ذلك وبعثت بسفير مخصوص تستفيد عن سبب اقامة هذه الاستحكامات والتجهيزات فاجاب انهُ يسعى باصلاح بلاده كما يسعى حضرة السلطان ويتصرف بقلاعهِ كما يشاء وان عملهُ لا يخلُّ بشروط الصلح ولا يعد نقضاً للعهود قطعاً

وفي ٣٠ اذار (مارس) من سنة ١٧٠٤ رجع بطرس الى

مدينة بطرسبرج وتفقد قلعة كرونسلوت التي كان قد امر بانشائها وكان قد تم بناؤها وتكاملت فحصنها بالمدافع وكانت مقتضيات الاحوال وقتئذٍ تستدعي أن يستولي على مدينة ىرول ليتقوى في اقليم انغريا وليعيد ما لحق بهِ من الخزي والعار امام تلك المدينة فاخذ بتجهيز مواد المحاصرة واعداد ما يحتاجهُ في مثل هذه الحرب وفي تلك الاثناء ظهر ببحيرة بيبوس اسطول اسوجي حضر بقصد تعطيل مشروعاتهِ ومآربهِ فارسل اسطولاً روسياً فحاربهُ وعطلهُ واستولى عليهِ بتمامهِ وكان فيهِ من المدافع ٨٩٠ مدفعاً ومن ثم رحل الى حصار ىرول بالعساكر والجنود وشدد عليها الحصار بنفسهِ براً وبحراً وحاصر ايضاً مدينة دربت باقليم اسثونيا وبقي بطرس يلاحظ بنفسهِ حصار هاتين المدينتين وهو يتردد بينهما سائراً من الواحدة الى الاخرى متفقداً احوال الحصار ومباشراً الحرب بذاتهِ قائماً في مرامي المدافع التي كانت تطلق على جيوشهِ من الاعداء غير مبالٍ بالاخطار ومراراً كثيرة خرج من وسط المعامع ودخان البارود يسوّد وجههُ ويغير من هيئتهِ

وكان الاسوجيون ينتظرون اسعاف الجنرال اسليبنباخ الذي كان بالقرب من مدينة دربت بالفين وخمسمائة اسوجي

غيران بطرس راى ان اتخاذ حيلة حربية في مثل هذه الظروف ترفع عن جيوشهِ ثقلاً عظيماً لدى حصاره نروا وذلك انهُ لما علم بانتظار الاسوجيين للقائد اسليبنباخ وانهم يعلقون كبير امل بهِ امران يلبس فرقتان من الفرسان وفرقة من المشاة الملابس الاسوجية ويرفعوا الالوية الاسوجية ويرجعوا في الليل وعند الصباح يهجموا هجمات الاسوجيين بحيث لا يظن الا انهم نجدة اسوجية جاءت بقصد خلاص المدينة وعندا الصباح ظهرت هذه العساكر بالمظاهر الاسوجية وحاربت الفرق المحاصرة فانهزمت امامها وبعدت عن المدينة فاغترَّ محافظو المدينة بهذه الاعمال وظنوا ان الجنرال اسليبنباخ قد جاء لاسعافهم وفي الحال فتحوا ابواب المدينة وخرجوا منها وفي معتقدهم ان الهازمين هم من قومهم ولما صاروا خارج البلد والقلاع انقض عليهم الهازمون والمهزومون وضربوهم وبددوا شملهم ومنعوهم من الرجوع الى المدينة ودخلوها عنوة وافتتحوها وتم لهم النصر فيها وبوقت قريب ارجع بطرس السلطة التي كان قد خسرها لدى تلك المدينة الشهيرة وبسبب افتتاحهِ نروا اضطرت مدينة دربت الى التسليم وعامل بطرس اهالي مدينة نروا معاملة حسنة حتى جبرهم الى الميل اليهِ وحبهِ وتفضيلهِ على سواه٠ وقد

طاف بنفسهِ في سائر جهاتها يمنع عساكره من سفك الدماء وسلب الاموال واسترجع النساء من ايدي السابين وقتل من قومهِ رجلين كانا قد اظهرا الغيظ من فوات غنائمهما من ايديهما واخذ سيفهُ ملوثًا بالدم ودخل دار الحكومة وقد اجتمع اليها جم غفير من الاهالي ووضع السيف على مائدة هناك وقال مشيرا الى الدم الذي لطخهُ ليس هذا الدم من دمائكم بل من دم عساكري سفكتهُ حقنًا لدمائكم وانقاذًا لمهجكم وصونًا لعرضكم

وبينما كان بطرس يعمل مثل هذه الاعمال ويجهد نفسهُ باكتساب البلدان والمدن وضمها الى بلاده كان كارلوس متخليًا عن بلاده وغائصًا في بولونيا جاهدًا نفسهُ في اذلال اوغسطوس واقامة ملك عوضًا عنهُ ولم تات العساكر الروسية التي بعثها بطرس بمنفعة اغاثة اوغسطوس وانقاذه من مضطهديهِ لان قسماً كبيرًا من الاهالي كان قائمًا عليهِ وكارلوس يجهد نفسهُ في اسقاطهِ وطرده من ملكهِ وفي اواخر شهر تموز (جوليه) انهزمت عساكر الروس في بولونيا امام الجنرال لوفنهوب الاسوجي وتاخرت احزاب اوغسطوس في كل الجهات حتى اوجبهُ كارلوس اخيرًا الى التخلي وترك البلاد وبهذا السبب انتخب ملكًا على بولونيا عوضًا عنهُ استانسلاس لكزنسكي حيث تخلى لهُ عن قسم

كبير من بولونيا وبذلك سقط حليف بطرس من تلك المملكة واقيم حليف الملك الاسوجي عليها غير ان بطرس لم يترك حليفهُ بل كان مصرًّا على امد ده وارجاعهِ عند خلو بالهِ وبينما كان كارلوس مهتماً بمثل هذا الامر وبتولية ملك على بولونيا كان بطرس يفتح في بلاده ويستولي على املاكهِ ويضمها الى المملكة الروسية

الفصل الرابع عشر

في ارتقاء منزيكوف وعدة حوادث وقعت من الروس والاسوجيين ونحوها في بولونيا

لما استقرَّ اقليم انغريا بتمامهِ تحت الحكومة الروسية وصار بموجب فتوحات بطرس لهُ من املاكهِ ولى عليهِ منزيكوف تحت لقب امير انغريا وعهد اليهِ برئاسة الجيوش فيهِ ايضًا ولم ينظر بطرس في ذلك الى تنديد المنددين بهذا المعنى من ان منزيكوف لم يكن من عائلة شريفة ولا من امراء البلاد بل نظر الى استحقاقهِ ولياقتهِ واختباره اياه في كل اجراءاتهِ . وكان منزيكوف هذا في بداية عمره ابن حلواني يبيع المعجنات فصادفتهُ

العناية وخدمتهُ السعادة فترك هذه الحرفة ودخل في خدمة بطرس واجتهد بجد وتعلم عدة لغات وتمرَّن على الامور الملكية والعسكرية وكان يلاحظ على الدوام الوجه الذي يسر منهُ سيده فيسعى اليهِ ويجتهد فيهِ طمعاً برضاتهِ ورأى بطرس حسن ادارتهِ وسعة معارفهِ وذكائهِ العجيب فجعل يدرجهُ في سلم المعالي الى ان جعلهُ اخيراً جنرالاً ثم حاكماً ثم اميراً ضارباً صفحاً عن عوائد بلادهِ من ان لا يرتقي المناصب الا ذوو الشرف وبهذه الطريقة كان يعلمهم الجد والسعي خلف المعالي بحيث لا يتكل الانسان على شرف ورثهُ من ابيهِ بل يتكل على استحقاق وجد فيهِ . ومن ثم بعث بامداد جديد وقدره ستة آلاف من الفرسان لوقاية اوغسطوس وامرهم ان يسيروا امامهُ الى لوثيانيا من بولونيا وكان قائدهم الجنرال روبنين . ورجع الى بطرسبرج حيث كانت موضوع اهتمامهِ فوجدها قد زهت وازهرت وامتلأت من السكان فزاد حبوراً وعرف بمستقبل هذه المدينة واهميتها بين العالم وما يكون لها من التاريخ نظراً لموافقة مركزها وجودة مناخها . ثم ذهب في شهر تشرين الاول (اكتوبر) الى ترسانات اولنتز لاتمام ما كان يصنع بها من السفن والبوارج وكان كلما دخل مدينة موسكو يدخلها باحتفال وعظمة فدخلها واقام فيها ينتظر

نزول اول سفينة من ذوات الثمانين مدفعًا الى البحر ويشاهد جولانها في المياه وهي التي كان امر بمدها في السنة الماضية مع بارجة ثانية مثلها على شط فيرونبزة

ولما جاء الوقت المناسب لقيام الحرب في مملكة بولونيا في سنة ١٧٠٥ ذهب بطرس الى الجيش الذي كان بعثهُ الى اوغسطوس على حدود لوثيانيا قاصدًا اعانة حليفهِ بنفسهِ وبعد مسيرهِ جاء اسطولٌ اسوجي بقصد هدم مدينة بطرسبرج وقلعة كرونسلوت وهي مركبة من ٢٢ سفينة محمول كل منها ٥٤ مدفعًا و٦ سفن كبيرة وحراقتين (الحراقة سفينة مملوءة بالمواد النارية لاجل حرق المراكب كانت تستعمل قديمًا) وتلك السفن مملوءَة من العساكر الاسوجية . وحال وصولها الى قرب البر راها امير الاي روسي يقال لهُ تولبوغان فامر الفرقة التي معهُ ان تلصق الارض ببطونها وتخفي نفسها فلا تظهر قط ففعلت وصبرت الى ان خرجت عساكر الاسوجيين من السفن الى الجزيرة وحينئذٍ نهضت بامر قائدها ورمت الاسوجيين بنيران شديدة اصابت منهم كثيرًا وانهزم الباقون واضطروا في ١٧ تموز (جوليه) الى العود والدخول في سفنهم تاركين قتلاهم و ثلثمائة اسير منهم ومع ذلك بقي الاسطول المذكور يتهدد بطرسبرج وخرج

الاسوجيون من السفن منها ثانيةً فجبروا الى الرجوع مهزومين امام الروس وجاءت فرقة اخرى اسوجية تحت امرة قائد اسوجي اسمهُ ميدل قاصدة قلعة شلوسلبورغ فصادفت فشلاً و بالاختصار انهُ في الخامس والعشرين من ذالك الشهر طرد الاسوجيون وانهزموا هزيمة كاملة و بعدوا عن بطرسبرج بعدًا شاسعًا فاصبحت امنة مطمئنة

واما كارلوس الثاني عشر فانهُ كان لا يزال في بولونيا مشتغلاً بحمل تلك المملكة على الانقياد والطاعة والاذعان للملك الجديد الذي ولاه عليهم وهو استانسلاس وبينما كان بطرس في مدينة ويلنا من اقليم لوثيانيا كان شرموتوف القائد العام على مدينة ميتو قاعدة اقليم كورلندة وقد قدم عليها لافتتاحها وفيها الجنرال لوفنهوب الاسوجي الذي حاز الشهرة في جملة وقائع وكانت واقعة عظيمة بين هذين الجنرالين الشهيرين في مكان يقال لهُ جيماروس و بعد وقائع هائلة انكسرت الجيوش الروسية وانهزمت امام الاسوجيين الذين كانوا اقل عددًا منهم وتركوا كل مدافعهم غنيمة للاسوجيين وهذه الواقعة هي احدى الوقائع الثلاث التي انكسرت فيها عساكر بطرس الاكبر امام الاعداء والثانية واقعة جاكوبستادك والثالثة واقعة نروا وفي هذه الوقائع

الثلاث استرجع بطرس شرفهُ واعاد النصر اليهِ وجبر الخلل الذي لحق بهِ ما عدا واقعة نهر البروث مع الدولة العلية العثمانية فانهُ اضطر الى التاخر وان يتخلى لها عن عدة مرافئ ومدن من بلاده دون ان يقدر هو بنفسهِ ان يسترجعها كما ياتي ذلك معنا في ما ياتي

وبلغ بطرس وهو في ويلنا خبر هذه الوقعة فسار في ١٤ ايلول (سبتمبر) بجيوشهِ الى اقليم كورلندة وعند وصولهِ الى مدينة ميتوضربها وتغلب عليها بعد محاصرتها وفتح قلعتها وانعقدت بينهُ وبين اهلها شروط ومعاهدات تأول الى راحتهم وامنهم . وكان قد شاع خبر تاخر جيوشهِ في واقعة جيماروس فاضطربت بلاده بسبب ذلك وترتب عليهِ ان اغتنم الفرصة بقايا الاسترليتش الذين كانت الحوادث قد اخفتهم في البلاد والقتهم في زوايا النسيان والاهمال وهم في مدينة استراخان وتجاسروا على العصيان والخروج عن الطاعة وقتلوا حاكم تلك المدينة فالتزم بطرس ان يبعث اليهم بالقائد العام وهو شرمتوف ليقمعهم ويعيدهم الى الطاعة ويعاقبهم على هذا العصيان

ومع ان بطرس كان اذ ذاك واقعًا بين صعوبات جمة كان لا يبالي بها مهما كانت عظيمة ومهمة فكان ينظر الى حظ كارلوس في بولونيا وفوزه والى انحطاط شان حليفهِ اوغسطوس

وما احيق بهِ من المصائب والنكبات والى امتناع مملكة الدانمرك عن المداخلة بهذه الحرب والى خروج قدماء الاستزليتش عن الطاعة وضجر الاهالي من الحالة التي اوصلهم اليها والمصاعب التي القاهم فيها بدوام الحرب والتضييق على شبانهم بالتمرينات العسكرية وصرف اموال الخزينة فيها نظر المتاثر وينتظر لتلك الحال نهاية حسنة الا انهُ ما مرّ عليهِ قليل ايام حتى قمعت شوكة الاستزليتش واعيدت الراحة الى استراخان وتمكن من فتح ميتو وامكنهُ ان يمر باقليمي سموتشتا ولوثيانيا واصبح يقاسم كارلوس فخار الاستيلاء على مملكة بولونيا وقد توغل في تلك الجهة حتى وصل الى نيكوكزين ورأى فيها ثانيًا الملك اوغسطوس صديقهُ فسلاه على مصابهِ ووعدهُ بالانتقام لهُ من عدوه واهداهُ بعض الوية اغتنمها من خصمهِ . ثم ذهب واياه الى مدينة غردون قاعدة اقليم لوثيانيا ومكث بها الى اليوم الاخير من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) واذ ذاك قصد بطرس الرجوع الى موسكو فترك لحليفهِ مبلغًا من النقود وفرقًا من العساكر وودعهُ قاصدًا موسكو ليقيم بها عدة اشهر لاجل ملاحظة الفنون والانشاءات التي كان لا يرغب في تضييعها والالتهاء عنها بما يلاقيهِ من الحروب والوقائع وبذلك كان جامعًا بين الهمتين بوقت واحد همة منصرفة الى ترقي البلاد

وازدياد الحرف والمعارف فيها وهمة تجول في المواقع الحربية من مكان الى اخر لتصون الجيوش الروسية من اعدائها وترفع لها الراية الاولى بين رايات الدول المتمدنة

الفصل الخامس عشر

في

تاخر بطرس ببعض مواقع في بولونيا وانقياد اوغسطوس لاوامر كارلوس وتسليمه بطقول سنير روسيا في بولونيا والحكم عليه بعقاب العجلات

وبعد ان اقام بطرس في موسكو مدة ايام بلغهُ ان كارلوس الثاني عشر قد احرز النصر في اكثر الجهات وقصد مدينة غردون وهي التي ترك فيها اغسطوس لاجل قتال الجيوش الاسوجية المقيمة هناك وان اوغسطس اضطرَّ الى الهرب من تلك المدينة ملتجئًا الى حكومة سكس محاطًا باربع فرق روسية فرسانًا ورجالاً . فاسرع من موسكو الى غردون بقصد اعانة اوغسطس وخلاص جيوشهِ فوجد ان كل طرقها مشغلة بالعساكر الاسوجية ورأى ايضًا ان جيوشهُ قد تبددت وتشتتت

وذلك في سنة ١٧٠٦ فالتزم بطرس أن يقيم في اقليم لوثيانيا لجمع جيوشهِ ولم شعثها

وكان قد قدم الجنرال ستلمبرغ الشهير ومعهُ ١٢ الفًا من مملكة سكس و٦ آلاف من الروسيين لاعانة اوغسطس وقتال عدوهِ كارلوس الثاني عشر الذي لم يكن معهُ اواتئذٍ من العساكر الا عشرة الاف فقط تحت قيادة الجنرال رانشليد ورأى انهم ربما منعوهُ عن السير فتوجه آمنًا مطمئنًا عن حدود سليزيا وهي طريق اقليم سكس من جهة لهستان العليا ولما قرب من فرستاد وهي قرية عند ضواحي بولونيا وجد الجنرال رانشليد قد قدم لقتالهِ وكان مع الجيوش السكسونية فرقة من العساكر الفرنسوية كانت قد اسرت في واقعة اوشسيتيت الشهيرة وأكرهت على الدخول في الخدمة العسكرية بين الجيوش السكسونية وقد انيطت في هذه الحرب بمحافظة المدافع ومهمات الطوبجية وحال وقوع القتال القت السلاح بمجرد رؤية الاسوجيين وطلبت الانضمام اليهم فقبلوهم وقاتلوا معهم حتى نهاية الحرب وذلك كان من الاسباب التي اوجبت هزيمة الروسيين شر هزيمة وكان الفارون باجمعهم جرحى ما عدا الذين قتلوا . وقد زعم المورخ نوربورغ وهو من القسوس ان

الاسوجيين قد نجوا الروسيين واوقعوا بهم وذكر بطرس في بعض اعلاناتهِ ان كثيرًا من اسرى موسكو والقوزاق والكلموك نجوا بعد الواقعة بثلثة ايام ولم يحصل مثل ذلك في اعصار البرابرة . واحرز كارلوس عدة نصرات على الجيوش الروسية في قتالهِ معهم باراضي بولونيا وكانت الجيوش الروسية في مدينة غردون على خطر عظيم حيث كانت عرضة لان يحتاط بها العدو من سائر الجهات ورأى من مقتضيات الاحوال التبصر بامرين مهمين في آن واحد وهما التبصر في امر تلك الجيوش وانتشالها من الخطر وتمكين فتوحاتهِ باقليم انغريا . فسير العساكر تحت قيادة منزيكوف الى جهة المشرق ومنها الى الشمال حتى وصلت الى اقليم كياف . وفي اثناء سير تلك العساكر ذهب بطرس في شهر آب (اوغسطوس) الى قلعة شلوسلبورغ ثم الى نرول ومنها الى بطرسبرج الحديثة العمران لتثبيت الامن فيها جميعها ثم ذهب الى سواحل بحر البلطيك ومنها الى سواحل نهر الدنيبر ليدخل الى بولونيا من اقليم كياف وقصد بذلك جعل نصرات كارلوس الثاني عشر عديمة الجدوى وليزيد فتوحاتهِ في اقليم كارليا فذهب الى ويبورغ قاعدة الاقليم المذكور على خليج فنلندة وحال وصولهِ اليها استولى عليها وتوغل في جهاتها

ولذلك كان لا يرغب في تضييع الوقت والقتال بدون الحصول على جدوى بخلاف خصمهِ كارلوس الذي كان جل غايتهِ اذلال اوغسطوس وتتبع اثاره في اقليم سكس واسترجاع اقليم انغربا الذي كان تغلب عليهِ خصمهُ بطرس الكبير فدوّخ اكثر بولونيا وسطا على عدة محلات كان الروسيون فيها فطردهم منها ونشر الخوف والقى الرعب في قلوب سكان لهستان العليا وسيليزيا وسكس فاضطرّ اوغسطوس الى ابعاد عائلتهِ عن البلاد واقامتها تحت حماية الامبراطورية النمسوية وهي امهُ وروجتهُ وولدهُ وتبعهم كثير من عيال مشاهير بولونيا واخيرًا راى اوغسطوس ان يذل لكارلوس ويطلب منهُ الصلح والامان وفضل ذلك على المسير الى بطرس والاطمئنان تحت لوائهِ وعند ما خطر في خاطره هذا الامر ارسل مخابر كارلوس بهِ وبسبب هذه المخابرة عقد معهُ شروطًا مهينة كان من جملتها انهُ تخلى عن تاج مملكة بولونيا وان لا يلقب فيما بعد بلقب ملك وان يذعن لاستانسلاس ويعترف لهُ بالمنصب الملكي وان يترك تمسكهُ بالامبراطور الروسي حليفهِ وان يسلم اليهِ بطقول سفير بطرس وقائد العساكر التي كانت تقاتل عنهُ وتدافع في سبيل صوالحهِ والمحاماة عن تاجهِ

وعقد هذه المشارطة سرًّا دون ان يدع احدًا من قواد الروس يعلم بها او يطلع عليها وقبض على بطقول ناسبًا اليهِ بعض تهم كاذبة وادعاءات لاطائل تحتها ولهذا السبب لحق بهِ من الخزي والعار ما لا يمحى بكرور السنين والاجيال وكان الاولى بهِ ان يسلم بنفسهِ للموت فيقضي عليهِ شريفًا من ان يترك تاجهُ وحريتهُ الشخصية ولا سيما انهُ واقع في خطر اعظم اذ ان الامير منزيكوف كان قادرًا على مسكهِ واسره اكثر مما كان كارلوس قادرًا على الانتقام منهُ وإيصال الاذى اليهِ كون منزيكوف كان في مدينه بوستانيا وكان امامهُ جيش اسوجي وبعض جيوش من جيوش بولونيا من احزاب الملك الجديد منضمة اليهِ وحيث كان منزيكوف لا يعرف بتلك المعاهدة اطلع اوغسطوس ان في نيتهِ الحمل على ذلك الجيش فلم يعترض عليهِ ولا وسعهُ المخالفة خوفًا من افتضاح الامر فحمل الامير منزيكوف بالجنود الروسية في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) بالقرب من مدينة كاليس وهي موطن استانسلاس فانتصر الروسيون في هذه الوقعة انتصارًا كاملاً وحاز الامير منزيكو بسببها الشهرة العظيمة وقد قتل من الاسوجيين ٤٠٨٥ نفسًا وعوض ان يتخذ اونسطوس هذه النصرة وسيلة لنقض تلك المعاهدة

التي لم تنفذ بعد بقي مصرًّا على عملهِ لان كارلوس الذي كان وقتئذٍ في بلادسكس كانت تخاف صولتهُ ويخشى باسهُ وبمجرد ذكر اسمهِ تنطبع الهيبة والرهبة في القلوب حتى افضى ذلك بالناس الى عدم التعويل على ما حصل بمعاونة الروسيين من الظفر والنجاح وكان الحزب البولوني المتحزب على اوغسطوس قوي الباس والشوكة ولم يكفِ اوغسطوس التوقيع على هذه المعاهدة المذلة بل بعث الى كارلوس بكتاب يظهر لهُ فيهِ ذلهُ وطاعتهُ ويطلب منهُ المسامحة والصفح ويعتذر عن معاندتهِ لهُ بقولهِ ان القتال في هذه الواقعة حصل قهرًا عني بالزام الروسيين والبولونيين الذين هم من حزبي ولو تخليت عن الجنرال منزيكوف وتسهل لي الهرب والبعد عنهُ لكان النصر للاسوجيين لا محالة ولا بد لي من ان ارد اسرى الاسوجيين وانقض معاهدة الروس وبالجملة فانا اسعى في ما يكون فيهِ رضاء خاطركم حسبما يليق بمقامكم . اه . وما ابدى هذا الاعتذار الذي هو اشد عارًا وخزيًا عليهِ من تلك المعاهدة الا لما راى ان كسر الاسوجيين هو جسارة كانت منهُ

وهذا الامر وان كان يستبعدهُ العقل الّا انهُ من الامور المحققة الثابتة فانك اذا تاملت هذا الضعف الواقع من اوغسطوس

مع عدهِ من ابطال ملوك اوربا رايت ان شجاعة العقل وجودة
القريحة هي افضل من الشجاعة الحربية وعليها المدار في حفظ
الممالك او ضياعها ورفعتها او انخفاضها. وزادت مصيبة اوغسطس
بامرين كمل بهما شقاؤهُ وسوءُ حظهِ وحصل بهما لكارلوس
الثاني عشر ما لا مزيد عليهِ من السعادة والاقبال احدهما الزامهُ
ان يكتب كتابًا الى استانسلاس يهنئهُ بالمنصب الملكي وثانيهما
وهو من افظع الامور تسليم بطقول الذي هو بمثابة سفير بطرس
وقائد في جيوشهِ ومن المقرر الثابت ان هذا السفير حال وصولهِ
الى كارلوس حكم عليه بعقاب العجلات حيًا وهو ان تمر فوقهُ
العجلات وهو ملقى على الارض الى ان يموت وكان ذلك في
شهر ايلول من سنة ١٧٠٧ . وليس في اوربا خاص ولا عام من
الممالك الى الرقيق الا وجزم ان هذه العقوبة هي من باب التوحش
والبربرة القاسية وكان ذنب هذا المسكين هو كونهُ طلب في
بداية امره مع مراعاة الادب وشروط الطاعة من ملك اسوج
حقوق وطنهِ وصالح بلادهِ ولما لم يصادف طلبهُ محلهُ وعومل
بالقساوة التجأ ان يكون دخيلاً على بطرس الكبير واتخذ وطنًا غير
وطنهِ ثم صار بعد ذلك سفيرًا ومدبرًا لجيوشهِ . وبهذا استحق
ان يحقن دمهُ ويعامل بغير ما عومل وان كان في تلك الاعصر

التي كان فيها مظهر الفخار ورونق الشرف يستر عيب الخشونة والقساوة بخلاف عصرنا هذا الذي بهِ يرى عيب الخشونة والقساوة يزيل الفخار ويذهب برونقهِ وبهجتهِ

الفصل السادس عشر
في
الاهتمام بانتخاب ملك ثالث لبولونيا غير اوغسطوس واستانسلاس وما كان من نصرة كارلوس وتقدمهِ في البلاد الروسية حتى سار الى جهة موسكو

وفي خلال سنة ١٧٠٧ كان الملك كارلوس ملك اسوج يجني ثمار النجاح ويتمتع بما حظي بهِ من النصر والفلاح بمدينة ألترنستاد بالقرب من مدينة ليبسيك وكان ياتي اليهِ على الدوام امراء الامبراطورية الالمانية البروتستان افواجًا افواجًا يهنئونهُ ويقدمون لهُ ما يجب من الاحترام ويدخلون تحت حمايتهِ وكذلك كان كثير من الملوك يرسلون اليهِ سفراء من قبلهم يهنئونهُ بفوزهِ الظاهري وجوزف امبراطور النمسا كان على الدوام يجاريهِ على مقاصدهِ . ولما راى بطرس هذه الحالة وعرف

مافعلهُ اوغسطوس من ترك محالفتهِ وتخليهِ عن كرسي بولونيا وان قسمًا من تلك المملكة يبايع استانسلاس اراد توجيه افكاره الى انتخاب ملك اخر غير الملكين وهما اوغسطوس واستانسلاس ولهذا السبب عقدت مشورة الديتة واجتمع مرخصو الدول وجرى فيما بينهم ذكر الانتخاب وجالوا طويلاً بهذا البحث وكان من جملة الذين ذكروا في هذه المشورة راغوتسكي الذي كان قد حكم عليهِ الامبراطور ليوبلد بالسجن في صغره ثم نازعهُ في كرسي المجر بعد ان سعى بانقاذ نفسهِ من الحبس وكاد يتم الانتخاب على هذا المنتخب غير ان بطرس كان لا يرضى الاَّ سيافيسكي وهو رئيس حزب ثالث في بولونيا لم يطع قط اوغسطوس ولا بايع استانسلاس بل كان منفردًا بحزبهِ وكان لهُ من القوة والنفوذ ما يكفي لان ياخذه بطرس حليفًا

وفي اثناء هذا الاضطراب والاختلاف الواقع طلب سفير روسيا من كارلوس الثاني عشران يسمح لهُ بالسعي بالصلح وترك السلاح كما هي العادة بين الدول المتحاربين . فاجابهُ كارلوس جواب العظمة والفخار بقولهِ . نعم اصالح بطرس لكن في نفس مدينة موسكو عند دخولي اليها منتصرًا . فلما بلغ بطرس الكبير كلام عدوهِ اجاب بالعبارة الاتية . ان اخي كارلوس اراد ان

يجعل نفسهُ الاسكندر (المكدوني) ولكن يبعد عليهِ ان يراني
دارا . ولما لم ينجح المتحببون وانفضوا بقيت العساكر الروسية في
بعض جهات من بولونيا و بطرس في مدينة غردون وكارلوس
ارتحل من مدينة الترنستاد من سكس على جيش يزيد عن ٤٥
الفًا ومرَّ في ٢٧ آب (اوغسطوس) بمدينة درسدن التي كان فيها
اوغسطوس ووزارهُ هناك ومن ثم مرَّ باقليم سيليزيا من مملكة بروسيا
ودخل وبولونيا وكان في اثناء مروره راه جماعة من الاهالي ملتجئون
الى بحيرات هناك فاثروا التعرُّض لهُ والزامهُ بدفع اجرة المرور
وكانوا لا يزيدون عن الستة الاف نفس فبعثوا اليهِ شيخًا منهم
عجيب المنظر لابسًا لباسًا ابيض يحمل قرابينتين لخطب خطبة
على كارلوس ولما كان ضعيف الصوت لم يسمع لهُ ولا فهم منهُ
فهمَّ الاسوجيون بقتلهِ وعلم ذلك جماعتهُ الفلاحون فأيسوا
ورجعوا الى محالهم وتسلحوا فالتزم الاسوجيون ان يقبضوا على كل
من راوه منهم والزموهم ان يخنق بعضهم بعضًا حتى بقي واحد
منهم الزموه ان يخنق نفسهُ واخيرًا احرقوا مساكنهم عن اخرها .
ثم ان كارلوس بقي سائرًا حتى صار بينهُ وبين مدينة غردون
عدة اميال فبلغهُ ان بطرس في تلك المدينة فاخذ ٨٠ من حرسهِ
وذهب بهم بغتة الى المدينة المذكورة وعلى ابوابها ضابط من

الضباط النمسويين يقال لهُ مولفليس رئيساً على فرقة من العساكر فلما راه تاكد ان جيوشهُ خلفهُ فلم يتعرض لهُ بل ترك لهُ باب المدينة وفي الحال انتشر فيها الخوف وظن الناس ان الجيش الاسوجي قد دخل برمتهِ واراد بعض الجيوش الروسية مقاومة الاسوجيين فلم يثبتوا في وجوههم وأُخبر بطرس ان جيشاً من الجيوش الاسوجية تملك على الجهات الحصينة من المدينة فالتزم الخروج حالاً الى خلف الاسوار وقصد الدفاع ببعض ما معهُ من العساكر الاَّ انهُ اخيرًا اضطرَّ الى تسليم المدينة وتركها لهذا الغالب الذي اوقع الرعب في قلوب اهالي بولونيا ولم يمكن بطرس الوقوف في تلك الجهات فرجع بنفسهِ الى مدينة بطرسبرج وترك عساكره في ممر الانهار وحرسهُ وخفراؤه في المحال المهمة · وتاخر كارلوس بسبب الامطار وشدة البرد اياماً ثم قدم الى نهر بريزين الصغير وهو يبعد بعض فراسخ عن الدنيبر ولم يكن من يقاوم همتهُ اويثنيهِ عن مرامهِ فوضع جسرًا على ذاك النهر وهزم الفرقة الروسية التي كانت تحرس ذاك الممر ووصل الى مدينة هلوسين على نهر وابيس وكان عنده جيش منظم روسي اقيم في هذا الموضع لمنع كارلوس وصدهِ عن التقدم · والنهر المذكور صغير واقع على ارض يابسة الا انهُ عظيم التيار سريع

الجري كثير العمق تمدهُ الامطار فيتسع وكان فيما وراء ذاك النهر بحيرة اقام الروس خلفها متاريس وحصنوا تلك المتاريس بخندق واقاموا عليها بناء لوضع مدافعهم حتى كان يتراءى من ذلك ان اجتياز ذاك النهر من المستحيل ولكن جهز الاسوجيون لاجتيازه جسورًا من الخشب واحكموا المدافع من الجهة الاولى لتحميهم في حال اجتيازهم . وحال وضع بعض تلك الجسور مرَّ عليها كارلوس في اول كل رجالهِ ولم يصبر الى ان تم كلها وهذا مما يحق ان يخلد بهِ ذكرهُ وتبعهُ فرقة من حرسهِ والماء يضرب الى اكتافهم حتى كانوا لا يقدرون على استعمال اسلحتهم فلو كانت المدافع الروسية موضوعة على ما ينبغي وضربت المجتازين في النهر لما نجا منهم احد الاَّ انها كانت على غير اللازم ولم تاتِ بمنفعة

وفي ٢٥ من شهر تموز سنة ١٧٠٨ خاض ايضًا البحيرة الواقعة خلف النهر واجتاز قومهُ بعدهُ وهجم على متاريس الروس سبع مرات التزم الروس في المرة الاخيرة الى تسليمها والرجوع عنها وتركوا فقط ١٢ مدفعًا و ٢٠ هاونًا (نوع من المدافع كان يستعمل سابقًا) فيفهم ان انتصار كارلوس في هذه الواقعة المسماة واقعة هولونزين التي نال فيها من الفخر ما لا مزيد عليهِ قد برهنت ان

السير في تلك الاقطار والتوغل بها يوجب ركوب اخطار شديدة ومكابدة مشاق عديدة وذلك ان جيشهُ كان لا يقدر على السير الا طائفة بعد طائفة تذهب من غابة الى اخرى ومن بحيرة الى نهر وهو مضطر الى القتال كل خطوة لانتشار الروس في تلك الجهات غير انهُ لما كان قد تعود اقتحام الاهوال والوقوف في سبيل الموانع لم يخشَ الاخطار ولم يكترث بالمشاق بل سار في طريق موسكو

الفصل السابع عشر

في

اجتياز كارلوس نهر الدنيبر وتوغلهِ في اوكرينا وانهزامهِ امام بطرس وما وقع لهُ في اوكرينا

وعند وصول كارلوس الى شاطئ نهر الدنيبر كان جميع الناس من القريب الى البعيد ينتظرون سيره الى تخت موسكو ووصولهُ بمدة قريبة ولم يخطر لاحد قط انهُ يسلك طريق اوكرينا وكان رغبهُ بذلك مازيبا حاكم القوزاق وهو شيخ قد بلغ من العمر سبعين سنة جحد نعمة بطرس وانضم الى كارلوس مومِلاً انهُ يقود جميع اهل حكومتهِ الى حزبهِ ويحملهم على الخروج

عن طاعة بطرس وكان كارلوس يوكد انهُ اذا انضمت الى جيوشهِ طوائف القوزاق الذين تعودوا على الحروب والغارات انتصر على الدولة الروسية بتمامها ومن جملة شروطهِ مع مازيبا ان ياخذ منهُ جميع احتياجاتهِ من الزاد والمهمات والمدافع ولم يكترث كارلوس ولا وعى ان بطرس يتاثرهُ وانهُ يستعد للهجوم على الجنرال لوفنهوب الذي كان معهُ ١٦ جنديًا على الزاد والمهمات الحربية ولا بحث عن حال مازيبا هل يقدر على القيام بوعدهِ وهل هو نافذ الكلمة في امة القوزاق ليحملها على التحزب لهُ والتجمع تحت رايته ثم ان الجيش الاسوجي وصل الى ما وراء نهر الدنيبر جهة نهر دسنا وهو ينتظر قدوم مازيبا بين هذين النهرين وكانت الطرق صعبة المسالك والمرور بها خطرًا حيث كان هناك فرق عسكرية روسية متفرقة في كل تلك الجهات

وفي ١١ من شهر ايلول (سبتمبر) اغار الامير منزيكوف بمن معهُ من الفرق الخيالة والمشاة على طليعة جيش كارلوس فبدد شملها وقتل كثيرًا من الاسوجيين فبادر كارلوس بنفسهِ الى ميدان الحرب ولم يزحزح العساكر الروسية الَّا بعد شق الانفس بعد معاناة صعوبات ومخاطر عظيمة وقاتل محاطًا بالاعداء قتال الابطال وكان مازيبا لم يقدم اليهِ الى ذاك الوقت واخذت

مهمات رجالهِ بالتناقص كل هذا ولم تفترهمة الاسوجيين لانهم راوا ملكهم يشاركهم في كل ما كابدوهُ من الاخطار والمشاق والمجاعات ويتعجبون منهُ ومن ثباتهِ في مثل هكذا صعوبات وكانت الذخائر مع الجنرال لوفنهوب فبعث اليهِ كارلوس يامره ان يسير مع جيشهِ لياتي لهم بالزاد والذخائر على العجلات المعدة لذلك ولم يصل اليهِ هذا الامر الا بعد ١٢ يوماً وحال وصولهِ اليهِ توجه بالسرعة لقضاء هذا الغرض فتركهُ بطرس ولم يتعرض لهُ حتى اجتاز نهر الدنيبر وصار بينهُ وبين النهر الصغير الذي يصب فيهِ ومن ثم تاثرهُ حتى لحقهُ وهجم عليهِ بالفرق الروسية التي كان يتتبع بعضها بعضاً وهزمهُ وفتك بعساكره فتكاً ذريعاً وكانت هذه الواقعة بين نهري دنيبر وسوسا . وكان الاسوجيون يظنون ان عساكر الروس اربعون الفاً مع انهم لم يزيدوا عن العشرين ولهذا كان عددهم كعدد الاسوجيين . وسلك بطرس مسلك الهمة والنشاط والصبر والعناد وحذا حذوهُ في ذلك جيوشهُ وكان وجودهُ بينهم يحرضهم على القتال والثبات وبذلك انهوا امر هذه الواقعة وثلاث وقائع اخرى عقبتها وقعة بين الفريقين كانت النصرة بها لهم في تلك الناحية

واما لوفنهوب القائد الاسوجي فلجأ الى اجمة هناك وحفظ

فيها ما كان معهُ من الاحمال والاثقال فاقتضى الحال في اليوم الثاني ان يطرد الروسيون الاسوجيين من تلك الاجمة وجرت وقعة هناك سفك فيهم من الدماء اكثر مما سفك في التي قبلها وكادت تجلى عن انتصار الاسوجيين وراى بطرس اختلال جيوشهِ في هذه الواقعة فصاح عليهم ان اثبتوا واطلقوا النار على كل فرد فرَّ او رجع منكم الى الوراء ولو كنت انا فعادوا وحملوا على الاسوجيين بحمية حتى ازاحوهم من مكانهم ولكنهم لم ينهزموا . ثم جاء الى الروس اعانة من العساكر يبلغ عددها اربعة الاف نفس فرموا الاسوجيين بالنار ثانية والزموهم الى الالتجاء الى قرية بروسبوك ثم هجموا عليهم مرة اخرى وارجعوهم الى الوراء فذهبوا الى جهة نهر دنا فاقتفوا اثارهم وكانوا يتاخرون وهم محافظون على الانتظام غير ان قوتهم قد ضعفت وخسروا ثمانية الاف رجل وسبعة عشر مدفعًا واربعة واربعين لواء واسر منهم ستون ضابطًا ونحو تسعمائة عسكري وقبض على كل الذخائر العظيمة التي كانت مبعوثة الى كارلوس

وحمد بطرس الله على هذه النصرة وهذا الفوز العظيم الذي كان في ١٧ ايلول (سبتمبر) وبلغهُ وهو هناك ان ابركسان احد قواده قد حاز النصرة ايضًا على الاسوجيين في اقليم انغريا

وهذا قوّى امالهُ وثقتهُ بان عندهُ من العساكر والقواد من يركن اليهم ويأتمن شجاعتهم وبسالتهم

وبلغ كارلوس خبر هذه الوقائع السيئــة وهو عازم على اجتياز نهر دسنا فتكدر من ذلك واذ ذاك قدم عليهِ مازيبا بفرقتين صغيرتين من العساكر مع انهُ كان قد وعدهُ انهُ يمدهُ بثلاثين الف مقاتل وبمقدار جسيم من المهمات والذخائر الحربية لكن في الواقع انهُ قدم مستجيرًا مستغيثًا لا مساعدًا ومعينًا وذلك انهُ جمع وهو في بلادهِ نحو ١٥ الفًا من الاهلين و٦ الاف من العساكر وعرض عليهم انهُ يريد محاربة كارلوس الثاني عشر لتعديه على ملكهم بطرس وانهم لهذا السبب ينالون عندهُ الشرف والمديح فاجابوا طلبهُ وساروا معهُ حتى اذا قرب من نهر دسنا اخبرهم بالواقع واطلعهم على سر المسألة وانهُ يريد مساعدة كارلوس بحيث يتخلصون من حكومة بطرس ويكون لهم الاستقلال التام فلم يطيعوه على ذلك حبًا ببطرس لانهم لم يكونوا يرون منهُ غير حسن الالتفات والمحبة ولذلك نفروا من مازيبا وتخلوا عنهُ وتركوه محتقرين اعمالهُ واطلعوا بطرس على ما كان من امره وخيانتهِ وكيف قادهم بالحيلة والخداع فاثنى عليهم وجازاهم مجازاة حسنة . وبقي مع مازيبا فرقتان صغيرتان

فقط

ولم يتمكن كارلوس من وضع الحراس في كل الطرقات التي يسير فيها الروس لعدم معرفتها ولجهلهِ خارطة تلك البلاد بخلاف بطرس فانهُ كان يعرفها جيدًا ويسير فيها على السهولة والخبرة واهمل كارلوس الاستيلاء على مدينة ستاردوب الموصلة الى مدينة باتورين ولهذا سار الامير منزيكوف والجنرال غالتزين بسرعة الى تلك المدينة اي باتورين واستوليا عليها بسهولة دون مدافعــــة تذكر او مقاومة ثم نهبوها واحرقوها فصارت رمادًا وكان فيها مخزن لمهمات الاسوجيين واموال مازيبا وخزائنهُ فغنموا ذلك كلهُ . واما القوزاق فانتخبوا زعيمًا لهم غير مازيبا وعرضوه على بطرس فاقرَّهُ عليهم ولاجل ارهاب هذه الطائفة وعلمها بعظم ذنب حاكمها الاول حمل مطران كياف ومطرانان اخران ان يحكما على مازيبا بانهُ كافر في مجلس حافل على رؤوس الاشهاد وحكم عليهِ وعلى جماعة من الذين انضموا اليهِ بعقاب العجلات وذلك في ٢٢ من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)

وكان مع كارلوس ٣٥ الفًا في الاول وانضم الى هذا الجيش بقايا جيش لوفنهوب وايضًا الفان من القوزاق الذين جاءوا مع مازيبا ومع ما وقع على جيوشهِ من التاخر بقي على عزمهِ

وهو يطمع بادخال اقليم اوكرينا بتمامهِ تحت طاعتهِ . فاجتاز
نهر دسنا غير مكترث بجيوش عدوهِ المحدقة بهِ من سائر الجهات
وكان بعضها يقفو اثر طليعتهِ والبعض الاخر منتشراً
فيما وراء ذاك النهر بقصد صدهِ ومنعهِ من المرور واستمر على
سيره في طريقهِ بالصحارى والقفار وكان لا يمر الا بقرى دارسة
وبلاد محترقة خربة ولما توغل في مسيره لاقى من شدة البرد
وتساقط الثلج ما القاه بالياس واهلك نحو الفين من جيوشهِ
نصب اعينهِ لتجردهم عن الملابس الثقيلة لوقايتهم من البرد
بخلاف الروسيين فانهم كانوا يلبسون الملابس الثقيلة فلا
توثر فيهم شدتهُ وفي تلك الاثناء تقدم الكونت بيبير احد
ملازمي كارلوس وسالهُ الرجوع والكف عن السير وتضرع
اليهِ بحرارة مبيناً لهُ صعوبة المسلك الذي يسلكهُ وطلب اليهِ
على الاقل ان يلبث في رومنا (مدينة صغيرة من اقليم اوكرينا)
مدة الشتاء فيستريح هناك هو وجيوشهُ ويتمكن من تقوية
عساكره وتحصيل بعض المهمات والزاد بواسطة مازيبا فاجاب
كارلوس هذا الكونت النصوح بقولهِ . انهُ ليس ممن يلازم
المدن ويهوى الاقامة فترجاه الكونت ثانياً ان يجتاز نهري دسنا
ودنيبر ويرجع الى مملكة بولونيا ويستعين بفرسان هذه المملكة

حيث ان الضرورة تقتضي ذلك ليمكّن الملك الذي تولاه ويقويه ويمنع حزب اوغسطوس عن التقوي والاستعداد فامتنع عن ذلك واجاب ان ذلك يحسب فراراً من وجه بطرس وانهُ من اللازم الاستيلاء على اقليم اوكرينا والوصول الى مدينة موسكو

ومكثت العساكر الاسوجية والروسية مدة اسابيع على البطالة وعدم التمكن من القتال لاشتداد البرد وعند ما قدرت العساكر على حمل السلاح شنّ كارلوس الغارة على اكثر المحال الصغيرة التي مرَّ بها في طريقهِ والتزم ان يبعث بجماعات كثيرة الى جهات مختلفة لتحصيل الزاد والمؤُنة من الفلاحين بالنهب والسلب · فلم يقاومهُ بطرس بذلك ولم يعجل بالقتال بل كان يراقب احوال عدوه ويلاحظ حركاتهِ ويستكين تاركاً اياه يسلك مسالك الاخطار والمهالك · ويتعذر على القاري ان يقف على رسم الاودية والجهات التي سلكها كارلوس اثناء سيرهِ بتلك الاقطار وقد اجتاز عدة انهار لا وجود لها في الخارطات الجغرافية اذ ان علماء هذا الفن لم يتوصلوا الى معرفة احوال تلك الارض كمعرفتهم ممالك فرنسا وايطاليا والنمسا ولكننا نقول ان كارلوس جاب اقليم اوكرينا بتمامهِ وحرق كل ما صادفهُ في الطريق من القرى والبلدان وتوغل الى جهه

الجنوب الشرقي حتى وصل الى صحارى قاحلة تكتنفها جبال تفصل تتار نوغايس من قوزاق نهر الدون فلم يشعر الا وهو خلف اوكرينا في الطريق التي يسلكها التتار الى بلاد الروس وحينئذٍ راى شدة لزومهِ الى الرجوع دفعًا للمخاطرة بنفسهِ فرجع وكان اهل تلك النواحي وفلاحوهم يختفون في المغائر بمواشيهم ليمنعوها من وجه الاسوجيين الذين كانوا ينهبون منهم كل ما هو لهم مما يصادفونهُ في طريقهم ويقال ان هذا النهب والقتل معدود من حقوق الحرب عندهم مع انهُ ضرب من الجور والاسراف يعامل اولئك القوم مثل هذه المعاملة عند مدافعتهم عن مونهم واقوات اولادهم ونسائهم

وكان الامير مازيبا يسعى منذ مدة بعقد محالفة بينهُ وبين الزابورية وهي امة على شاطئ نهر الدنيبر ومنهم من يسكن جزائرهُ وهم همج لا يعقدون عقد زواج ولا يحصلون معاشهم الاَّ بالسلب والنهب والكسب وكلما يجمعونهُ يتركونهُ في جزائرهم مدة فصل الشتاء ثم يذهبون لبيعهِ بمدينة بلطافا الصغيرة في فصل الربيع ومنهم من يسكنون ضياعًا عند يمين النهر ويساره ويحكمهم امير ينتخبونهُ منهم تابع لحاكم اوكرينا. فذهب ذاك الحاكم الذي كان يحكمهم اوائذٍ لمقابلة مازيبا وتقابل هذان

الاميران الخشنان وكل منهما يحمل امامهُ ذنب فرس وعصاً ·
وصنع مازيبا لذاك الحاكم واعيان اصحابهِ وليمة عظيمة وقدم
لهم الاطعمة في صحف من الفضة وعندما اخذتهم نشوة السكر
تحالف الحاكمان على الانجيل والمائدة بين ايديهما وتعاهدا على
ان يمدَّا كارلوس الثاني عشر بالزاد والعساكر وبعد انقضاء
المحالفة اخذ جماعة حاكم الزابورية الصحف وجميع اثاث محل
الوليمة وانصرفوا فتاثرهم خادم المائدة وقال لهم ان هذا العمل
يحرمهُ الانجيل الطاهر الذي حلفتم عليهِ وطلب ارجاع ما اخذوه
فغضبوا منهُ ورجعوا الى مازيبا يتشكون لهُ مما وقع في حقهم من
الاساءة وسالوهُ ان يسلمهم ذاك الخادم ليعاقبوه على ذلك بما
تقتضيهِ القوانين فسلمهم اياه فاخذوا ذاك المسكين وصاروا
يترامونهُ فيما بينهم كالاكرة ثم طعنوه بسكين في صدره فاماتوه ·
وهكذا كانت حالة معاهدي كارلوس ومحالفيهِ . وقد انضم
بعض تلك القبيلة الى عساكره والبعض توجهوا لقتال من انضم
الى بطرس من القوزاق والكلموك الذين حالفوه

وكان في مدينة بلطافا الصغيرة كثير من المهمات والذخائر
وكانت صالحة لان تكون ميدان حرب لملك اسوج وهي قريبة
جداً من سلسله جبال نشرف عليها من جهة الشمال وفي

شرقيها صحراء متسعة وارضهـــا من جهة الغرب اشد خصوبة واكثر عمرانًا والنهر المذكور يصب في نهر الدنيبر بعيدًا عن تلك المدينة بخمسة عسر فرسخًا ويمكن السير من تلك المدينة الى موسكو بواسطة مسالك نسيفة هناك وقد احترس بطرس على تلك المسالك ومنعها حتى صار يتعذر السير فيها غير ان كارلوس كان لا يكترث بمثل تلك الموانع ولا يعد خرقها من باب المتسحيل بل كان يطمع ان يسير منها الى مدينة موسكو بعد الاستيلاء على مدينة بلطافا . فوضع عليها الحصار في اول شهر ايار (مايس) من سنة ١٧٠٩

الفصل الثامن عشر

في

واقعة بلطافا

واغتنم بطرس الزمن الواقع بين وقائع دسنا وواقعة بلطافا وطاف جميع الاقطار التي تكتنف اقليم اوكرينا ودوقية سوبريا التي يخترقها نهر دسنا وبلاد بلكو الى منبع نهر اوكا والصحارى والجبال التي يتوصل منها الى طريق بحر ازوف وتوجه

الى شواطئ هذا البحر واصلح ميناه واخذ يجدد فيهِ السفن ويحصن قلعة تنغروك والحاصل انهُ صرف ذاك الوقت فيما يعود بالنفع على ممالكهِ . وبمجرَّد ما بلغهُ ان ملك الاسوجيين حاصر بلطافا جمع جنودهُ فرساناً ومشاة من الروسيين والقوزاق والكلموك وغيرهم وذخائره ومهماتهُ ومدافعهُ حتى اصبح جيشهُ كاملاً قادرًا على الدفاع فكان بذلك اقدر من عدوهِ واشدَّ ادراكاً وسلطة . وفي ١٥ تموز (جوليه) وصل الى بلطافا ومعهُ جيش تبلغ عدتهُ ٦٠ الف مقاتل وكان نهر فورسكلا بينهُ وبين كارلوس اي ان المحاصرين كانوا نازلين في الشمال الغربي منهُ والروسيون في الجنوب الشرقي . ثم ركب بطرس النهر وصعد فيهِ الى الجهة العليا من المدينة ووضع هناك ما يلزم من القناطر والجسور فاجتازت جيوشهُ عليهـا واقام متراسًا طويلاً امام العدو تم انشاؤهُ بليلة واحدة . ومن هذا ظهر لكارلوس ان هذا الملك اي بطرس الذي كان يظن انهُ يستولي على بلاده ويخلعهُ عن ملكهِ وهو في مدينة موسكو قادر على الدفاع عن بلاده وانهُ خبير بمعرفة الفنون الحربية والمواقع المهمة . ومن ثم انزل بطرس عساكرهُ الفرسان بين اجمتين وسترها بعدة حصون عليها عدة من المدافع ولما اكمل هذه الاعدادات بنفسهِ ذهب

ليعاين معسكر العدو ويختبر مراكزه ليعرف كيف يهزمهُ ويظفر بهِ

وكان اهل اوربا باجمعهم شاخصين بابصارهم الى هذين الملكين يترقبون ما يؤول اليهِ امرها واكثرهم لا يعرفون اين مقرّهما وفي اي جهة يسيران غير انهُ كان من المقرَّر في عقولهم ان كارلوس الذي خرج من مملكة سكس منصوراً ظافراً يقود جيشاً هائلاً يقفو اثر خصمهِ في سائر الجهات ولا بد انهُ يهزمهُ ويظفر بهِ وكما وضع الشروط على ملك الدانمرك وبولونيا والنمسا لا بد لهُ ان يسن الشروط على الدوله الروسيه وهو في قصر كرملين في مدينة موسكو ويعزل بطرس ويولي عليها ملكاً من قبلهِ كما ولى على بولونيا وكتب في هذا المعنى كثير من الكتبة الاوربيين وصدرت بهِ عدة مكاتبات من وكلاء الدول الى مجالس ملوكهم . ولم يكن امر الخطر بين هذين الملكين على حالة واحدة اذ لو هلك في هذه الواقعه كارلوس لما تاسف عليه قومهُ الا لكونهِ من صناديد المحاربين لكن بانقضاء اجلهِ ينقضي سفك الدماء والخراب من اقليم اوكرينا وتغور اقليم لوثيانيا وتعود الراحة الى بولونيا وغير ذلك من الارتباكات الواقعة بعناده حتى ان الاسوجيين لنفاد اموالهم كانوا لا يحزنون عليهِ

بل ربما وجدوا تعزية بذلك بخلاف الروسيين الذين لو فقد
بطرس لفقدوا بفقده المنافع الجسيمة العائدة اليهم ويقع الاختلال
وعدم الانتظام بينهم ويعودون الى الحالة التي كانوا عليها قبلاً
وكانت واقعة بلطافا هي الاخيرة بين هذين الملكين

ووقع بين بعض الفرق الاسوجية والروسية نزال ومصادمة
اكثر من مرة تحت اسوار المدينة وفي ٢٧ تموز (جوليه) اصيب
كارلوس برصاصة كسرت عظام قدمهِ في اثناء تلك المصادمات
فعولج بعدة عمليات مملة موجعة وهو مظهر الصبر والجلد دون
ان يظهر آثار التالم والتوجع واضطرّ الى ملازمة الفراش وادرك
وهو في تلك الحالة ان بطرس لا بد ان يهزمهُ وحالما قدر ان
يجمع حواسهُ خرج محمولاً على سريره لمراقبة احوال جيوشهِ
ودفاع عدوه واستولى الاسوجيون على حصنين مع ما ابداه
بطرس من المقاومة واستمرار الدفاع . وقيل ان الجيوش الاسوجية
التي استولت على هذين الحصنين ظنت ان الانتصار لها في
الموقعة فصاحت النصرة النصرة غير ان الروسيين لم ينقطعوا
عن القتال ومدافعهم تبعث بكراتها على الاسوجيين من كامل
الجهات ولا سيما على الذين استولوا على الحصنين المذكورين
ثم صارت الواقعة عامة فيما بعد وكان بطرس قائماً في جيوشهِ

بخطة قائد وكان الجنرال بوير متوليًا امر ميمنة الجيش والامير منزيكوف امر الميسرة والجنرال شرمتوف في القلب واستغرق القتال نحوًا من ساعتين ودخان البارود مخيم فوق العسكرين يحجب عنهما نور الشمس ويرى في وسط ذاك الدخان لهيب نار الكرات المندفعة من افواه المدافع وقد تحطمت كثير من الايدي والارجل واندفقت انابيب من الادمية تنساب في الارض ·
وكان كارلوس محمولاً على سريره فوق اعناق بعض خدمهِ وبيده طبنجة وهو يامر ان يساريهِ من مكان الى اخر فاصيب احد حامليهِ بكرة مدفع افضت بهِ الى الهلاك وفرّقت اجزاء السرير ووقع كارلوس الى الارض فاسرع الاسوجيون اليهِ وحملوه على سرير من الرماح احكموا وضعهُ اذ لم يتيسر لهم في ذاك الوقت الكثير المخاطر الاتيان بسرير يستريح عليهِ وقد اصيب بطرس ايضًا بعدة طلقات في برنيطتهِ وثيابهِ وبعض اطراف جسمهِ غير موثرة وكان كل من هذين الملكين على الدوام بين دخان البارود ولهيبهِ عرضة للخطر من وقوع رصاصة واحدة كافية لان تذهب بعمره · ودامت الحرب قائمة الى ان افضى الامر اخيرًا الى انهزام الاسوجيين وخزيهم وركن كارلوس الى الفرار امام بطرس وقد الجأتهُ الضرورة الى ركوب جواد فرَ

عليهِ وهو يتألم ويتوجع تخلصاً من الموت او الاسر . وقد احصى الروس عدد القتلى من الاسوجيين في محل المعركة فوجدوهم تسعة آلاف ومائتين وثمانين نفساً واسروا منهم مدة القتال ثلاثة آلاف تقريباً من الخيالة

واسرع كارلوس في الفرار اختشاء من القبض عليهِ والوقوع بيد عدوهِ ومعهُ الفا مقاتل وعدد قليل من المدافع الصغيرة ويسير من الذخائر والمهمات والبارود وقصد نهر الدنيبر من الجهة الجنوبية حيث يوجد فيما وراءهُ هذا النهر صحارى متسعة يتوصل منها الى ثغور بلاد الدولة العلية العثمانية ومن ثم اسر الروس ايضاً ١٤ الفاً من الاسوجيين وعقدوا بينهم وبين الجنرال لوفنهوب شروطاً بموجبها سلم الى الروسيين هو وعدة من الجنرالية والامراء والقواد منهم الكونت بيبير اعظم وزراء كارلوس ومعهُ اثنان من كتاب دولتهِ والقائد العام رانسليد والجنرال اسليبنباخ والجنرال روسان وعدة جنرالية اخرين وضباط ونحوهم وكان مجمل الجيش الذي سلم معهُ ١٨٧٤٦

الفصل التاسع عشر

في

ما عقب واقعة بلطافا والتجاء كارلوس الى الدولة العلية العثمانية ورجوع اوغسطوس ملك بولونيا الى حكومتهِ واستيلاء بطرس على باقي المدن التي كانت باقية بيد الاسوجيين

وعندما قدم قواد الاسوجيين الى بطرس رد اليهم سيوفهم ودعاهم الى الاكل على مائدتهِ الخصوصية وشرب كاساً من الخمر قائلاً اني اشرب على صحة ابطال الحرب ورجالها . ثم بعد ذلك بعث بالعساكر الاسوجية والضباط الصغار منهم الى اقليم سيبيريا يشتغلون هناك بحسب العادة الواقعة عندهم في ذلك الزمان عند القبض على الاسرى من العدو. وكان بطرس قد عرض على كارلوس عقد مشارطة على مفاداة الاسرى والاتفاق بذلك فانف كارلوس من ذلك وامتنع حتى اصبح عسكره فريسة كبره وصلابة طبعهِ . ومن المقرر ان افراطهُ بالكبر والعتو جرَّ اليهِ جميع المصائب قبل ذلك و بعده وكان عندما قارب مدينة بندر نصحهُ بعض رجالهِ ان يكتب الى

الصدر الاعظم كتاباً يطلب بهِ النزول بحمى الدولة العلية فابى من ذلك كبرًا وعنادًا ولم يراعِ حال مصلحتهِ ومقتضيات الزمان ومراعاة جانبهِ

وقد انتشر خبر واقعة بلطافا في كل الجهات وارتبكت بها العقول والافكار في اكثر الجهات وشمل الفرح كثيرًا من العالم من الذين كان كارلوس الثاني عشر يخاصمهم ويخالفهم وينفذ غاياتهِ فيهم بقدر ما وقع من الكدر على الذين كانوا يتمسكون باذيالهِ وقد عاهدوهُ وحالفوه ومما يجب ان يذكر هنا ان كارلوس عندما كان نافذ القوة مرهب الجانب كان اكثر الدول تخافهُ وكان قد الزم جوزف امبراطور المانيا بان ينزع من الكاثوليك ١٠٥ كنائس ويعطيها لاهل سيليزيا البروتستانت فلما شاع خبر هذه الوقعة وثبت عند الالمانيين الكاثوليك خبر انحطاط كارلوس انحطاطًا كاملاً استرجعوا تلك الكنائس من البروتستانت قهرًا · ومالوا الى الانتقام من الملك الذي تغلب عليهم وقهرهم واخذ من اموالهم ٢٣ مليون ريال · ففي ٢٣ آب (اوغسطوس) بادر اوغسطوس الى نقض المعاهدة التي كانت بينهُ وبين كارلوس ورجع فطلب مراضاة بطرس فرضي عنهُ وبمجرَّد ما وصل اليهِ اشعار بطرس بقبول

رجوعهِ اليهِ بادر الى الرجوع الى تخت بولونيا . واما الاسوجيون فانهم بقوا مدة بارتباك لا يعلمون خبرًا عن ملكهم وقد اعتقد الاكثر منهم انهُ مات قتلاً في تلك الواقعة غير انهم لم يقيموا خلفًا لهُ لعدم ثبوت هذا الخبر بصفة رسمية او بدليل قطعي يمكن الاستناد اليهِ

ورأى بطرس ان قطف ثمرات هذا الانتصار من الامور الضرورية فارسل القائد العام شرمتوف بجيش من عساكره الى اقليم ليفونيا فابدى من الشجاعة ما اكسبهُ الشهرة العظيمة والفخر السامي وبعث ايضًا بالامير منزيكوف بجيش عظيم من الخيالة الى مملكة بولونيا ليساعد بها حزب اوغسطوس ويطرد منها الملك الذي اقامهُ كارلوس ويبدد شمل الجيوش الاسوجية التي كانت باقية هناك مع جنرالها كراسد . وفي ١٨ ايلول (سبتمبر) سار بطرس بنفسهِ مارًّا في طريقهِ باقليم كياف فوصل الى مدينة لوبلين وتفاوض مع جنرال لوثيانيا ونظر الجيوش البولونية تهني اوغسطوس بالتاج وتبايعهُ على الطاعة ثم ذهب الى مدينة ورشاف ولوقي بمدينة تورين بما لا مزيد عليهِ من الفخار واجتمع باوغسطوس وتلقى منهُ الشكر والثناء على صنيعهِ الجميل معهُ ورضاه عنهُ . وهو عقد في تلك المدينة

شروطاً مع كل من ملك بروسيا والدانمرك وبولونيا تضمّ
بالبلاد الاسوجية منها احياء ما كان لملوك روسيا من الحقوق
القديمة في شان ليفونيا وانغريا وكاريليا وجزء من اقليم فنلندة
وان يضم الى الدانمرك اسكانيا والى روسيا اقليم بوميرانيا . وكان
على الدوام ياتي اشراف مملكة بولونيا الى ملكهم اوغسطوس
افواجاً افواجاً يبايعونهُ ويسالونهُ الصفح عنهم والاغضاء عما ارتكبوهُ
ضده من ذنب تركهِ والتخلي عنهُ ويعترفون بفضل بطرس على
بلادهم واهتمامهِ بحمايتهم . وكذلك راى ستانسلاس ان التخلي
عن الحكومة امر ضروري يحفظ لهُ حياتهُ وراحتهُ في الاستقبال
فنشر اعلاناً يتضمن ارادتهُ بترك سرير الملك ورغبتهُ بالتنازل
عنهُ فترك كرسيهُ وذهب الى بوميرانيا وبقي الحاكم على بولونيا
اوغسطوس

وبعد ان انهى بطرس امر بولونيا وقرر امر المعاهدة المتقدم
ذكرها سافر الى بلاد بروسيا للمخابرة بشانها ولم تكن عادة
الملوك اوانئذٍ الذهاب بانفسهم الى مثل قضاء هذه الاوطار
التي هي من وظائف السفراء غير ان بطرس كان هو اول
من سن هذه السنة فوصل الى اقليم بوميرانيا وكان حاكمهُ قد
لاقى بطرس في اول مرة حين مروره فيهِ وهو ذاهب الى اوربا

لاكتساب الفنون والصنائع كما تقدم في بابهِ · فلما قدم عليهِ
هذه المرة وهو منتصر على كارلوس في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر)
تلقاه بموكب واحتفال اعظم من المرة الاولى ثم عقد مع منتخب
براندبورغ اي الملك الاول لبروسيا معاهدة دفاع وهجوم وتعاقدا
على ما يضرُّ بالمصالح الاسوجية ويفضي بتلك المملكة الى الدمار
وفي ٢١ من تشرين الثاني (نوفمبر) ذهب بطرس لملاقاة
جيوشهِ امام مدينة ريغا قاعدة اقليم ليفونيا قاصداً بذلك المحافظة
على الوقت حيث لا يرغب بضياع دقيقة من الوقت دون ان
يكون عاملاً بها على الانتفاع لبلاده ولجيوشهِ وعند وصولهِ الى
تلك المدينة امر باطلاق المدافع على قلعتها وقد حشا بيده ثلاث
مدافع في بداية الامر واطلق نارها بيدهِ ثم وضع الحصار على
المدينة وضايقها كل المضايقة وعندما ترجح عنده الاستيلاء عليها
وقرب افتتاحها ترك جيوشهُ عليها لاتمام العمل وذهب الى مدينتهِ
بطرسبرج لاجل مباشرة ما بها من الاشغال كبناء بيوت وانشاء
اساطيل وفي الثالث من شهر كانون الاول اشتغل بيده اساس
سفينة تحمل ٥٤ مدفعاً ثم سافر الى موسكو لعمل احتفال مختص
بانتصاره وفوزه على كارلوس ليكون وسيلة لتردده في اذهان
اهل بلاده وحفظهِ في كل عام وكان ذلك في بداية سنة ١٧١٠

فقام بدواعي الاحتفال بنفسهِ وباشرها بافكاره واهتمامهِ وادخل موكبهُ العظيم المدينة بهيئة فخرية جذابة لانتباه افكار النظار. وكان اول ما ابتدأ بهِ الموكب ادخال المدافع الاسوجية التي اكتسبوها فمرَّ بها وفوقها سبع اقواس على شكل قناطر فوقها السناجق والاعلام الاسوجية ومن خلفها مرُّوا بسرير كارلوس الذى كان محمولاً عليهِ في واقعه بلطافا ومن خلف السرير ادخل الجيوش الاسوجية الماسورين ومن خلف هولاء ايضًا الضباط ومن بعدهم الجنرالية ثم الوزراء والامراء وجميعهم يمشون بترتيب على اصوات الموسيقات والاجراس تضرب من كل كنيسة واصواتها ترنُّ في كل ناحية والمدافع تطلق من كل جهة وقتًا بعد وقت وكانت اصوات اهل موسكو وغيرها من الروسيين الذين حضروا لمشاهدة هذا الاحتفال في موسكو ترفع فوق كل تلك الاصوات وهي سائرة مجتمعة تنادي بالفرح والسرور من ملكهم الظافر الذي جعل لهم في صدر التاريخ ذكرًا حسنًا وكانت الجيوش الروسية تسير بدورها في نهاية الجميع وبطرس يسير في خطتهِ بين جيوشهِ بصفة قائد فرقة لا بصفة ملك حيث كان الجنرال شرمتوف قد رقاه الى رتبة قائد فرقة وبين يدي تالك الفرقة التي هو عليها كانت [illegible] امراء

البلاد واولادهم يحملون الزهور واغصان الغار التي كانت ترمز الى الانتصار ليطرحوها على الدوام بين ارجل ملكهم وانتهى ذاك الاحتفال على ابهج زينة واعظم رونق

وعقب ذاك الموكب امر اخر اكسب بطرس فخرًا عظيمًا وشرفًا سرَّ منهُ هو وعموم اهل بلادهِ . وذلك انهُ في سنة ١٧٠٨ بينما كان بطرس منهمكًا بحروبهِ ومشغولاً بوقائع عديدة في بولونيا وبلاد اسوج ونحوها كان سفيرهُ ماتيوف بمدينة لندره لدى ملكة الانكليز فاقتضى سفره من هناك وحيث كان عليهِ دين لرجال الانكليز منعوه من السفر وقبض عليهِ وسجن وحضر امام قاضي الاحكام لاستيفاء الدين منهُ وهو مهان مذلول على زعم ان القوانين الانكليزية مقدمة وليس فيها ما يميز السفير عن غيرهِ من اي دولة وعن اي ملك كان فعارض في ذلك سفراء الدول وادعوا ان حرمة السفراء ضرورية احترامًا لملوكهم وانهُ لا يجوز القبض عليهم فلم يات ذلك بنتيجة فاضطرَّ اخيرًا السفراء الى ان يضمنوا المال لاصحابهِ ويدفعوه منهم وبلغ ذلك بطرس فغاظهُ جدًّا وكتب بهِ الى الملكة هيلانة ملكة الانكليز بالتعنيف واللوم على خرق حرمة سفيرهِ فلم تقدر الملكة ان تاتي بترضية لهُ الاَّ انها الزمت مجلس البرلمان بوضع قانون

يحفظ ناموس السفراء ويوجب مراعاتهم فلا يقبض عليهم لاجل
دين او مال عليهم وكان الذي حمل الانكليز على هذا الفعل
ما راوه من ان كارلوس الثاني عشر قد قتل لبطرس سفيرًا
وهو بطقون غير ملتفت الى مراعاته ومراعاة سيده . ولما رات
ملكة الانكليز ما نالهُ بطرس من الانتصار والارهاب وان
ملوك اوربا خافت جانبهُ ومالت اليهِ وعقدت معهُ شروطًا
وحالفتهُ وان الحكومة الاسوجية التي كانت في ذاك الزمان في
الدرجة الاولى اصبحت في يديهِ وتحت نفوذهِ رات ان من
الواجب عليها مراضاتهُ وملافاة ما وقع في مجالسها على سفيره
فبعثت بسفارة مخصوصة تستعطفهُ وتطلب اليهِ السماح عن
تعدي تجار الانكليز على سفيره . فوصلت السفارة في ١٦ شباط
(ففريه) وخطب رئيسها في جلسة على رؤوس الاشهاد بما ياتي
مختصرهُ قائلاً عن لسان الملكة . يا ايها الامبراطور المعظم
صاحب الشرف العالي والرتبة الاولى والمجد والفخار بين ملوك
العالم قاطبة ان حكومتي قد تعدت على سفيرك بدون ارادتي
انتهاكًا للاصول ورغمًا عنها بطلب تجار البلاد ومع ذلك فاكرامًا
لك قد سننت قانونًا جديدًا وعوقب اولئك التجار بالسجن
وحكم عليهم بانهم مضرون بصالح المملكة ادنياء النفوس مكدرو

الراحة . اه .

فسرّ بطرس من هذه الترضية التي كانت علنية وامام كثير من سفراء الدول واعيان البلاد وسرّهُ ايضًا اعتراف ملكة الانكليز بعظمتهِ وتلقيبها اياهُ امبراطورًا مع انها قبل واقعة بلطافا لم تدعهُ بذلك ومنذ ذلك الوقت اعترف عموم الملوك ولقبوهُ بالامبراطور مع ان مشاهير بلاده كانوا يلقبونهُ بهِ قبلاً . وفي تلك الاثنا كان جيش من الاسوجيين باقيًا في مدينة ايلبرغ وهي من المدن المستقلة بذاتها من المدن البروسية في مملكة بولونيا فحاصرها الروس وافتتحوها في ١١ اذار (مارس) ووجدوا بها مخزنًا عظيمًا لاسوج فيهِ ١٨٣ مدفعًا و١٥٢ هاونًا فاغتنموها مع ما اغتنموا من بقايا الاسوجيين وذخائرهم . وبلغت اخبار النصرة بطرس فسرّ جدًّا وسافر من موسكو الى بطرسبرج وحال وصولهِ اليها ركب البحر على الاسطول الجديد الذي جددهُ تحت حماية قلعتهِ الجديدة المسماة كرونسلوت التي بناها لحماية بطرسبرج وسار الى مدينه ويبرغ قاعدة اقليم كاريليا وفنلندة متغلبًا على النوء والعواصف في اثناء هذا المسير وكانت جيوشهُ البرية قد وصلت الى هناك ونزلت عند البحيرات وبعد ذلك بقليل سلمت مدينة ويبرغ بعد ان ثقبوا جدرانها بضرب المدافع

وسلم ٤ الاف مقاتل للروسيين . وبعد اخذ هذه المدينة بقليل وجه بعنايتهِ الى فتح مدينة ريغا حيث كان الحصار لا يزال عليها وقد اضرَّ بالجيوش الروسية الامراض الوبائية التي فشت بينهم واهلكت منهم نحو ٩ الاف نفس فجدد انتظام المحاصرة وقد نال محافظو القلعة شرف الدفاع والثبات فلم يسلموا الاَّ بشروط شريفة وهي انهم لا يكونون كاسرى بل كجيوش روسية اي انهُ يستخدمهم في جيشهِ مع المراعاة والاكرام فاجابهم واستخدمهم واستلم المدينة وقلعة موندة بانا القائمة فيها واغتنم من المدينة ٨٠٠ مدفعاً ولم يبقَ على الامبراطور الروسي من الاستيلاء في اقليم كاريليا الا مدينة كيلس وهي مدينة حصينة واقعة على جزيرة في بحيرة لادوغا وكان الناس يظنون انهُ لا يمكن لاحد التغلب على تلك المدينة غير انها سلمت للروس بعد ان ضربوها مدة قليلة بالمدافع وذلك في ١٩ ايلول من سنة ١٧١٠ وسلمت لهم ايضاً في تلك الاثناء جزيرة اوزل عند البحر المتصل باقليم ليفونيا من جهة شماليهِ وبقي ايضاً عليهِ في اقليم ليفونيا في الجهة الشمالية على خليج فنلندة مدينتا برنو وريويل فاستولى على الاولى في ٢٥ اب (اوغسطوس) وسلمت اليهِ الثانية في ١٠ ايلول دون ان يطلق عليها مدفعاً وقد تعجبت عساكره عند دخولهم اليها ولم

يروا فيها نفساً لان اهلها اخلوها قبل وصول الروسيين اليها . وكانت فرق الاسوجيين وقتئذٍ اسوأ حالاً من ملكها وذلك ان الامراض الوبائية اهلكت كثيراً من اقليم ليفونيا وانتقلت الى بلاد الاسوجيين واهلكت من مدينة ستوكهلم وحدها ٢٠ الفاً

وكان لكارلوس جيش في بوميرانيا مقدارهُ ١١ الفاً فعزم كلٌّ من الامبراطور بطرس وملك الدانمرك وملك بروسيا وحاكم هانوفر ودوق هلستين على التواطوء والاضرار بهذا الجيش بحيث يصير عديم الجدوى لبلاده وامتهِ ورأى مجلس النواب بمدينة ستوكهلم ان الاوفق لهم التخلي عن هذا الجيش والتوقيع على هذا القرار وقد ساعد في عقد هذه الشروط امبراطور الالمان والذي حملهُ على ذلك املهُ بادخال هذا الجيش في معسكره حيث كان يحارب فرنسا في تلك الايام . وبلغ هذا الخبر كارلوس وهو في بندر يتواقع على الدولة العلية ويحرضها على قتال روسيا فوقع عليهِ من اصعب المصائب واشد النكبات واستغرب غاية الاستغراب كيف اقرت نوابهُ هذه الشروط التي بموجبها يكون جيشهُ موثق الايدي لانفع لهُ وحملهُ كبره ان يكتب اليهم وهو على تلك الحالة يلومهم وقد

قال في بعض كتاباتهِ انهُ لو بعث باحد نعليهِ لحكم المملكة لاحسن التصرف وضبطت الادارة · وفوق كل ذلك فان الدانمرك كانوا يستعدون لشن الغارة على بعض بلاد الاسوجيين بينما كانت دول اوربا اذ ذاك عاملة على محاربة بعضها بعضاً فكان القتال واقعاً بين ممالك اسبانيا والبرتوغال وايطاليا وفرنسا والمانيا والفلمنك والانكليز بسبب ولاية عهد كارلوس ملك اسبانيا وجميع الدول الشمالية قائمة على بلاد كارلوس تعيث فيها وتستولي على اهمها ولم تبقَ دولة مستريحة وتاركة السلاح الاَّ الدولة العلية العثمانية ومع ذلك فانها دخلت اخيراً ميدان الحرب مع بطرس بينما كان يرتع في بحبوحة المجد والفخار بسبب انتصاره على كارلوس وفوزه المتقدم الذكر وبذلك لم تبقَ دولة بعيدة عن الحروب متخلية عنها فاما ان تكون في ساحة القتال واما ان تكون عرضة للخطر ولاضرام نار القتال

المقالة الثانية

الفصل الاول

في وقوع القتال بين الدولة العلية وبطرس الكبير عند نهر البروث

لم يكن المقصود من فتح الحرب من الدولة العلية على بطرس بسبب تحريضات كارلوس الثاني عشر كما زعم بعض المورخين بل ان خان تتار القريم خاف سطوة الروسيين وباسهم فالتجأ الى ساكن الجنان السلطان احمد الثالث وسالهُ المساعدة ورأى حضرة السلطان ان سفن بطرس تتقوى في بحر ازوف وقلاعهُ تتشيد في مدنهِ وعند ثغر تنغروك متاكداً ان قصدهُ بذلك لم يكن كما زعم اي انهُ لا يقصد الاخلال والتعدي على بلاد الدولة العلية فحسبت حساب الاستقبال ومالت الى كبح مطامعهِ ومنع تعديهِ · وقد اخطأ ايضاً من زعم ان الدولة العلية طلبت الى بطرس ان يدفع الى كارلوس الثاني عشر مبلغاً من النقود في مقابلة ما خسره في واقعة بلطافا لان كارلوس لم يكن سلك مسلك الحكمة لدى الباب العالي كما انهُ

لا يمكن صدور هكذا طلب او تعدٍ من الدولة العلية فتحارب جارها بدون سبب بداعي طلب ملك اجنبي غير ان خان التتار ذهب الى بندر واجتمع بكارلوس ووقع بينهما الاتحاد والائتلاف لما لها من المصلحة في مثل هذه الحرب لكون بطرس كان قد نزع كثيرًا من املاك الاثنين

وكان اول امر بدأَت بهِ الدولة العلية من اسباب الحرب انها قبضت على تولستوفي سفير روسيا لديها وعلى ٣٠ من اتباعهِ وخدمهِ ووضعتهم في قلعة مخصوصة تحت الحفظ ولم تكن الدولة العلية ملامة بذلك لانهُ لم يكن من معاهدات بين الدول ودولتنا العلية كما في يومنا هذا تحفظ حقوق السفراء وغيرها من محاربيها ولا سيما ان الدول كان لها سفراء في القسطنطينية ولم يكن للدولة العلية سفير لدى عموم الدول كما فعلت بعد ذلك ولهذا كانت تعتبر السفراء اعتبارها لتجار الفرنج . وقد اصيب بطرس بظرف سنوات قلائل بثلاث اهانات من قبل سفرائهِ فان سفيره في مملكه بولونيا وهو بطقول حكم عليهِ بعقاب العجلات حيًّا فمات بأمر ملك اسوج وسفيره لدى ملكة الانكليز سجن لاجل دينهِ ولحق بهِ اهانة كبرى مع مسالمتهِ لتلك الدولة وسفيره في القسطنطنيه وضع تحت الحفظ حال فتح الحرب بين

الدولتين غير ان ملكة الانكليز كانت قد ارضت بطرس مرضاة اعادت اليهِ شرف سفيره واعترفت لهُ الملكة بخطائها وتعديها وكارلوس لقي بسبب حكمهِ على بطقول الدمار والخراب وسفكت دماء كثيرة غسلت ذاك العار الذي وقع عليهِ بذاك السبب غير ان حظ الدولة كان اشد من حظهِ فلم يتمكن فيما بعد من محو هذه الاهانة لعدم نجاحهِ في حربهِ مع الدولة العثمانية كما سياتي

وفي سنة ١٧١١ راى بطرس نفسهُ انهُ مضطرٌ الى ترك ميدان الحرب في الجهة الغربية ومباشرتها على حدود بلاد الدولة العلية فبعث في اول الامر بعشرة الاف مقاتل الى اقليم البغدان كانت في بولونيا وامر القائد شرمتوف ان يرحل من ليفونيا بجيوشهِ الى تلك الجهات واناط بالامير منزيكوف ملاحظات المهام والاستعدادات في بطرسبرج وتوجه هو الى موسكو ليامر بما يراهُ مناسبًا في شان هذه الحرب ولوازمها وفي ١٨ من شهر تموز (جوليه) ترتبت مشورة النواب واخذت فرق الحرس بالسفر وامر بطرس اولاد الامراء ان يصحبوه في هذه المرة ليتعلموا فن الحرب عند قتالهم من الرجال العثمانيين الباسلين وكان البعض منهم بمنزلة الانفار والبعض الاخر بمنزلة الضباط

وركب الاميرال ابرسكين بحر ازوف ولما تمم الامبراطور بطرس كل ما يلزم لمثل هذا الغرض وجه فكره الى اظهار امركاترينا التي كان قد اتخذها اليهِ منذ سنين اي منذ استيلاء جيشهِ على مرينبرغ وأبقائها عندهُ تحت عنايتهِ واهتمامهِ وقد علق قلبهُ بها واحبها محبة عظيمة حتى صار يرى من نفسهِ انهُ غير قادر على مبارحتها وانهُ من الضرورة ان تكون معهُ على الدوام لما يراهُ فيها من الحكمة واصابة الراي والميل اليهِ والاجتهاد بكل ما فيهِ مفسنهُ وراحتهُ وكان قد طلق زوجتهُ الاولى افذوكيا لابوكين في سنة ١٦٩٦ ولهُ منها ولدان وكان يرى في نفسهِ وجوب الطلاق في الطائفة النصرانية ببعض ظروف واحوال فوق العادة بحيث يكون الرجل مقيداً من جهة الاداب واللياقة وحرّاً من جهة الاميال والافكار والمعاملات فوافق طلاقهُ هذا حبهُ لهذه الشابة اي كاترينا التي كانت تقاسمهُ الاهوال والمشاق وتسليهِ على كل ما يلمُّ بهِ من الهموم بما تبديهِ لهُ من الملاطفة والمؤانسة الصادرة عن وفور عقلها ولطفها ولين جانبها وهي لا تعرف ولا تحب التنعم والترفه كغيرها من النساء ومما كان يزيد بطرس فيها محبة انحصار حبها فيهِ وميلها اليهِ وتركها كل معاشرة او موانسة او ملاطفة لغيره حتى كانت لا تبسم بوجه

شيره قط غير تبسمها الذى استحسان اعمالهِ او تبسمها عند مقابلتها المحتاجين والقاصدين رفدها . وبالجملة ان هذه الامرأة صارت مما لا بد منهُ لبطرس حتى انهُ تزوجها سرًّا في سنة ١٧٠٧ دون ان يطلع احد على ذلك بعد ان ولدت لهُ بنتين وبعد ان تزوجها بسنة ولدت لهُ بنتًا ثالثة . وبقي زواجه بها مكتومًا الى يوم سفره الى محاربة الدولة العلية فاصحبها معهُ وسافر بها علنًا بمرأى من جميع رجالهِ حيث كانت تسير راكبة كملكة مهتمة برجالها غاية الاهتمام تقاسمهم الشقاء والهناء

واناط بطرس حاكم القوزاق بقتال التتار الذين كانوا اخذوا بتخريب اوكرينا وسار جيش روسي عن طريق بولونيا يقدمهُ الامير غالتزين وفيما هو سائر صادف في طريقهِ بالقرب من كياف جمًّا غفيرًا من التتار ومعهم قوم من القوزاق جماعة مازيبا وبعض البولونيين من حزب ستانسلاس وقليل من الاسوجيين ففتك بهم وهزمهم شرَّ هزيمة واهلك منهم خمسة الاف رجل وقد وجد مع التتار نحو عشرة الاف اسير كانوا قد استاسروهم من البلاد المعروفة بسواحل الذهب واوثقوهم بالحبال فاطلقهم الامير غالتزين وضرب رقاب من اسره من التتار وسار اوغسطوس من بولونيا الى مدينة بورسلو الواقعة على نهر سان

للاجتماع بالامبراطور بطرس ولي نعمتهِ اثناء مروره من هناك وحالما صادفهُ وعده بامدادات غزيرة وعاهدهُ على محاربة الدولة العلية غير ان هذه المعاهدة لم تكن نافذة لان اوغسطوس بعد رجوعهِ عرضها على مجلس مشورتهِ فنقضها وقرر عدم معاضدة بطرس وامدادهِ اجتنابًا لوقوع الشقاق بينها وبين الدولة العلية فاصبح اوغسطوس غير قادر ان ينفع حليفهُ بشيء من الاشياء

وكانت الدولة العلية تخاف انضمام ولايتي الفلاخ والبغدان الى الروس لان اكثرها من الصقالبة من جنس الشعب الكثير في روسيا وكان الحاكم على البغدان خانتمير وعلى الفلاخ بسربا وكانا متوليين من قبل الدولة العلية حيث كانت البلاد في حوزتها . فلما شهرت الحرب ومشت الجيوش الروسية عاهدا الروسيين على الدفاع والانضمام غير ان الاخير نقض هذه المعاهدة حالاً ولبث على طاعة الدولة العلية وخان وعدهُ وعهدهُ لبطرس حتى ان الزاد والمدد اللذين كان قد وعدهُ بهما ارسلهما الى الجيوش العثمانية

واما الجيوش العثمانية وقدرها مائة الف مقاتل فانها اجتازت نهر الطونه تحت قيادة وزير الدولة العلية المعروف

ببلطجي محمد وقصد عاصمة البغدان محاذيًا في سيره نهر البروث الذي يصب في الطونه ومن هناك ارسل الوزير بلطجي محمد بونياتسكي الى كارلوس يسالهُ الحضور عندهُ لاجل الزيارة ومعاينة الجيوش العثمانية وكان هذا الكونت من البولونيين احزاب كارلوس فسار اليهِ وبلغهُ كلام حضرة الوزير فابت نفسهُ الاجابة وقال للكونت قل لهُ ان ياتي هو اولاً لزيارتي في مدينة بندر فازورهُ بعد ذلك وقد فضل كارلوس السلوك في طريق الكبر على صالحهِ وخيره فعاد بونياتوسكي واخبر الوزير بامتناع كارلوس فغاظهُ ذلك وقال لخان التتار ان كارلوس رجل عنيد وعناده هذا يوخر في مصلحتهِ واني لست بمضطر الى زيارتهِ فلندعهُ وشانهُ

وفي تلك الاثناء اجتاز بطرس نهر الدنيبر ليسير لمساعدة شرمتوف في جنوب مدينة يسي على شواطي نهر البروث خوفًا من ان تحيط بهِ عما قليل العساكر العثمانية وغيرها من التتار ونحوهم الذين انضموا اليها وكان كما تقدم ترافقهُ زوجتهُ كاترينا راكبة فرسًا مثلهُ تعرض بنفسها الى الاخطار وحرارة الشمس وبرد الليل كانها واحد من تلك العساكر وهي تسلك معهم مسلك الشجاعة والحزم بما يقويهم ويشرح صدورهم وتزور المرضى

وتعاملهم بالطلف فتخفف من اوجاعهم . وقصارى الامر فانهم وصلوا الى مدينة يسي وكان بسربا والي الفلاخ بقي في عزمهِ الاصرار على طاعة الدولة العلية الاَّ انهُ قصد ان يغش بطرس بهِ فاظهر لهُ انهُ لا يزال على عهدهِ وانهُ يسعى فيما فيهِ مصلحتهُ فلم تخفَ على بطرس حالتهُ وطلب اليهِ دفع المهمات والذخائر التي كان وعدهُ بها فلم يجبهُ وكذلك خانتمير فانهُ رفض طلبهُ ولم يمدهُ قط بشيء ولذلك راى بطرس ان حالة جيشهِ تسير الى الخراب والدمار وان من كان يركن اليهم قد خانوهُ حتى اصبح في مركز صعب وتخلوا عن جيشهِ حال احتياجهِ اليهم وفوق كل ذلك فان الجراد كان ينزل في تلك الارض اسرابًا اسرابًا فيضر بمزروعاتها حتى كان يهلكها عن اخرها وكان بطرس لا يبعد عن بندر المقيم فيها كارلوس الا فراسخ قليلة وقد سارت فرق من القوزاق الى تلك الجهات غير انها لم تتوصل الى المدينة لان تتار القريم الذين كانوا يتجمعون في معسكرات جعلوا كارلوس بامان من غارات اعدائهِ وهو في تلك المدينة وبعد ان اتخذ بطرس مخازن لمهماتهِ ومؤنهِ سار في الشاطي الايمن من نهر البروث قاصدًا ان يمنع عساكر الدولة العثمانية التي كانت معسكرة في اسفل النهر عند الشاطي الايسر ان تجتازهُ لتقدم اليهِ

وبذلك يقدر ان يثبت سيادتهُ على الفلاخ والبغدان·
وبعث في مقدمتهِ ابانوس على الحرس الوطني فلم تصل تلك
المقدمة الا بعد ان كانت عساكر الدولة العلية قد اجتازت
النهر وفاجأَت هذا القائد واطلقت عليهِ النار فتاخر الى ان
جاء الامبراطور بطرس برجالهِ وعسكر في تلك الناحية امام
عساكر الوزير العثماني وكان مع بطرس اوانئذٍ ٢٧ الفًا فقط
وباقي جيشهِ الذي كان اقل من هذا المقدار كان قائمًا خلف
جبال البلكان وهو لا يقدر على الانضمام اليهِ حيث ان العساكر
العثمانية قد اقامت في الوسط تمنع اجتماع جيش بطرس بهذا
الجيش ومن هنا يظهر ان بلطجي محمد كان على خبرة عظيمة
بالحرب وقد سلك مسلك الحزم والتبصر حيث اجتاز نهر
البروث بسرعة وقطع الاتصال بين الجيوش الروسية وضيق
على بطرس حتى صار لا يرى لهُ ملجأً يلتجيء اليهِ وقطع عنهُ الماء
والزاد وجعلهُ عرضة لرمي كرات المدافع التي كانت قائمة على
الشاطي

ولم تخفَ على بطرس الحالة التي كان واقعًا فيها ورأى نفسهُ
اسوأَ حالة في هذه الواقعة من كارلوس في واقعة بلطاوا حيث
كان الجيش الذي يضيق عليهِ هنا هو اكثر بكثير من جيشهِ

الذي كان يضايق بهِ كارلوس فضلاً عن قلة الزاد والمجاعة الحاصلة في معسكرهِ ولذلك قصد الرجوع الى يسي للالتجاء هناك على امل ان يصادف طريقة تقيهِ من اخصامهِ ويحصل على الزاد والمون فارتحل بمعسكره ليلاً في ٢٠ تموز (جوليه) غير ان العثمانيين شعروا بهِ فادركوا موخرتهُ عند طلوع الفجر وضربوها بالنار فدافعت فرقة المحافظة اعظم دفاع واتخذوا ما معهم من العربات والامتعة متاريس ومع كل ذلك فانهم تاخروا وانهزموا دون ان يتفرقوا بل بقوا منضمين بعضهم الى بعض ثم عادوا القتال مرة ثانية فدافعت العساكر الروسية مدافعة الابطال كما ان العساكر العثمانية كانت تقاتل ببسالة لا مزيد عليها ومع انها كانت تزيد عن المائة وخمسين الفًا كان لا واحد منها يتاخر عن القتال وقد فقد منها في تلك الواقعة نحو سبعة الاف رجل لقتالها ثمانية الاف من حرس بطرس الذي ثبت كل هذا الثبات وفقد من عساكر بطرس نحو ٥١ الفًا ٠ وبعد هذه المعركة الهائلة انفصل الجيشان مدة الليل وكانت عساكر الروسيين لا تزال في حالة ضنك وضيق من قلة الماء والزاد وان كانت قريبة من نهر البروث الا انها كانت لا تقدر على الوصول اليهِ وكان كلما قصدت فرقة من الروسيين الاتيان الى النهر لاجل الماء امطرت

عليهم مدافع العثمانيين الموضوعة عند الشاطي امطاراً من الحديد والرصاص المحمول على عواتق النار فيرجعون القهقرى . وحسب بطرس لما هو واقع فيهِ حساباً عظيماً وشعر بوقوع مصاب جسيم وعرف انهُ اذا عاد في اليوم الثاني الى القتال يعرض بنفسهِ وبزوجتهِ وبسائر جيوشهِ الى الهلاك وانهُ لا يرى امامهُ الاَّ امرين وهما اما الموت واما الاستئسار وقد عظم عليهِ هذا الامر جدًّا وايقن بالوبال فدخل خيمتهُ ليجمع حواسهُ وامر حرسهُ ان لا يدع احداً يدخل عليهِ وبعد دخولهِ بقليل جاءَت زوجتهُ كاترينا فبلغها الحرس امر الامبراطور فقالت اي امر ينفذ فيَّ وهو في مثل هذه الحالة ثم دخلت بالرغم عن امرهِ ولما راها لم يصعب عليهِ دخولها ووجد من نفسهِ انهُ محتاج اليها وبعد ان حيتهُ عرضت عليهِ مساعدتها وقالت لهُ اني اعلم ان العثمانيين لا يصرون على العناد وانهم يرغبون في الصلح اذا سهلنا لهم ترضيه حسنة فهم لا يطمعون في بلادنا بل يطلبون حفظ ناموسهم وارجاع بلادهم ومن الصواب ان نوافقهم في كل ما يطلبون واني اخذ على نفسي العهدة بفض هذا المشكل وارضاء خاطر الوزير العثماني فسرَّ منها بطرس وفوض اليها تدبير الامر فاخذت في الحال مقداراً من الجواهر كانت قد استصحبتهُ معها

في هذه السفرة وفروين اسودين من جلود الثعالب وجمعت ايضًا مبلغًا من النقود واعدتهُ لكاتب اسرار الوزير وانتخبت بنفسها ضابطًا حكيمًا فطنًا حاذقًا واصحبتهُ بخادمين ودفعت اليهِ الجواهر والفروين وقالت لهُ سلم هذه الهدية الى الوزير بلطجي محمد واعطهُ ما اعدتهُ لكاتب اسراره وامرتهُ ايضًا ان يسلمهُ اليهِ وسالت الجنرال شرمتوف ان يكتب كتابًا الى حضرة الوزير يعرض عليهِ الصلح ويسالهُ اقتراح شروط تكسب الدولة العثمانية الشرف والفخار وينال بها هذا الوزير عند عظمة السلطان الحظوى وعلو المقدار وان لا تسام الدولة الروسية من المذلة والعار ما يسقطها من درجة الاعتبار وكانت كاترينا لمزيد فضلها ووفور عقلها قد دبرت هذا الامر على وفق المطلوب في وقت كانت بهِ الجيوش الروسية من كبيرهم الى الصغير يرون انهُ لا بد ان تدور عليهم الدوائر وتحل بهم المصائب

وسار الضابط الروسي بالهدايا والكتاب والمدافع تضرب من العثمانيين بدون انقطاع على الروسيين وفي ماحولهم ولما مضى عليهِ عدة ساعات ولم ياتِ بجواب من الوزير ظنوا ان رسولهم هلك بضربة مدفع او حجزه العثمانيون فالحقوه برسول آخر يحمل كتابًا آخر نصهُ كنص الكتاب الاول وخافت

كاترينا من عدم نجاحها بتقرير الصلح فالفت مجلساً من الضباط والقواد العظام وعرضت لهم امر تدبير الخلاص وبينت لهم الصعوبات الواقعين بها امام عساكر الباب العالي · فقرّر ذاك المجلس الحربي قراراً ما لهُ اذا لم يقبل الوزير بما عرضناه عليهِ اجتمعنا وضربنا العساكر العثمانية المحيطة بنا من جهة واحدة وفتحنا طريقاً للخروج منها او نهلك ولا نسلم انفسنا وملكنا وبناء على ذلك اقاموا متاريس من امتعتهم وعجلاتهم وتقدموا نحو العثمانيين مقدار مائة قدم وفيما هم على مثل ذلك سمعوا انقطاع المدافع العثمانية عن الانطلاق دفعة واحدة فشعروا بالكف عن القتال ورجحوا جانب الفوز وذلك ان الوزير كان قد نشر اعلاناً في جيوشهِ بالرجوع عن القتال

ولما لم يوافق هذا العمل مشرب الاسوجيين نسبوا الى هذا الوزير قلة المروءة والخيانة والرشوة مع ان منصب الوزارة في الدولة العلية هو اجل منصب واعظم وسيلة للسعة والرخاء حيث يكون مرتب الوزير كافياً لاكثر من مصاريفهِ بكثير فلا تطمح نفسهُ الى ما يتهمهُ بهِ اصحاب الغايات وهذا ليس جارياً فقط في الدولة العلية بل في كل ممالك العالم فان الاسوجيين اتهموا وزيرهم بيبير بانهُ اخذ مبلغاً من النقود من سفير مملكة

الانكليز ليحرض ملكة على مداومة قتال بطرس واتهموا ايضًا بعض وزراء الفرنسيس بانهُ لم يعقد معاهدة اشبيلية الا بالرشوة وقد يندران اكابر تلك الوزراء يسلكون تلك المسالك التي تضرُّ بمقامهم وتؤذن بدناءة نفوسهم . ومن المقرَّر ان خيام بلطجي محمد كانت مملوءة مما لا يحصى من انواع الخيرات الدالة على السعة والرخاء بخلاف معسكر بطرس فانهُ كان خاليًا من كل هذه الاشياء وكانت ظروف الحال والانسانية والمرحمة تستدعي ان هذا الوزير الخطير يمنحهم العطايا ولا ياخذ منهم رشوة وما بعثتهُ اليهِ كاترينا كان على سبيل الهدية لا الرشوة فقد دفعهُ الى كاتب سره الضابط الروسي على رؤوس الاشهاد وبمحفل من الناس وبحضور الجنرال بونيا توسكي الاسوجي واحد ضباطهِ الذي كان بوظيفة ترجمان بين الضابط الروسي والوزير الاعظم وهو نفسهُ كتب الشروط واستفسرها من الفريقين . ولكن الذي حمل الوزير على الصلح وقبول الشروط هو عدة اسباب اولاً انهُ كان لا يعلم بما هو واقع من القحط والمجاعة في عساكر اعدائهِ حيث كانوا يخافونهُ ويتظاهرون بعكس ما هو واقع عليهم وثانيًا عرف ان الجنرال رينة قائد الجيوش الروسية في البغدان اجتاز ثلاثة انهر حتى وصل الى قرب

الطونه واستولى على مدينة براهيلا وعليها حاكم من قبل الدولة العلية وعرف ايضاً ان فرقة اخرى روسية قدمت اليهِ من جهة مملكة بولونيا . والامر الوحيد الذي قاده الى المصالحة معرفتهُ بميل مولاه السلطان الى حقن دماء العباد ورغبتهُ فقط في تقرير الصوالح العثمانية لا غير وليس لهُ رغبة في الدخول بما يذل بطرس ويرقي كارلوس اذ ان هذا ليس من واجبات الانسانية ان يتعرَّض الى ملك فاز على خصمهِ بطرق عادلة . والمقصد الوحيد من اتيانهِ الى هذه الحرب اعادة المدن والمرافي التي اخذها الروسيون قديمًا لدولتهِ وسد مدخل بحر بنطس وخليج القسطنطينية على الدوام في وجه ملك مولع بالفتوحات وكثرة الانشاءات . وكان يؤكد هذا الوزير العاقل ان مصلحة التتار وعدم رغبتهم بالصلح هي ليتمكنوا من السلب والنهب في حدود المملكة الروسية و بولونيا وان مصلحة كارلوس الانتقام من عدوهِ بطرس وكلتا المصلحتين لا توافق الدولة العثمانية . وكانت شروط الصلح هي الاتية باختصار وقد وقع عليها في قرية يقال لها ملكستان على شاطئ البروث . ان الفريقين اتفقا على ان مدينة ازوف وسائر اراضيها ترجع للدولة العلية العثمانية بما كان فيها الذخائر والمدافع قبل

تغلب بطرس عليها سنة ١٦٩٦ وان مينا تنغروك الواقعة على بحراز وف تهدم وكذلك مينا سمارا التي على نهر سمارا مع عدة قلاع صغيرة واقعة هناك واضيف الى تلك المعاهدة بند يتعلق بكارلوس وحاصلهُ ان هذا الملك اذا عاد الى ملكهِ لا يتعرض لهُ بطرس بارهابٍ وتهديد ومتى اراد عقد الصلح بينهما فلهما ذكر في غير هذا المحل . فعبارة هذا البند يظهر منها ان الوزير لا يزال يتذكر كبر كارلوس وعظمتهِ ولذلك اراد ان لا يتداخل بامره لكن مرضاة للشرف شرط على بطرس ان لا يتعرَّض لهُ اذا شاء الرجوع الى بلاده . وان يوخذ شافيردوف وشرمتوف كرهينة الى حين انفاذ مآل المعاهدة

وحالما عقدت الشروط بين المعسكرين بادر الروسيون الى ابتياع الزاد والمؤَن من العثمانيين لسد مجاعتهم وتسهل لهم الوصول الى النهر للاستقاء وانتشر خبر السلام ولما كان الوزير بلطجي محمد يتذكر ان خانتمير والي الفلاخ قد خان دولتهُ واتحد مع بطرس سال بطرس في ان يسلمهُ اياه فحاول تسليمهُ وان كان يعلم ان ذنبهُ مع دولتهِ كذنب مازيبا مع القوزاق معهُ الا انهُ كان قد حكم على مازيبا بعقاب الموت وهو غائب ونشر ذاك الحكم دون ان ينفذ في المحكوم عليهِ وهذا

كانت لا تقبل بهِ الدولة العلية اي انها تحكم بالتصور وتنفذ الحكم بالهواء دون القبض على المجرم ضدها من اتباعها ولذلك كرَّر الوزير الطلب وان يسلم اليهِ خانتمير فاجاب الامبراطور اخيرًا بما معناه . انهُ ليهون عليَّ ان اتنازل للدولة العلية عن جميع الاراضي الممتدة الى ايالة كورسك (وهي من الولايات الروسية) ويبقى عندي امل استرجاعها وفتحها ثانيًا من ان اسلم خانتمير واثلم عرضي اذ لا يسعني هتك حرمة الذمام ومن الواجب ان يختص معاشر الملوك بشرف العرض قبل كل شيء وشرف الذمة وهذان محفوظان عندي ولذلك لم يسلم قط خانتمير كما سلم اوغسطوس بطقول ليقتل ظلماً

ثم ان بطرس بعد ان كان قد امتنع عن الحضور الى ملاقاة الوزير العثماني حينما كان الحال يستدعي استعطاف خاطره والتمسك باهتمامهِ لانفاذ غاياتهِ بادر اخيرًا الى الذهاب بينما كان الامر قد انتهى والشروط قد عقدت وفات الوقت المناسب فلم يذهب الوزير الى لقائهِ بل بعث اثنين من الضباط العظام وخرج هو بضع خطوات فقط عن خيمتهِ . ولدى الاجتماع وقع بينهما بعض كلمات تحتوي على عتاب وملامة فقط غير انها كانت في غير محلها وقصارى الامر ان بطرس لم يستفد شيئًا في

هذه المرة مما كان يرجوه وحسب ان الحظ قد فقد منهُ تلك المدة
بعد ان خدمهُ زمانًا وقد قال ذلك لاحد وزرائهِ اني الوم
الدهر كيف الزمني الى الهرب والانهزام امام رجل كان في
الاصل يبيع الحلوى (شرمتوف) في بلطافا وجعلني اخيرًا
اهان من رجل كان في الاصل يكسر الحطب (وهذه مهنة
حضرة الوزير العثماني قبل تدرجهِ في سلك المعالي وذاك غاية
الفخر والشرف بانشاء المجد بالجد لا بالارث كما يزعم البعض
ان ليس من العدل الالهي ان يبقى مهملاً من كان فيهِ من
الاستحقاق ما يوهلهُ لركوب المناصب والجلوس عليها)

ولما بلغ شوكة السلطان الاعظم وجميع اهل الاستانة هذا
الصلح المجيد فرحوا فرحًا لا يوصف وانعم السلطان الاعظم على
كاتب اسرار الوزير الذي ذهب بصورة المعاهدة اليهِ برتبة
ميراخور باشا ولا يخفى ان مثل هذه المعاملة لا يستحقها الا من
اوجب محظوظية الذات الشاهانية وذلك يدل على رضاها من
تلك الشروط ومن عمل وزيرها وامنها بالرغم عن تنديدات
المنددين ورمي سهام اصحاب الاغراض

وصار كارلوس بعد ذلك يسلك مع ارباب ديوان
الدولة العثمانية مسلك الدسائس والفتن وبعد ان كان

يولي الملوك اصبح في الاستانة كاحاد الناس يقدم عريضات ومكاتيب الى اولي النهي والأمر فلا يقابل الا بالاهمال وعدم الالتفات وعمل على الشكوى على بلطجي محمد غير انهُ لم يتيسر لهُ ايصال عريضتهِ لجانب السلطان الاعظم ومع ذلك فلم يفتر ولا رجع عن غايتهِ بل داوم هذا العمل الى ان اوجب الامر اخيرًا غيظ السلطان فقطع عنهُ المرتب الذي كان يدفع لهُ من مكارم الدولة العلية وقيمتهُ الف وخمسمائة فرنك في كل يوم وكتب اليهِ الوزير من باب النصيحة يامرهُ بالخروج من بلاد الدولة

الفصل الثاني

في

حوادث عقيب واقعة البروث

هذا وبعد الكف عن القتال والانقطاع وتقرير الصلح التام قبض اثنان من التتار على ضابطين ايطاليين كانا في الجيوش الروسية وارادا بيعهما لاحد ضباط الانكشارية فعاقب هذين التتاريين بالقتل لارتكابهما ما يخل بالامن والهدء واطلق سراح الايطاليين حتى اعجب بهِ بطرس وشكر من هذا الوزير

وقال اني لا الوم الدولة العثمانية فانها اشد الناس صرامة عند الخصام واكثرها رحمة عند السلام جازى بالقتل رجلين عاملا باهانة بعض الداخلين في قومهِ والمتطوعين في رجالهِ

وعند نهاية الشروط سار بطرس بجيوشهِ من طريق مدينة يسي حتى وصل الى ضواحي ممالكهِ واذ ذاك بادر الى اجراء بعض الشروط المقرَّرة فهدم قلعة سمار وقلعة كامينسكا وشق عليهِ هدم مينا تنغرولك وتسليم مدينة ازوف وخصوصاً لان تسليمها يقتضي ان يكون بالمدافع العثمانية على الحالة التي استولى عليها الروسيون قبلاً ولذلك ماطل في ذلك حاكم المدينة وامتنع عن التسليم حالاً . فغاظ ذلك حضرة السلطان وحق لهُ ان يغتاظ وطلب من الوزير ان يتم المخابرة بتسليم المدينة والوزير يعده بها وحاكمها يماطل ويتعلل في ذلك فاوجب الامر عزل الوزير من منصبهِ فاغتنم اعداؤه كخان التتار وغيره هذه الفرصة وطلبوا الانتقام منهُ فاقتضت حكمة السلطان ان ولتهُ في احدى مدنها ولم يحصل ما كان ينتظره البعض من قتلهِ وحجز اموالهِ بزعم انهُ ارتشى من الدولة الروسية بل كان السلطان يعهد فيهِ الامانه والنصح وانهُ اخذ اعظم قواد الروس رهينة على انفاذ المعاهدة ولم يقصر الا في امر واحد وهو تسليم المدينة وهدم

مرفا تنغروك قبل ان ينفرط كلا العسكرين من ساحة القتال
الا ان الوزير كان يعهد في بطرس الوفاء لما هو مشهور فيهِ من
حسن المزايا واستقامة الاعمال . واخيرًا راى بطرس ان من
طبيعة المصلحة و واجب الصدق القيام بما وقع عليهِ في معاهدتهِ
مع الوزير العثماني فطلب بعد مدة اخلاء مدينة ازوف
وتسليمها الى العثمانيين وهدم مرفا تنغروك الذي كان
صرف المبالغ الباهظة لتحصينهِ وتعزيزه و بعد ذلك جعل
السلطان نفسهُ الحكم عليهِ بين دولة الروس ومملكة بولونيا
وذلك انها طلبت من بطرس اخراج جيوشهِ من بولونيا وان
يدع كارلوس يمرُّ عائدًا الى بلاده . وكان خان التتار لا يرغب
الا في الحرب كمحترف لا يرضى الا دوام حرفتهِ فمنعتهُ الدولة العلية
وتعهد بطرس انهُ بمدة ثلاثة اشهر يخرج جيوشهُ من كل بولونيا
بشرط ان الدولة العلية تطرد كارلوس الثاني عشر من بلادها
فجرى ذلك دون ان تراعي الدولة العلية خاطر كارلوس في
جانب خاطر بطرس وكان الوزير الاعظم يوسف باشا الذي
خلف بلطجي محمد قد سلك مسلك سلفهِ في عدم انفاذ ارادة
هذا الملك ولذلك نسب اليهِ الاسوجيون نفس التهمة التي اتهموا
بها سلفهُ وهي الرشوة لانهُ لم يقم بطلب ملكهم ولم يراعهِ غير ان

العالم اجمع على ان السلطان سلك بين هذين الملكين مسلك الحكمة فترك الميل الى واحد والتحزب الى الاخر كما يريد اولو الاغراض

الفصل الثالث

في

زواج الكسيس بن بطرس واعلان زواج بطرس بزوجته كاترينا واجتماع هذه الامبراطورة باخيها

وكانت واقعة البروث على بطرس اشد شوماً من سائر مواقعهِ التي انكسر فيها لانهُ كان يعرف كيف ينتفع بتلك المواقع ولو تأخر فيها ويتخذ هزيمتهُ وسيلة لتعليمهِ ونفع جيوشهِ بخلاف واقعة البروث فانهُ بعد أن فقد بسببها ميناه وقلاعهُ في بحر ازوف حسبما اقتضتهُ مشارطة فلكسين (القرية التي وقع على المعاهدة فيها بالقرب من نهر البروث) واضطره الامر ان لا يكون لهُ سلطة ولا نفوذ مطلقاً في البحر الاسود ولذلك صبر على كبح مقاصده ووجه بكل اعمالهِ الى داخلية بلاده وما تحتاجهُ من الاصلاح والتحسين ووجد نفسهُ ايضاً انهُ باضطرار الى ادمان

الفتوحات في البلاد الاسوجية وتمكين سلطة حليفهِ اوغسطوس في بولونيا وذلك يتم لهُ بملاطفة معاهديهِ ومحالفيهِ فلا ينفصلون عنهُ ابدًا . وحيث كان ما لحق بهِ من التعب والكدر اضر بصحتهِ ذهب الى مدينة كرلسباد بولاية بويمة لاجل الاستحمام بمياهها وبينما هو في الاستحمام كانت جيوشهُ تحارب في اقليم بوميرانيا وقد حاصرت مدينة استرالسند واخذت خمس مدن من المدن الصغيرة وكان هذا الاقليم ابعد الاقاليم في جهة المانيا يحده من الشرق بروسيا وبولونيا ومن الغرب اقليم برندبرغ ومن الجنوب مكلنبرغ ومن الشمال بحر البلطيك وقد تولى عليهِ عدة ولاة مختلفين قرنًا بعد قرن الى ان استولى عليهِ غسطاف ادولف بعد حرب ثلاثين سنة واعطى لهُ بحسب شروط وستفاليا ومن ثم اقام تحت ولاية اسوج . وكان مرام بطرس ان يجرد التاج الاسوجي عن جميع الاقاليم التي لهُ بالمانيا ولذلك اتحد مع منتخبي برندبرغ وهانوفر ومملكة الدانمرك وكتب ايضًا جميع ما يلزمهُ في مثل هذه الظروف ليكون سيدًا على بوميرانيا

قد تقدم معنا ان بطرس في اول امره اي في سنة ١٦٨٩ تزوج بافذكسيا ثيودورة وهو ابن ١٧ سنة فكانت هذه المراة قد نشات متعودة على اوهام ابناء وطنها فلم يكن فيها صلاحية

لان تحسب ملكة لروسيا وتسري على الاميال التي كان بطرس يريد ان يعود شعبهُ عليها فكانت وسيلة للمعارضات والمناقضات التي كانت تقف في طريق اعمال زوجها وما ذلك الا لتسلط الاوهام الفاسدة عليها وتمكنها منها على ما هو الغالب في امثالها من النساء الضعيفات العقول وكانت ترى ان جميع ما جددهُ زوجها من الاعمال النافعة ناتج عن الكفر والالحاد كما انها كانت تستقبح كل الاستقباح ادخال الاجانب في حكومتهِ. وكان اعلانها بالتظلم والتشكي من ذلك يقوي أهل التعصب ومحبو المحافظة على العوائد القديمة فلم يرَ بطرس بدًّا من طلاقها وحجرها في احد الاديرة فطلقها في سنة ١٦٩٦ ونظمها في سلك الراهبات في دير بمدينة سوسدال. وكانت قد ولدت لهُ في سنة ١٦٩٠ غلامًا سيء الحظ وهو الكسيس حيث تربى على اطوار امهِ حال صغره وتشرب منها كل مزاياها وقد نيط بحضانتهِ لسوء حظهِ وتربيتهِ اناس من ذوي الجهالة والاوهام الفاسدة. وكان بطرس يظن انهُ لدى بلوغهِ اشدهُ يسدُّ ذلك الخلل بتهذيبهِ وتعليمهِ عند اساتذة من الاجانب فلم يصب في ذلك لانهُ نشأ كامهِ لايحب الاجانب غير انهُ تعلم بعض لغة النمسا ودرس الرياضيات وفن الرسم فقط وصرف كل اهتمامهِ

في مطالعات كتب القسوس فاعتقد بمجرَّد مطالعتهِ اياها ان كل اعمال ابيهِ تستوجب اللعن والطرد حتى كان ينقاد الى القسوس الذين يضادون مشروعات ابيهِ وادخلوا في ذهنهِ ان عموم الامة الروسية تعتقد ان اعمال ابيهِ مخالفة للدين فلذلك كان يحسب ان يسلك المسلك المخالف لارادتهِ على زعم انهُ يرضي بذلك الامة الروسية

فلما راى اباهُ قد جاء بالذرية من كاترينا واتخذها سرًّا في سنة ١٧٠٧ ازداد حنقًا وبقي كاتمًا في صدره هذا الامر الى سنة ١٧١١ بعد واقعة البروث السالفة الذكر وعمرهُ اذ ذاك ٢٢ سنة ولم يكن قط معروفًا ببلاد اوربا غير ان بعض السفراء كتب عنهُ فقال في وصفهِ انهُ طويل القامة معتدل السمن حسن التركيب اشبه الناس بابيهِ بسيط القلب والطوية متمسك بالاعتقادات الدينية قرأ الكتاب المقدس من اولهِ الى اخره خمس مرات ووعى كل ما فيهِ كثير التولع في مطالعة التواريخ اليونانية القديمة . ففي تلك السنة اي سنة ١٧١١ في ٢٥ تشرين الاول (اوكتوبر) زوجهُ ابوه باميرة فولفونبوتل اخت امبراطورة المانيا زوجة كارلوس السادس امبراطور المانيا وكان هذا الزواج بمدينة تورغو وهو على غاية من الشؤم حيث ترتب عليهِ

هلاك الزوجين كما سياتي ذلك في محلهِ · ومع ان كاترينا لم تحضر عقد هذا الزفاف اذ لم تكن معروفة بصفة ملكة عند عموم الدول ولا تسمح لها قوانين الكنيسة الالمانية ان توقع على ذاك العقد كملكة سيرها بطرس الى بطرسبرج واعلن زواجهُ بها وبتلقيبها بالامبراطورة كاترينا وانهُ سيلبسها التاج الروسي فيما ياتي من الايام بحيث لا تنقص درجة عن سواها من الامبراطورات وذلك مكافاة لها على خلاصهِ بحكمتها ودرايتها في واقعة البروث ونجاة ٢٢ الفًا من الروسيين الذين تبقوا معهُ بعد تلك الواقعة · واحتفل بذلك بنفسهِ وامر ان تبايع كاترينا من قومهِ وتنادى بالامبراطورة

فاظهر الاهالي من صياح المسرة والافراح ما برهن عن طيب نفوسهم وخلوص طويتهم ومحبتهم لملكهم خصوصًا لانهم راوا بوقت واحد تقريبًا ما شرح صدورهم وهوان ولي عهد تلك الامبراطورية الواسعة الذي لم يكن لهُ من الفخر الا عراقتهُ في الحسب والنسب تزوج باميرة هي كفوٌ لهُ وان امبراطورهم الفاتح رفع بالزواج الى سرير ملكهِ على رؤُوس الاشهاد امراة دخيلة سبيت في مدينة مارينبورغ لما لها من العقل والفضل وانقاد اليهِ بذلك الخاص والعام بمجرد استنارة عقولهم بالمعارف

والحكمة التي اتسعت دائرتها منذ اربعين سنة بحيث استفادوا منها ان ارباب المظاهر والشوكة لا يمنحون من التعظيم الاَّ ما كان ظاهرياً فقط بخلاف ذوي المعارف والخدمات النافعة الذين ينبغي الاذعان لهم بالتعظيم الحقيقي . ثم ان السعد الذي اسفر طالعهُ في هذا القسم من الدنيا عن مظاهر كثيرة لا تكاد تخفى على الابصار ورفع كاترينا من حضيض الحقارة الى اوج العلا خدمها ايضاً على وجه عجيب وذلك بعد اشهار زواجها ببضع سنوات

ومن عجيب الاتفاق ومما يستحق الذكر ما وقع بطريق التصادف مما ياتي ذكرهُ وهو ان رجلاً ارسلهُ اوغسطوس ملك بولونيا الى بطرس فمر في اثناء رجوعهِ الى مدينة درسدن على حانوت خمر في مدينة ميتو ورأى فيهِ رجلاً بهيئة رثة وثياب ممزقة يسخر منهُ الحاضرون ويضحكون عليهِ ولم يكن احد منهم يعرفهُ فسمعهُ يقول بحنق للهازئين اني لو وصلت الى الامبراطور بطرس لما امكن لاحد منكم ان يعاملني بمثل هذه المعاملة السيئة وربما وجدت في ديوانهِ ملاذاً قوي الشوكة . فوعى رسول اوغسطوس هذه الكلمات وتشوقت نفسهُ أن يسالهُ عن حقيقة امره فلما دارت المحادثة بينهما انتبه الرسول الى امرٍ في

الرجل الرث الهيئة وراى شبهة كلية بينهُ وبين الامبراطورة كاتريا وكان قد راها وشاهدها فاشغل هذا الامر بالهُ ولما وصل الى درسدن كتب الى بعض اصحابهِ بمدينة بطرسبرج فوصل الكتاب الى يد بطرس وفي الحال بعث الى الامير روبنين حاكم مدينه ريغا يامرهُ بان يبذل جهدهُ بالفحص والتفتيش عن هذا الرجل المذكور في الكتاب فبعث روبنين من قبلهِ من يثق بهِ في هذه المامورية الى مدينة ميتو قاعدة اقليم كورلندة فعثر بهِ واذا هو كارلوس اسكاورونسكي كان ابوهُ من وجوه لوثيانيا قتل في حروب بولونيا وترك ابنًا وبنتًا في المهد وفارق اختهُ وهو صغير جدًا ولا يعلم من امرها الا انها سبيت في مدينة مارينبورغ سنة ١٧٠٤ وانهُ يظن انها باقية عند الامير منزيكوف

فاحضر روبنين اسكاورونسكي الى مدينة ريغا متعللاً انهُ متهم بجناية ومطلوب لتحقيقها واصحبهُ بحرس عظيم الى مدينة بطرسبرج واوصاهم باكرامهِ وحسن معاملتهِ في الطريق ولما وصلوا الى بطرسبرج ذهبوا بهِ الى ناظر مطبخ بطرس واسمهُ سبليف وكان عالمًا بحقيقة الامر فاكثر من سوالهِ والاستفهام عن حالهِ وقال لهُ ان الدعوى التي طلبت لاجلها هي جسيمة جدًا

وربما كانت وجهت اليك بالغلط لكن اذا قدمت للقيصر بطرس عريضه عن شرح حالك واسمك وابن من انت واريتهُ نفسك فزت منهُ بالعدالة والانصاف

ولما حضر الامبراطور في اليوم الثاني عند سبليف على المائدة لاجل تناول الطعام قدم اليهِ اسكاورونسكي مع عريضة فاكثر من سوالهِ حتى تبين لهُ من سذاجتهِ انهُ اخو الامبراطورة لا محالة وانهما في صغرهما كانا باقليم لوثيانيا وان ما ذكرهُ لهُ من الاجوبة مطابق لما اخبرتهُ زوجتهُ مما يتعلق بنسبها وما وقع عليها في مبدإِ امرها من صروف الدهر وتقلباتهِ . وعند تحققهِ وتيقنهِ هذا الامر طلب من زوجتهِ في اليوم الثاني ان تذهب معهُ لمناولة الطعام عند سبليف وامر عند خروجهما من حجرة المائدة باحضار الرجل الذي كان يسالهُ بالامس فحضر لديهما وعليهِ ملابس السفر وكان بطرس لا يحب ان يظهرهُ الا على الحالة التي اعتاد عليها وربي فيها . فاعاد عليهِ السوال بحضور زوجتهِ ثم قال لها هذا اخوك لا محالة والتفت اليهِ وقال لهُ تقدم يا كارلوس وقبل يد الامبراطورة وعانقها فانها اختك فجرى ذلك في الحال ولحق بكاترينا من وقوع هذا التصادف بغتة اضطراب وقلق فسكن القيصر اضطرابها وقال لها خفضي عليك

الامر فهو سهل فان اخاك قد وصل اليك فان كان من احد المعارف وذوى اللياقة وجهت اليهِ بالخطط العالية والا فانهُ يقيم على الرفه والراحة . وهذا الكلام يؤْذن بالشرف والحكمة وقد اختلف في امر اسكاورونسكي فقيل انهُ مكث مدة مديدة عند سبليف وانهُ عين لهُ مرتبًا جسيماً وقد عاش بالعزلة منفردًا عن مخالطة الناس وقيل انهُ تولى ولاية وتزوج بامرأة عريقة ورزق منها بنتين تزوجتا برجلين من اعظم رجال موسكو . والوجه الاول هواصح واقرب للعقل لانهُ لم يكن من رجال المعارف ولم يتعلم قط العلوم بل عاش على الحالة البسيطة متروكًا من الناس ولو كان من ذوي اللياقة لعرف بما كان من امر اخنهِ قبل ذلك الحين ولكان ذكر في اثناء التاريخ الروسي في غير هذه الحكاية التي تقدم سردها

ولم يكن بطرس يفتر اسبوعًا عن الانشاءات والمنافع فانهُ بعد تلك الافراح بزواج ولدهِ واشهار زواجهِ صب كثيرًا من المدافع وانشأ سفن الامارة البحرية وتمم مجمع التجار وبناء المخازن وقوى تجارة بطرسبرج البحرية وامر بنقل مجلس شوراه الى بطرسبرج فانتقلوا اليها في شهر نيسان (افريل) وبذلك صارت تلك المدينة الجديدة عاصمة روسيا

الفصل الرابع

في

الاستيلاء على مدينة ستاتين وما كان من حوادث سنة ١٧١٣

ورأى بطرس ان السعد لا يزال يخدمهُ في كل اجراءاتهِ واعمالهِ وان كان قد خانهُ في محاربتهِ الدولة العلية الا انهُ كان ناجحًا في اكثر الجهات وفي اتفاقهِ مع محالفيهِ من الدول الذين جاروهُ على الايقاع باسوج وبما بقي لهم من البلاد بحيث تضعف شوكة هذه الدولة ضعفًا عظيمًا وتنحط من اوج الفخار الذي كان لها انحطاطًا كاملاً فوجه بقواه الى تلك البلاد وحمل حكومتي سكس وبولونيا على الانتفاع بهذه الفرصة وبما يمكنها من الاستيلاء عليهِ من البلاد الاسوجية . وكان كارلوس لا يزال في مدينة بندر وهو يومل انهُ يحمل ذات يوم الدولة العلية العثمانية على استئناف المحاربة والانتقام لهُ من عدوهِ مع ان الامن تقرر تمامًا بين الدولتين واصبح بطرس امينًا من جهة العثمانيين اذ لم يبقَ من سبب يحملهم على فتح الحرب ثانية . وسلك كارلوس ايضًا مسلك الكبر والعظمة مع اعدائهِ الذين تحالفوا عليهِ وتجمعوا للايقاع ببلادهِ وكان بوسعهِ تفريق هذه الجمعيات اذا

استعمل الحكمة والدراية وذلك بحصل بتسليم مدينة ستاتين لملك بروسيا وهو فردريك منتخب برندبرغ ويتلافى امره من جهة ثانية بمصالحة اعدائهِ كما فعل بطرس لدى شعوره بالغلبة امام الدولة العلية غير انهُ كان باقياً على كبريائهِ فبعث بامر الى مجلس شوراهُ ان يلاقي الاعداء من سائر الجهات براً وبحراً. ومع ان بلادهُ كانت تخلو من الرجال ومن القوات العسكرية تلقوا امرهُ بالقبول واعد مجلس الشورى في مدينة ستوكهلم اسطولاً حربياً مركباً من ١٦ بارجة كبيرة من ذوات الثلاث طبقات وجهزوا للحرب جنوداً من الاهالي وبذلك اصبح رعاياه الذين قاسموهُ سوء الحظ كلهم جنوداً مسلحة وحملهم على ذلك شجاعتهُ وكبرهُ . وبقي هو في مدينه بندر ينتظر نتيجة لما كان يبديه من الدسائس التي لا طائل تحتها

واما الروسيون والدانمركيون والسكسون فكانوا باقليم بولونيا وقد استصحب بطرس زوجتهُ في هذه المرة ايضاً فتغلب ملك الدانمرك على مدينة ستات من دوقية بوهيميا بينما كانت بقية الجيوش امام مدينة سترالسوند . ورأى ستانسلاس ان كثيراً من الاقاليم قد صار في حالة يرثى لها وان عودهُ الى سرير بولونيا صار في حيز المستحيل وان غيبة كارلوس الناشئة عن عنادهِ

وعدم تساهلهِ في امر مصلحتهِ يترتب عليها اختلال كبير لا يمكن اصلاحهُ جمع اليهِ القواد الذين كانوا يدافعون عن بولونيا من الاسوجيين بجيش مجملهُ ١٧ الفًا وهو اخر ما كان لهم من الوسائط في هذا الاقليم وعرض عليهم مصالحة اوغسطوس ملك بولونيا وانهُ يوثر ذلك على مصلحة نفسهِ وخاطبهم بذلك علنًا وكتب لهم رسمًا واستشهد عليهِ تسعة جنرالية احدهم كان ابن عم بطقول الذي قتلهُ كارلوس لسوء حظهِ بعقاب العجلات كما سبق ونص الكتابة المذكورة هي

اني لما كنت لا اريد ان اكون سببًا لضياع العساكر الاسوجية وتلفها وخسارة اسلحتها التزمت بالنزول عن طيب خاطر عن سرير مملكتي وتركت ما فيهِ نفعي ومصلحتي رغبة في حفظ كارلوس الذي اوصل نفسهُ الى شفير الخراب من اجلي ولا يزال مصرًّا على ارجاعي وان اجد في ذلك وسيلة كبرى لارجاعهِ الى ملكهِ ولتخفيف اثقال كثيرة عنهُ وهذا ما لا بد لي منهُ وقد اجريتهُ فعلاً

وبعد فراغهِ من هذه الاعمال سافر الى بلاد الدولة العلية املاً بانهُ يحمل كارلوس على ترك العناد والرجوع الى ملكهِ فصادف سوء حظهِ ان كارلوس قد وقع باسر الدولة العليــة

حيث ان عناده وكبرياءه حملاه ان لا يجيب حضرة السلطان على امره ويخرج من بلاده وقاوم ذلك ببعض خدمه وحواشيه وقاتل جيًا منن العثمانيين فقبضوا عليه وسجنوه مع انهم كان يحق لهم قتله على ما لحق بهم من اعماله غير انهم عاملوه بالرحمة وغضوا الطرف عن كل ما تقدم وحين وصول ستانسلاس قبضوا عليه وقرنوه الى كارلوس فاصبح هذان الملكان اسيرين في قبضة الدولة العلية وهما من اشد الناس عداوة لبطرس الكبير حليفها الجديد

وفي ذلك الوقت كانت اوربا بتمامها مضطربة وقد انهت فرنسا حربًا هائلة بشان ابن لويس الرابع عشر على سرير مملكه اسبانيا وانكلترا قد عقدت صلحًا مع فرنسا الى غير ذلك فكانت فرنسا تود ان يكون لا سوج انتفاع منها بسبب الفة قديمة كانت وقعت منذ القديم بين الدولتين غير ان كارلوس لبعده كان لا يعرف ما هو واقع في فرنسا بل كان يعلم انها عاملة على الحروب مع الانكليز والاسبانيول. ولما راى مجلس النواب بمدينة ستوكهلم ضعف حالة البلاد والخزينة وفراغها من الاموال استحسن ان يرسل معتمدًا الى فرنسا يطلب الامداد المالي من تلك الدولة على سبيل القرض فعينت الكونت دسبار احد اعيانها

فسار الى فرنسا وحكى في مجلس الشيوخ ما هي عليهِ دولتهُ من الفقر والاحتياج المالي حتى انها عجزت عن دفع مرتبات الجيش الصغير الباقي لها وحيث لم يكن لها من الانصار في كل اوربا غير فرنسا تستمد مساعدتها وان كارلوس الثاني عشر وان اهمل في ايام نصراتهِ مخابرات ملك فرنسا الان كرم لويس الرابع عشر يحملهُ على الاغضاء عن قصور حليفهِ. وحيث ان المملكة الفرنسوية كانت قد نفدت اموالها في الحروب واصبحت خزينتها فارغة لم تجب دسبار بشيءٍ ولا ساعدتهُ بغير التأسف فخاب من ذلك مسعاهُ وقطع الرجاء من نجاح حاجتهِ لكن اخيرًا مدهُ واحد من صيارفة باريس اسمهُ صموئيل برنارد وهو مولع بالمجد والفخار وانتشار الصيت بمبلغ مائتي الف ريال عاد بها لتدفع الى الجيوش عن رواتبها

وكان الكونت دستانبوك قائد الجيش الاسوجي لا ينتظر هذه الاعانة بل كانت لا تخطر لهُ ببال وكان قد وقع بارتباك عظيم مع جيشهِ حتى اشرف على العصيان فعزم على ترك السلاح وتفريق ذلك الجيش الذي كان يطلب اليهِ على الدوام دفع مرتباتهِ وهو يعدهم من يوم الى اخر وكان قد بعث رسولاً الى كارلوس وهو في بندر قبل اسره يعلمهُ بتصميمهِ على ترك السلاح

حيث ان العسكر الذي تحت امرتهِ لا يصبر عن قبض معينابهِ وإذا لم يدفعها لهُ يتفرق او يسلم الى العدو وبعد مسير هذا الرسول بثلاثة ايام وصلت اليهِ النقود التي جاء بها دسبار من فرنسا فالتقاه ككنز عظيم يتقوّى بهِ جيشهُ ورغبهُ بها ولملم قوته وعوّل على القتال وعدل عن ترك السلاح وسار من طريق ويسمار قاصدًا جيوش روسيا والسكسون والدانمرك المتجمعين بعضهم مع بعض وبقي سائرًا حتى وجد نفسهُ امام الجيوش الدانمركية والسكسونية وكانت قد تقدمت عن العساكر الروسية مسيرة ثلاثة فراسخ وقد بعث بطرس بثلاثة سفراء من قبلـــهِ الى ملك الدانمرك يرجوه ان لا يباشر القتال قبل وصولهِ اليهِ خوفًا من انهُ ينفشل ويخيب لكون العساكر الروسية تمرنت على قتال الاسوجيين فلم يرد ملك الدانمرك ان يصبر عن الحرب لكونهِ ترجح في ذهنهِ انهُ ينتصر على الاسوجيين ومن الواجب لمجدهِ ان لا يقاسم بطرس بفخار تلك النصرة ولذلك حمل عليهم في محل يقال لهُ غادومسك وظهر في هذه الواقعة ما كان بين اسوج والدانمرك من العداوة الطبيعية والكراهة الجبلية فكان كل من ضباط الفريقين يقاتل خصمهُ بغاية الشدة وفرط الصعوبة حتى يقعا الى الارض مائتين واجسامهما ممزقة بالطعن برؤوس

الخراب . وانتصر دستانبوك على الدانمركيين والسكسونيين قبل وصول الامبراطور بطرس بجيوش روسيا وارجعهم الى الوراء منهزمين

وفي تلك الاثناء رجع اليهِ رسولهُ الذي كان بعثهُ الى بندر بكتاب من كارلوس ينكر عليهِ ديه ترك السلاح ويطلب اليهِ مداومة الحرب ويذكر لهُ انهُ لا يسامح من سلك هذا المسلك الموجب للعار وانهُ في حالتي الضعف والقوة يحدث ما لا يكون في البال من وقوع الظفر او الهلاك . غير ان دستانبوك كان قد تدارك بالفوز مضمون هذا الكتاب ولم تكن هذه النصرة كافية لان تاتي بالمطلوب مع عساكر الاعداء التي كانت منتصرة في كل مكان بل كانت علة لسعي بطرس الى مداركتها وكبح دستانبوك . وبلغت هذه النصرة ملك اسوج فظن ان السعد قد وافاهُ وصلح حالهُ وزال اختلالهُ فزاد املهُ في ان يحمل الدولة العلية على فتح الحرب ثانية وبناء على هذا الامل بعث برسول الى دستانبوك يامرهُ بالتوجه الى بولونيا غير انهُ خابت مساعيهِ بحادثة بندر ووقوعهِ بيد الدولة العلية العثمانية كما تقدم معنا ذكرهُ

وبعد ان راى دستانبوك انتصارهُ هذا مال الى مدينة

صغيرة اسمها الطنا اهلها تجار وارباب صنائع ولم يكن من داعٍ لتخريبها وتدميرها غير ان دستانبوك امر باحراقها ليلاً وإبادتها بالنار عن اخرها فهلك بالنار عدة من اهلها والباقون فروا من وجه النار حفاة عراة ما بين شيوخ ونساء واطفال اهلك اكثرهم البرد عند مدينة همبرغ وكان هذا القائد الاسوجي من اشد القواد قساوة وميلاً الى التوحش والبربرة فلم يستفد من نصرتهِ الاَّ بهذا العمل البربري ثم ان بطرس جمع جيوش الدانمرك والسكسون واقتفى اثرهُ وضايقهُ حتى اضطرَّ الى الالتجاء هو واصحابهُ الى تونخ وهي قلعة هولستين . وكان الحاكم على بلاد هولستين ابن اخت كارلوس الثاني عشر وولي عهدهِ وحيث كان قاصرًا سلم تدبير امره الى عمهِ وهو اسقف لوبيك وكان هذا الاسقف يدبر دوقية هولستين تحت تصرف البارون دوغورتز المخادع ويذعن لارائهِ كل الاذعان وهذا البارون وافر العقل لهُ في اساليب التحيل مهارة واسعة لا يجد في الاشياء ما يبعد الوصول اليهِ ولا يرى في الامور ما يتيسر او يتعذر عليهِ بل كان يستسهل صعابها ويستقرب بعادها ويجعل لنفسهِ دخلاً في اعظم المداخلات ويقدم بجسارة كلية على اصعب المشروعات والذي يساعدهُ على ذلك حسن تحيلهِ باستمالة

القلوب واستحسان ارائهِ وما يبديهِ وكان لهُ من السلطة والنفوذ على كارلوس الثاني عشر ما جعلهُ يتطرف باعمالهِ حتى ضرب عنقهُ اخيرًا

وفي ٢٥ كانون الثاني (جنفيه) سنة ١٧١٣ اجتمع البارون دوغورتز سرًّا مع دستانبوك بمدينة ادزوم ووعده ان يسلم لهُ قلعة تونج بدون ان يتهم بالمداخلة مدبر هولستين وفي نفس الوقت افاد ملك الدانمرك انهُ لا يمكنهُ التخلي عن القلعة بوجه من الوجوه وذلك اثناء مداولات وقعت بين كلا المتجمعين وقواد الجيوش العظام . ولما اراد دستانبوك الدخول الى تونج امتنع حاكمها عن فتحها وادخال الجيش الاسوجي فيها غير ان دوغورتز قيامًا بوعدهِ كتب امرًا عن لسان الدوق القاصر ابن اخت كارلوس مضمونهُ ان لا يمنع الجيش الاسوجي من دخول القلعة المذكورة ووقع عليهِ ستامك كاتب سر الدوقية باسم الدوق الصغير واستمال بذلك حاكم المدينة بوجه السهولة فلم يمتنع عن تسليمها للاسوجيين فدخل بعضهم المدينة وبعضهم اقام تحت حماية قلعتها ومع ذلك لم ينجُ من الخطر فان دستانبوك اضطر ان يسلم نفسهُ اسيرًا مع ١١ الفًا من المقاتلين وقد اشترط على ملك الدانمرك ان يفدي نفسهُ بالمال هو ومن

معهُ من الضباط والانفار وعند حصولهم على المال وجعل فداء دستانبوك من ذلك ثمانية الاف ريال الماني لم يتمكن من فكهِ بل بقي اسيرًا في مدينة كوبنهاغن حتى مات

وبينما كان ملك الدانمرك يستولي على تونغ كان جورج منتخب هانوفريريد ان ياخذ دوقيتي بريمة ووردن ومدينة ستادن وكان ملك بروسيا يطمح بانظاره الى مدينة ستاتين والامبراطور بطرس يهتم للاستيلاء على اقليم فنلندة وبذلك اصبحت ولايات كارلوس الثاني عشر ما عدا العاصمة غنيمة تتقاسمها الاعداء . فكان غورتز يتفاوض مع اولئك الطامعين ويشتغل ليلهُ ونهاره بالذهاب من اقليم الى اخر فطلب من حاكم دوقيتي بريمة ووردن ان يسلم هاتين الدوقيتين الى منتخب هانوفر تسليماً موقتًا بينما يتقرر الراي بشانهما بمنع الدانمرك من الاستيلاء عليهما وسعى جهدهُ مع ملك بروسيا انهُ بالاتحاد مع هولستين يلتزم بجعل كل من ستاتين وويسمار تحت المخابرة ويكون ذلك واسطة لترك دوقية هولستين على حالة السلم والراحة ولا ريب ان خدمتهُ لكارلوس الثانى عشر على هذا الوجه من اغرب الخدمات حيث سعى بتسليم بلادهِ المذكورة لاناس كان في وسعهم الاستيلاء عليها وبقاؤها بايديهم على

سبيل التملك لا على سبيل الرهينة وكان غورتز يؤمل انهُ بعد ذلك يحمل هانوفر وبرندبرغ على الانضمام الى الاسوجيين ويكون لهُ شان عند باقي الملوك وكان يتصرف باملاك كارلوس كوصي يتصرف في جزء من املاك القاصر ليحفظ لهُ الجزء الاخر كل ذلك كان منهُ فضوليًّا بدون توكيل وتفويض الا من اسقف لوبيك فقط مع ان هذا الاسقف ايضاً كان فضوليًّا حيث لم يسمح لهُ كارلوس بشي من ذلك . وعقد مع ملك بروسيا ايضاً معاهدة تاذن بحفظ ما بقي من اقليم بوميرانيا لكارلوس الثاني عشر بشرط ان تبقى مدينة ستاتين رهينة بيده وبذلك عرض على ميرفلد حاكم بوميرانيا ان يسلم ملك بروسيا مدينة ستاتين ظانًا ان هذا الحاكم الاسوجي كحاكم تونغ الهولستيني ولم يعلم ان ضباط كارلوس الثاني عشر ما تعودوا على قبول مثل هذه الاوامر فاجابهُ ميرفلد ان لا سبيل لدخول احد المدينة الا اذا تدمرت وقتل هو وكتب الى كارلوس بمدينة بندر يخبرهُ بهذا الامر الغريب وبعث الكتاب مع رسول فوجدهُ الرسول اسيرًا في دمرطاش وهو اذ ذاك لا يدري هل يبقى اسيرًا عند الدولة العلية مدة حياتهِ او انها تنفيهِ الى بعض جزائر الارخبيل او اسيا . فبعث وهو في السجن الى ميرفلد يذكر لهُ ان الموت

اولى من التسليم وامرهُ ان يتاسى بهِ في الثبات وانفة المذلة
ولما راى غورتز ان حاكم ستاتين قد افسد عليهِ ما ربهُ
ولم يقبل بجعل المدينه رهينة بيد ملك بروسيا اضمر لها الشر
ونوى على تخريبها وكان لا يريد ان يقتصر على هذه المدينة فقط
بل قصد ان يعقد مشارطة مع ملك بولونيا في شان مدينة
سترالسوند فشاكل المشارطة التي عقدها مع منتخب برندبرغ في
شان مدينة ستاتين وكان يعرف جيداً ان الاسوجيين لا يمكنهم
حفظ هذين المحلين بدون اموال ولا رجال ما دام ملكهم اسيراً
عند الدولة العلية وكان يومل انهُ بواسطة الرهن المذكور يبعد
مصائب الحرب عن بلاد الشمال بتمامها وقد انتهى الحال
بالدانمرك ان رضوا بشروطهِ واستمال اليهِ بالكلية الامير منزكوف
قائد روسيا وخصيصهِ وبين لهُ ان لا مانع من تسليم هولستين
لسيده واستحسن منهُ بطرس ما ابداه لهُ من الراي من ان يحفر
خليجاً من هولستين الى بحر بلطيك حيث من المقرَّر انهُ كان
يفوق على ذلك الرجل المتطوع في طرق الحيلة فما ابداهُ
من الوسائل المتنوعة وظهوره بمظاهر التداخل كيف لا وهو انهُ
بعد ان راى احباط مساعيهِ في خلاص مدينة ستاتين حمل
منزيكوف ان يخربها ويطلق عليها المدافع ليجبرحا كمها ميرفلد

على الاجابة برهنها وتسليمها على الوجه السابق · ولما راى ملك
بروسيا ان جيشًا روسيًا يضرب ستاتين خشي أن تضيع منهُ هذه
المدينة غير ان غورتزجبرهُ بمداهنتهِ ان يستحسن ذالك وان يمد
منزيكوف حيث كانت النقود قد فقدت منهُ باربعمائة الف
ريال تقريبًا · ثم خابر حاكم المدينة وارسل لهُ هل من الموافق
ان ترى المدينة تحترق بالنار بيد الروسيين او تسلمها موقتًا
الى ملك بروسيا فيعيدها الى كارلوس عند وقوع الصلح والاتفاق
بينهما · فالتزم حاكم المدينة الى التسليم فسلمها الى منزيكوف
ومنزيكوف سلمها الى ملك بروسيا في مقابلة الدراهم التي
قبضها منهُ

ونزل السكسون امام مدينة ويسمار احدى مدن ملك اسوج
وذهب جيس من الروسيين والسكسونيين لمحاصرة سترالسند
وكذلك كان جيش من السكسونيين عند جزيرة روجن
وكان بطرس بعد ان دبر امر العساكر بنفسهِ امام سترالسند
وترك لحلفائهِ وللامير منزيكوف امر تدبير القتال خطر لهُ السير
الى فنلندة فركب في شهر ايار (مايس) سفينة من ذوات الخمسين
مدفعًا متبوعة باثنتين وتسعين سفينة من السفن الصغيرة
وعليها ستة عشر الف مقاتل ولدى وصولهِ الى البر توغل في

البلاد ونجح نجاحاً عظيماً وتغلب على مدينتي بورغو وايد وغيرها من المدن واستولى على جميع الساحل . وكانت الاعداء تعيث في بلاد كارلوس وما من جيوش قادرة على الدفاع والمحاماة عنها بينما كان كارلوس وستانسلاس اسيرين في يد الدولة العلية العثمانية

الفصل الخامس

في

تقدم الامبراطور بطرس ورجوع كارلوس الثاني عشر الى ملكه

وجاءت سنة ١٧١٤ وبطرس مشتغل بامر الفتوحات وقد تم اساطيلهُ وجلب الى بطرسبرج ١٢ الف عائلة للسكن فيهـا وكانت اساطيلهُ تتهدد بوقت واحد جميع السواحل الاسوجية الواقعة عند جوني فنلندة وبوثنية . وانتصر الجيش الروسي تحت قيادة الجنرال غالتزين على الجيش الاسوجي وبدد شملهُ بالقرب من تواسنوس من اقليم بوثنية وتوغلوا حتى وصلوا الى مدينة واسا بحيث يكونون قد استولوا من هذا الاقليم على مسافة ثمانين فرسخاً تقريباً . وبقي لاسوج جيش بحري يقاتل

عن البحر فاراد بطرس اظهار اساطيلهِ فجمع من بطرسبرج ١٦ بارجة كبيرة حربية و١٨٠ سفينة صغيرة تصلح للحرب في وسط الصخور المحيطة بجزيرة الند وغيرها من جزائر بحر بلطيك القريبة من ساحل اسوج الذي صادف بطرس فيهِ الاسطول الاسوجي وهو مولف من سفن كبيرة اكثر عدداً من سفنهِ وكان بطرس يخدم في ذاك الاسطول بصفة ربان ثالث للاسطول الروسي تحت امرة ابركسين اميرال الاسطول وكان يتلقى اوامره فيجري بموجبها كما تستوجب تلك الخطة وحيث كان من غاية الامبراطور الروسي الاستيلاء على جزيرة الند القريبة من بلاد اسوج كان مضطرًّا ان يمرَّ باسطولهِ على اسطول اسوج . فوقع القتال بين الاسطولين وطمع الاميرال الاسوجي بالفوز على السفن الروسية ورجح هذا الامر فحبط مسعاه عند مشاهدتهِ شدة اشتداد نارها وقد كسرت جانباً من سفنهِ الصغيرة واستولت على جانب آخر واخيرًا استولت على السفينة التي كان عليها واسرتهُ هو نفسهُ ودخل بطرس جزيرة الند وما بقي من الاسطول الاسوجي فرَّ الى ستوكهلم فلحق باهلها من ذلك خوف واضطراب عظيمان

وفي تلك الاثناء كان استولى الكولونيل شفالوب الروسي على قلعة واقعة على الساحل الغربي من فنلندة فادخلها تحت

حكم روسيا و بذلك اصبح بطرس مستوليًا على فنلندة وعهد بحكومتها الى الاميرغالتزين وكان ظافراً بجميع قوى اسوج البحرية وفي ١٥ ايلول (سبتمبر) رجع الى مدينة بطرسبرج اذ كان لا يقدر على الاقامة في تلك البلاد اكثر مما اقام وحين وصولهِ الى تلك المدينة ولدت الامبراطورة كاترينا بنتًا فرح بها فرحًا عظيماً وعليهِ فقد جدد من الرتب الجديدة رتبة القديسة كاترينا وجعل لهُ موسماً بعيد بهِ في كل عام تعظيماً لزوجتهِ وهذا العيد وقع عند الرعايا موقع الحب والالتفات فعظموهُ على غيره من المواسم فيهِ ادخل بطرسبرج اسرى اسوج مع الاميرال الذي اسر بالاسطول وجعل دخولهم احتفالاً ظاهرًا موافقًا لمآرب قومهِ مما فزاد عندهم حبًا ورفعة وقد فرّق على الضباط نقودًا من الذهب وعلى والجنود نقودًا من الفضة ولدى اجتماع هذا الموسم واحتشاد الجموع عند سرير الملك خطب بطرس في قومهِ الخطبة الآتي بيان مختصرها

ايها الامراء واعيان بلادي واصدقائي الذين رافقوني في كل فتوحاتي وساعدوني في جميع مشروعاتي هل خطر لاحد منكم او من ابائكم منذ عشرين سنة اننا ستتوصل الى هذه الحالة وانكم ستقاتلون معي في بحر بلطيك و تنشئون سفنًا تمخر فيهِ برايات النصر

مستولية على كل سواحلهِ ورافعة الرايات الروسية على قلاعهِ ومرافئهِ فضلاً عن انكم بددتم اسطول العدو ومزقتموه كل ممزق باسطول مددتموه بايديكم وقاتلتم عليهِ بشجاعتكم ولا ريب انكم اصبحتم تشعرون بلذة تلك الفتوحات وترتاحون الى اكتساب العلوم الموصلة الى الاهتمام بالانشاءات وقيامها من حالة العدم الى الوجود . نعم انهُ من المقرّر الثابت ان مثل هذه العلوم كانت قديمًا مستوطنة ببلاد اليونان غير انها بارحتها وغابت عنها وقد طال غيابها حتى اليوم لكن بلادنا لم يكن لها قبلاً مثل هذا الحظ فزماننا هو الزمن الاول الذي يقال فيهِ ان ان روسيا اخذت ترتقي في سلم التمدن والمعارف فتاتي بما لم يات غيرها بهِ واريد ان الحظ الذي كان قديمًا لبلاد اليونان يكون قد وافانا بدورنا وبالجد والاجتهاد لا يغيب عنا ولا تخسر بلادنا ما خسرتهُ تلك فافتكروا بحالتكم منذ عشرين سنة وقابلوها بالحالة الحاضرة وانكروا اهمالكم من العالم قاطبة في تلك الايام وانظروا كيف ان اعظم دول العالم الان ترضى بمحالفتكم وتطلب التقرب منكم وهذا سيدوم وينمو مع تداول الايام بمساعدتهِ تعالى واني اعلق كبير امل على مساعدتكم واطلب اليكم ان تزرعوا هذا الميل في اولادكم فيربون على حب الوطن والجنس

الروسي وساضع لهم خطة يسرون بموجبها فلا تفوتهم لذة الانتفاع في الاستقبال ولا اريد منكم الا هذا فقط وهو تهذيب اولادكم وطاعتهم للجالس على سرير ملكهم ممن يرون فيهِ الحكمة ويتوسمون فيهِ الخير . فانتم روسيا وانتم شرفها وبكم تعتز ملوكها فاثبتوا لتثبت

فكان من سمع هذه الخطبة من الشيوخ تاسف على عوائده القديمة وندد بفخار ملكهِ بخلاف الشبان فانهم عند سماعهم كلام ملكهم المحبوب لم يقدروا على ضبط نفوسهم من التاثير الحبي فتحركت فيهم شعائرهم وترقرقت الدموع باعينهم وتمنوا ان يموتوا بين يديهِ واظهروا استحسانهم منهُ باصوات الدعاء والطلب من الله بنصره وطول عمره

وكان مما حق لبطرس الافتخار بهِ في قومهِ والمباهاة بنجاح بلادهم هو وصول سفراء روسيا الذين كانوا بالاستانة رهناء كما تقدم ومعهم مصادقة حضرة السلطان الاعظم على شروط الصلح الذي اجراهُ وزيرهُ بعد واقعة البروث وانفاذ تلك الشروط قبل مصادقتها . وكان قبل ذلك بمدة يسيرة جاء بطرس سفير من قبل الشاه حسين خان العجم يحمل هدية لهُ وهي فيل وخمسة سباع . وقدم اليهِ ايضاً سفارة من محمد بهادر

خان الازبك يطلب اليهِ ان يكون تحت حمايتهِ من تعدي التتار والحاصل ان كل الناس من اقصى بلاد اسيا واوربا كانوا يحترمونهُ ويتحدثون باعمالهِ مع وجودهِ بين قوم كان لا يصدق العقل البشري بتقدمهم الى مثل هذه الدرجة باقل من مئين من السنين

وفي هذا الوقت كان مجلس نواب اسوج قد اجتمع وقرر ترك مخابرة كارلوس ملكهم والاعتماد على افكارهم بحيث يتمكنون من مخابرة بطرس والسعي بالصلح معهُ فبعثوا برسول يعرض عليهِ رضاهم بالصلح ورغبتهم فاظهر للرسول قبولهُ ذلك اذا كان بشروط توافق الحكومة الروسية وانهُ لا يرغب بظلم دولة اسوج اذا رضيت بترك السلاح وفوضت اليهِ عن صفاء باطن اقتراح الشروط وقبل ان ينتهي هذا الصلح ويعود الرسول ثانياً الى بطرس باقتراح الشروط بلغ مجلس النواب ان الدولة العلية العثمانية قد اطلقت سراح كارلوس ملكهم واخرجتهُ من بلادها وانهُ عائد الى بلاده فارجعهم هذا الامر عن اتمام عملهم وانتظروا قدومهُ . وكان كارلوس قد حاز العفو من لدن السلطان وخرج من بلاد الدولة في شهر تشرين الاول سنة ١٧١٤ بعد ان اقام بها خمس سنوات وعدة اشهر فوصل الى

استر السند وفيها جاء اليهِ البارون دوغورتز وكان كارلوس يعرف انهُ كان السبب في بعض شقاء لحق بقسم من بلاده وكان يضمر لهُ المجازاة بالشرغير انهُ برأ نفسهُ من ذلك بما ابداهُ لديهِ من طرق المكر والخديعة ووعدهُ بالسعي في انفصال اطرس عن محالفيهِ وبعد ذلك يمكنهُ مصالحة بطرس على الوجه الموذن بالشرف لاسوج ومن ثم صار لغورتز على عقل كارلوس بسلط عجيب لم ينلهُ قبلهُ وزيرهُ الكونت بيبير

الفصل السادس

في

محاصرة ستر السند واخذ مدينة ويسمار واسفار بطرس الجديدة

ورأى كارلوس عند رجوعهِ الى بلاده ان حالة اوربا قد تغيرت واصبحت في حالة غير الحالة التي تركها فيها فان ملكة الانكليز قد ماتت بعد ان عقدت الصلح مع دولة فرنسا وقد اثبت لويس الرابع عشر ملك فرنسا تخت اسبانيا لحفيده وجبر كارلوس السادس امبراطور الالمان على التصديق والتوقيع على صلح اقتضتهُ الحال وكما ان مصالح جنوب اوربا قد اخذت

في التغير الى حالة مباينة كانت مصالح بلاد الشمال قد تغيرت اكثر من ذلك وصار بطرس حكمًا فيها وكان منتخب هانوفر الذي دعي للجلوس على سرير مملكة انكلترا يرغب في توسيع بلادهِ بضم اراضٍ من اراضي اسوج الى بلادهِ وكان ملك الدانمرك يريد استرجاع اقليم اسكانيا الذي هو اعظم الاقاليم الاسوجية حيث كان للدانمرك قبلاً الى غير ذلك من الحوادث وكل اولئك الملوك والامراء يطلبون حماية بطرس والالتجاء اليهِ واصبح بيدهِ زمام الامر وتدبير المصالح ووقعت المفاوضات والمخابرات من حين وصول كارلوس الى ملكهِ بدون ان يترتب على ذلك ثمرة وعلق كارلوس املهُ بالحصول على سفن حربية للقرصان ما يقاوم بها قوة بطرس البحرية وكان يعتمد بالحرب البرية على شجاعتهِ وافتخارهِ بنفسهِ وقد اوقع في ذهنهِ غورتز الذي اصبح عندهُ بصفة وزير اول انهُ يمكنهُ القيام بمصاريف جيشهِ بواسطة نقود من النحاس يعين قيمتها باكثر مما هي بست وتسعين مرة

واجتمع ملك بروسيا والدانمرك والسكسون تجاه مدينة سترالسند ورأى كارلوس انهُ لم يتخلص من سجن دمرطاش الا ليحصرهُ الاعداء في جهة بحر البلطيك . وقد قابل اعداءهُ المتجمعين عند هذه المدينة باقدام وبسالة وثبات جنان ومما يستحق ان

يحكى عن اعمالهِ وشجاعتهِ في الحروب انهُ بعد ان قتل وجرح اغلب ضباطهِ في محاصرة هذه المدينة كان الكولونل دريشل قد اعياهُ السهر والتعب لطول المحاربة فاستلقى على دكة هناك ليستريح ساعة من الزمن فدعي للخفر على المتاريس فلم يجب ولم يرضَ باحتمال ما فوق طاقتهِ بل جدف وسخط فسمعهُ كارلوس وادرك حالتهُ فتقدم منهُ ونزع برنسهُ عنهُ وفرشهُ بين يديهِ وقال لهُ ياحبيبي دريشل اني اعرف ان لا طاقة لك على التعب فنم ساعة واسترح وانا اذهب عنك الى الخفر حيث نمت واسترحت ثم لفهُ بالبرنس رغمًا عنهُ وتركهُ ينام وذهب فخفر عنهُ

وفي مدة محاصرة مدينة سترالسند اشترى ملك الانكليز الجديد وهو جورج منتخب هانوفر من ملك الدانمرك اقليمي بريمة ووردن ومدينة ستات بثمانمائة الف ريال فكانت دول كارلوس تباع وتشرى وهو يدافع عن المدينة المحاصرة اي سترالسند حتى تخربت وصارت تلاً من التلال فالتزم الى الخروج منها مع ضباطهِ واستلمتها بروسيا بعد خروجهِ . وكان بطرس منشرح الصدر والخاطر بكل ما كان يحصل لهُ من التوفيق وباستيلائهِ على اقاليم لابونيا واسثونيا وكاريليا وانغريا واغلب اقليم فنلندة وقد زوج بنت اخيهِ لكارلوس ليوبلد

دوق مكلنبرغ فاصبحت كل اقاليم الشمال اما من حلفائهِ واما
من حكومتهِ . ولما كان من الضرورة ان تكون مدينة ويسمار
تابعة لهذا الدوق اى دوق مكلنبرغ حاصرها حلفاء بطرس
في سنة ١٧١٥ وعقدوا شروط تسليمها قبل وصول بطرس
اليها ولكنهُ لما وصل اليها بنفسهِ ونزل امامها في شهر شباط
قبض على محافظيها واسرهم وتكدر من حلفائهِ لما راهم يرغبون
في اعطاء هذه المدينة لملك الدانمرك مع انها تعزى لامير كان
قد ازوجهُ بنت اخيهِ . وبسبب هذا الكدر اغتنم غورتز الفرصة
قاصداً ايقاع الصلح في تلك الظروف بين كارلوس وبطرس
وذلك انهُ كتب للامبراطور الروسي ان دولة اسوج قد ضعفت
وانحطت من اوج العظمة وليس من الحكمة السعي في تقوية
الدانمرك وبروسيا . فاجابهُ الى ذلك واقرَّهُ على مقاصدهِ وعقد
الصلح حيث كان قد فرغ من كل مآربهِ ونال ما كان يتمناهُ
من توسيع بلادهِ وانتهت هذه الحرب بذلك

وبعد ذلك عزم الامبراطور ان يسافر ثانيًا الى بلاد اوربا
حيث كان سفره الاول بقصد تعلم الفنون والانتفاع بالحرف
والصنائع واما سفرهُ هذا فهو بصفة ملك يبحث عن اسرار دواخل
الملوك ويسبر اعماق صدور رجال السياسة فيها . فاستصحب

زوجتهُ وسافر الى مدينة كوبنهاغن ومنها الى لوبك ثم اتى سشورن ثم نيوستات وقابل ملك بروسيا في مدينة ويرسبرغ الصغيرة ثم قصد هنبورغ ومنها الى مدينة التنا التي احرقها الاسوجيون وركب نهر البي حتى وصل الى مدينة ستات وكان في كل مدينة يمر بها يلاقي من الاحتفال وحسن الملاقاة ما يليق بمقامهِ ومر بمدينة بريمة فاقيم لهُ فيها احتفال عظيم ورسم على محل الاحتفال العبارة الاتية (قد جاء منجينا لزيارتنا) . ثم ذهب الى امستردام وزار الكوخ الصغير بقرية سردام التي تعلم فيهِ فن عمارة السفن منذ ١٨ سنة فراهُ قد تغير عن حالتهِ القديمة الى دار ظريفة جيدة المنظر حسنة الانتظام . وقد وقع لبطرس من اهل هذه المدينة ملاقاة عظيمة لكونه كان في بادئ امره رفيقهم في الشغل وابدوا لهُ من الترحيب وفرط المسرة ما تقصر العبارة عنهُ فكان عندهم كانهُ رجل من اهل وطنهم قد ارتقى الى منصب الامبراطورية ونال هذا المجد بالاشتراك معهم وذلك في سنة ١٧١٧

وكانت قد مرضت الامبراطورة كاترينا في مدينة سشورن ومكثت فيها مدة وهي مريضة وكانت قد قاربت الولادة . وحالما قدرت على السفر سارت في اثر زوجها الى بلاد الفلمنك

فعاودها المرض في وزل وفيها وضعت ولداً لم يعش الا يوماً واحداً ثم انها سافرت الى زوجها متكبدة ثقلة الوجع والتعب مع ان ذلك يندر في جنس النساء ان تقدر المرأة على السفر عقب الولادة غير ان زوجها كان قد اخبرها ان تستقر الى حين شفائها ثم تتبعهُ الى امستردام حيث ينتظرها فاسرعت كي لا تدعهُ ينتظر كثيرًا فيمل الانتظار · فوصلت الى امستردام في اليوم العاشر من سفرها ورات الكوخ الذي سبق ذكرهُ بقرية سردام وكانت بشوقٍ زائد اليهِ لترى كيف كانت عيشة امبراطور روسيا في تلك القرية وهو كاحد الفعلة فتستفيد من ذلك وتزيد اقتدارًا على حمل المشاق التي كانت تتطلبها وتفضلها على التنعم والرخاء وزار بطرس وزوجتهُ دون احتفالٍ ودون ان يكون معهما سوى خادمين نجارًا من نجاري السفن اسمهُ كلف ليتغذى عندهُ وكان اول من تاجر الى مدينة بطرسبرج وحصل لهُ غنى عظيم · واقام بطرس ببلاد الفلمنك ثلاثة اشهر والسبب من طول اقامتهِ في تلك البلاد وقوع الشقاق بين حلفائهِ بشان مكلنبرغ وغير ذلك من ارتباكات بعض الدول فاوجبتهُ الحال ان يستكن في تلك البلاد للمخابرات ومراقبة ما يحصل في بلاد الجنوب وبلاد الشمال

الفصل السابع

في

بقية سياحة بطرس وتلقيه في فرنسا وتعصب غورتز

لما كان بطرس يرغب ان يمنع الدانمرك من اخذ مدينة ويسمار ليضمها الى دوق مكلنبرغ كان لا بد من وقوع الشقاق بين الدول المتحالفة التي كانت عملت على الفتوحات معًا وكان يشهر على رؤوس الاشهاد حمايتهُ للدوق المذكور لكونه صهرهُ وزوج بنت اخيهِ وبعكس ذلك كان ملك الانكليز يواطئ الحلفاء المذكورين على دوق مكلنبرغ . ومما زاد بطرس غضبًا سعي ملك بولونيا ووزيره الاكبر فلومنغ بفصل حكومة بولونيا عن روسيا واخراجها من تبعتها . وكانت مجالس انكلترا وبولونيا ودانمرك وهولستين ومكلنبرغ وبرندبرغ مضطربة بالدسائس والفتن . وذلك انهُ في اواخر سنة ١٧١٦ واوائل سنة ١٧١٧ كان غورتز قد ملَّ وسئم حيث لم يكتسب اكثر من لقب مدير هولستين فاغتنم هذه الفرصة لدس الدسائس وليوقع الاضطراب والشغب في دول اوربا قاصدًا الانتفاع من مصالحة كارلوس الثاني عشر مع بطرس بان يعيد ستانسلاس

الى كرسي بولونيا وينزع اقليمي بريمة ووردن من جورج الاول ملك الانكليز ووجد في ذاك العقد من هو اعظم من غورتز اطوارًا ومقاصد وهو الكردينال البيروني لهُ في اسبانيا من النفوذ والقوة اكثر مما كان لغورتز في اسوج بل كان يضاهيهِ في الجسارة والاقدام وكان لقوة شوكتهِ يسعى بايقاع الفتن والاضطراب بين دولتي الانكليز وفرنسا . فوقع الاتحاد بين غورتز والبيروني واتفقا مع جماعة الانكليز الذين كانوا من حزب ستوارت الملكية . فطاف غورتز جميع الممالك التي كان يظن ان فيها اعداء لجورج ملك الانكليز فذهب الى عدة مدن حتى جاء فرنسا وانهُ كان في فرنسا بعث اليهِ الكردينال البيروني بمليون من الليرات يسعى بها بايقاد النار في البارود . وكان من غاية غورتز ان يتساهل كارلوس الثاني عشر كل التساهل مع امبراطور روسيا ليتمكن من استرجاع جميع ما اخذهُ اعداؤُهُ حلفاء بطرس من البلاد ويتيسر لهُ شن الغارة على سكوتلندة بدون معارض حين كانت الاحزاب الستوارتية عاملة على التعصب الشديد في انكلترا . وكان من المقتضى لانفاذ هذه المقاصد ان تتخلى حكومة فرنسا عن الملك جورج حيث كانتا قد اتفقتا عند تولية حفيد لويس الرابع عشر على تخت اسبانيا

بمساعي نائب فرنسا الذي صرف بذلك اموالاً غزيرة ولم تكن مصلحة هذا النائب مصلحة دولية فاخذ البيروني بالقاء الشر والفساد وتحريك المتعصبين في فرنسا حتى جمع عصبة سرية بمساعدة غورتز وذهب الى رومية ليتفق مع متطلب كرسي ايطاليــا

وقد عاد غورتز الى بلاد الفلمنك وبيدهِ تحاويل من البيروني وكان كارلوس قد فوض اليهِ الامر تفويضًا مطلقًا فكانت مساعيهِ على الاكثر ناجحة وكان بطرس يدرك بحكمتهِ تلك المقاصد ويعرف كل مقاصده وينتظر نتائجها بدون ان يجعل لهُ دخلاً في تلك الحوادث او يجعل نفسهُ وسيلة لانفاذ مقاصد هذا المحتال لان صفاته كانت بخلاف صفات كارلوس والبيروني اذ يعدان من ارباب الرعونة والطيش بالمفاخر والترقي عن عدم رزانة وتبصر بالعواقب. وجاء غورتز مدينة هاغن بقصد ان يرى بطرس فلم يتمكن من ذلك حيث كان قد سافر منها وقد ترجح عند العالم وقوع ارتباكات عظيمة في اوربا لما راوا ما كان عليهِ بطرس من ترك الحرب وفتور الهمة والتخلي عن حلفائهِ ولما كان يصدر من مجالسهم من التظلم والتشكي . وفي شهر كانون الثاني (جانفيه) من سنة ١٧١٧ هاجت ريح عاصفة

على سفينة اسوجية كان فيها رسائل فالجأتها الضرورة ان تاتي نروج ووقعت الرسائل بيد حكومتها فاذا بين رسائل غورتز وبعض الوزراء ما اوجب الاحتراس والتيقظ من وقوع تلك الفتنة التي كان قد قرب ظهورها واتفق عليها كل الاتفاق وبعثت حكومة الدانمرك الى حكومة الانكليز بتلك الرسائل · فقبضت تلك في الحال على وزير اسوجي اسمهُ غليمنبرغ كان اوانئذٍ بلندن واخذت ما كان معهُ من الاوراق فاذا فيها بعض رسائل من الجاكوبيين . وكتب جورج ملك الانكليز في شباط من سنة ١٧١٧ الى حكومة الفلمنك كتاباً مضمونهُ انهُ بمقتضى المعاهدة الواقعة بين كلتا الحكومتين لاجل دوام الامن العام بينهما يطلب القبض على البارون غورتز فبلغ غورتز ذلك من بعض احزابهِ فسافر الى ارنيم وهناك ادركهُ الضباط والخفراء الذين امروا بتاثره واسرعوا اسراعاً عجيباً فقبضوا عليهِ واخذوا ما كان معهُ من الاوراق وعاملوهُ اسوأ معاملة وكذلك كاتب سرهِ وقصارى الامران الوزير غليمنبرغ الذي كان ارسل الى انكلترا والبارون غورتز الذي كان بيده اوراق التفويض من كارلوس قبض عليهما وسئلا كجانيين احدهما في لونده والثاني في ارنيم وكان جميع وزراء الدول يتشكون من هذه المعامله

المخالفة لحقوق الملل والدول من تجاوز الحد والتعدي في الصرامة

ولما رأى كارلوس ما لحق بوزيريهِ من الاساءة صمم على ان يبذل وسعهُ في خلع ملك انكلترا ومع انهُ انكر ما كان يسعى بهِ الوزيران وسلك مرة واحدة في عمرهِ مسلك الخداع والتحيل لم يرضَ جورج ان يطلق اسيريهِ بل ابقاهما عندهُ مدة ستة اشهر في السجن فزاد ذلك غيظ كارلوس وحركهُ الى الانتقام

واما الامبراطور الروسي فانهُ كان يراقب كل ما هو جارٍ في اوربا دون ان يجعل لهُ علاقة بذلك وجل ما كان يريدهُ ويرغب فيهِ وهو في سياحتهِ تقرير السلام والامن في داخلية بلادهِ غير ملتفت الى امر من الامور الخارجية · وسافر اخيرًا الى فرنسا وان كان لايعرف لغة هذه الدولة الَّا انهُ كان يعلم ان في تلك المملكة اشياء كثيرة يستفيد من رؤيتها والاطلاع عليها وكان يريد ايضًا ان يكون بمعرفتهِ حالة وزير فرنسا مع دولة الانكليز فلما وصل الى هذه المملكة قوبل بما يليق بهِ من الاحتفال والاعتبار وبعثت الحكومة الى لقائهِ المارشال دوتسه وجمًّا غفيرًا من الامراء وفرقة من الخيالة وعجلة الملك فاسرع الى مدينة كورنة حيث كانت دائرتهُ في مدينة البوف ووضعوا لهُ في الطريق رسوم

الاحتفال فتلقوهُ اولاً في المدينة المسماة لوفرة وكانوا اعدوا لهُ فيها اكبر محل واعدوا لاتباعهِ محال اخرى وهم الامير كوراكين ودولغروكي وشافيروف والسفير تولستوي وهو الذي قبض عليهِ في الاستانة وبالجملة فقد اعدوا اضيافة الزائرين وخدمهم وحشمهم ما يليق باكرامهم ويؤذن برفعة مقام ملكهم ولما كان لا يرغب في مثل هذه الاحتفالات وكان مقصده الوحيد الاطلاع على حالة البلاد وما يمكنهُ من الانتفاع لاتضييع الوقت بالاحتفالات والولائم والزيارات ذهب في عشية يوم الى لسدنيير وهو قصر المارشال دوفيل روا فعومل فيهِ بما عومل في لوفرة من الاكرام وحسن الضيافة وفي اليوم الثاني ذهب اليهِ نائب فرنسا للسلام عليهِ في ذاك القصر وفي اليوم التالث جاءوهُ بالملك وهو طفل والذي جاء بهِ مودبهُ دوفيل روا الذي كان ابوهُ ايضاً مربياً ومودباً للويس الرابع عشر وقد حضر اليهِ امراء المدينة ايضاً وادوا لهُ واجبات السلام ثم ذهب في عشية هذا اليوم لزيارة الملك وكانت فرق العساكر والضباط حضرت لاكرامهِ وعند وصول بطرس حملوا الملك الطفل وخرجوا بهِ لملاقاتهِ وتعجب بطرس مما رآهُ من الازدحام وكثرة الناس حول ملكهم فاخذهُ وحملهُ على يده

وكان بطرس قد راى صورتهُ قد اخذت ورسمت ووضعت في المحل الذي هو فيهِ فتاكد بطرس ان الفرنسويين من اعظم الامم المتمدنة واشدهم ميلاً الى الاحتفالات بملاقاة ضيوفهم واكرامهم وكذلك لما ذهب الى دار لوفرة ليرى فيها ضرب القطيعة الذهبية (مدليون) تعجب كثيراً عند ما راى ان قطعة من تلك القطع التي ضربت امامهُ للفرجة مرسوم على احدى جهتيها صورتهُ وعلى الجهة الثانية الهة الشهرة (المذكورة في خرافات القدماء) وبعض كلمات من كلام الشاعر فرجيل تليق بمقامهِ . ومعناها . اينما مضى يمضي معهُ المجد والبسالة . ثم انهم قدموا لهُ ولبعض اصحابهِ قطعاً من تلك القطع الذهبية وكلما تقدم الى جهة الفعلة كانوا يضعون عند اقدامهِ اعظم مصنوعاتهم سائليهِ قبولها . وذهب الى معامل كوبلاين التي تصنع فيها منسوجات البسط الافرنجية وزار بعد ذلك معامل نقاشي الاحجار والمصورين وصاغة الملك وصناع الآلات الرياضة وقدّم اليهِ من طرف الملك كل ما كان يليق بشانهِ وكان بطرس من ارباب الصنائع والفنون فكان يسرُّ بكل ما يراهُ ويشاهدهُ من هذا الباب وذهب الى دار العلوم المسماة اكاذيمية فتزينت لاجلهِ بجميع ما كان فيها من الغرائب الاَّ انهُ

لم يكن هناك ابدع منهُ ولا اغرب فقد اصلح بيده عدة غلطات جغرافية راها في خارطات ممالكهِ لاسيما خارطة بحر الخزر وسمحت نفسهُ ان يكون من اعضاء تلك الجمعية ومنذ ذلك الوقت صارت الاتصالية بينهُ وبين تلك الجمعية اخذة ماخذ النجاح وكان يراسلهم على الدوام ذاكرًا لهم كل ما كان يظهر لهُ من الاكتشافات ونحوها · وعند زيارتهِ قبر الكردينال ريشليو تاثر جدًا لا لظرافة نقشهِ وحسن اتقانهِ بل لما راى تمثال هذا الوزير الذي اكتسب الشهرة وحسن السيرة في اوربا بما ابداه من الحركة والتغيير ورد لفرنسا ما كانت فقدتهُ من الفخار بعد موت ملكها هنري الرابع · فعانق هذا التمثال باكيًا وصاح قائلاً ايها الرجل العظيم كنت اود لو لقيتك واعطيتك نصف ملكي فاتعلم منك كيفية ادارة النصف الاخر

وقبل ان يرحل من فرنسا رغب في زيارة ارملة لويس الرابع عشر الشهيرة وكانت وقتئذٍ في اواخر عمرها والذي حركهُ الى ذلك ما كان من نوع المشابهة بين زواجهِ وزواج لويس الرابع عشر الذى اتخذ هذه المراة اللطيفة سرًّا وجعل اميالهُ منعطفة على الدوام اليها ولم تكن كاترينا معهُ في هذه المرة ومن ثم رجع الى بلادهِ ومعهُ جماعة من الفرنسويين اصحاب

حرف وصنائع جاء بهم لزيادة المعامل والشغل في بلادهِ

الفصل الثامن

في

الحكم على الكسيس ابن بطرس بالموت

تقدم معنا الكلام عن زواج الامير الكسيس بتروفتش ابن الامبراطور بطرس وسيرة حياتهِ الابتدائية الى حين زواجهِ سنة ١٧١٧ بالاميرة فولفومبوتل وذلك بعد واقعة البروث فكان هذ الزواج مشئومًا محفوفًا بالنحس ورداءة الطالع حيث ان الامير انهمك بالملذات وعمل على الفسق والفساد واسرف اسرافًا عظيمًا في ملذات الشبوبية الذميمة وعمرهُ وقتئذٍ ٢٢ سنة وفوق كل ذلك فانهُ زاد تمسكًا وافراطًا باخلاقهِ القديمة ومقاصدهِ البربرية فافضى بهِ كل ذلك الى اعمق الغباوة فاحتقر زوجتهُ وازدراها واهانها ولم يفِ بحقوقها المترتبة عليهِ شرعًا ودينًا وادبًا فلحقها من ذلك الياس والقنوط فسئمت وهي لا تجد وسيلة لان تحل في عينيهِ محل الرضا وترجعهُ الى الصراط المستقيم وصرفت كل عنايتها فلم تقدر على التغلب على ما هو مفطور عليهِ

ومنطبع فيهِ واخيرًا ماتت مكدرة مقهورة سنة ١٧١٥ في بداية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) بعدان ولدت لهُ غلامًا قبل موتها بيسير. فكدر ذلك الامبراطور وعرف ان زوجة ابنهِ قد ماتت مظلومة من معاملة ابنهِ القاسية لها مع انها لم تكن كوالدته ليهملها كما اهمل ابوهُ امهُ بل كانت على كل الخصال الحميدة بل كان هو كامهِ لا يألف اصحاب الطباع الحسنة ولا يرضى بغير العوائد القديمة التي كان يبثها فيهِ على الدوام اصحاب الغايات من شيوخ الامراء والقسوس. فكتب الامبراطور الى ابنـــهِ بعد موت زوجتهِ يرغبهُ بالدنو الى المحامد فيناَل الحظوى عندهُ وعند الامة ويتهدده بقولهِ اني امهلك مدة من الزمان على امل انك تقلع عما انت فيهِ والا فاني احرمك من ولاية العهد وافصلك عنها كما يفصل العضو غير النافع من البدن ولا تفكر اني اقصد بذلك اخجالك وتخويفك ولا يغرنك طمعك بكونك ابني الوحيد وذخري وما من وليّ لي غيرك فانت تعلم والعالم يعلم قاطبة اني اخاطر بنفسي لاجل وطني وحفظهِ من السقوط لدى اعين الاعداء فكيف لا اهرق دم ولدي من اجلهِ ومن اجل ذلك يهون عليّ جدًّا ان اقيم على وطني اجنبيًّا ارى فيهِ اللياقة والحكمة فيصونهُ من ان اسلمهُ الى ولدي واعز الناس عندي

فيسقطهُ فالموت لي ولعائلتي لا يحسب عندي بشيء عظيم في مقابل قيام وطني وشعبي المحبوبين مني . اه

ومن هذا الكتاب يظهران بطرس كان يرى في حال بلاده ويتامل في مستقبلها واراد ايضًا ان يظهر لهُ ان ولاية العهد عندهُ ليست امرًا محتومًا كما هي في غير ممالك بل لهُ الحرية بيدلها وتسليمها الى من هو اليق من ولدهِ وافيد منهُ . وفي ذلك الزمن ولدت الامبراطورة كاترينا غلامًا ودعت اسمهُ بطرس (مات بعد ولادتهِ بمدة اربع سنوات اي في سنة ١٧١٩) وبعد ان بلغ خبر ولادتهِ الكسيس انكسر خاطرهُ وفترت همتهُ وكتب لابيهِ ما معناه انهُ نزل عن ولاية العهد وترك امل الحكم لابنهِ الجديد وختم الكتاب المذكور بهذه العبارة اني عاهدت نفسي واشهدت الله على ذلك اني لا انطلب الحكم بعدك وها انا اسلمك اولادي واجعلهم بين يديك ولا اطلب منك الا مصروفي الضروري مدة حياتي . اه

فكتب اليهِ ابوهُ جوابًا لذلك بما ياتي . قد اطلعت على كتابك فرايتك لا تتكلم الا في الولاية بعدي كاني اسالك تدبيرها مع اني قد اعلمتك ما هو واقع عليَّ من التوجع والتالم من سلوكك وعدم استقامتك منذ عدة سنوات فلم تجبني على ذلك بشيء

اصلاً كان انذاري من هذا الوجه قد غاظك فلم تستحسنهُ فاضربت عنهُ · ولذلك قد كتبت لك كتابي هذا وهو اخر كتابٍ ارسلهُ اليك .فيا ترى ماذا تفعل بامني بعدي وبمشروعاتي وانت تحتقرني في حال حياتي ولا تعتبر كلامي لا ريب انك تدوس كل مقاصدى وتهدم كل ما بنيتهُ · حتى اني اعلم لو وعدتني الان وعدلت عن سلوكك هذا لكنت بعد موتي تعود الى حالتك حيث يعدل بك اصحاب اللحى الى اغراضهم ويجبرونك على نقض مواعيدك والحنث بترك وصايا ابيك التي من الواجب ان تكون مقدسة عندك على الدوام · وهم اي القسوس معلقون كبير امل بك واثقون بواسطتك بانفاذ ماربهم لما يرونهُ فيك من الميل اليهم والرغبة فيهم · جحدت صنيعي ونعمتي وتركت طاعتي · ولم تحضر اليَّ بمقاصد سياسية نافعة لبلادك منذ بلغت اشدك الى هذا اليوم بل كرهت كل ما امكنني فعلهُ من الاصلاح في الامة الروسية فالبدار البدار الى تدارك هذا الخطا البدار البدار الى اصلاح هذا الخلل واسعَ فيما تصير بهِ اهلاً لولاية عهدي والخلافة من بعدي والا فانتظم في سلك الرهبنة واقم بين اولئك الذين سلبوك بخداعهم ليميلوك عن ابيك · ولا بد من رد الجواب بالصدق والا صنعت بك ما اصنع بالاشرار

وعاملهُ معاملة الاشقياء الفجار . اه

فعوض ان يجيب الكسيس والدهُ بموافقتهِ وانهُ يقلع عن سلوكهِ القديم ويلقي باتكالهِ عليهِ اكتفى بان كتب لهُ اسطرًا قليلة مفادها انهُ يرغب في الترهب . وكان من اخصائهِ ان اقنعوهُ ان لا يميل الى ابيهِ ويبعد عن نصحائهِ وان من الواجب عليهِ ان يبعد عن روسيا الى بلاد النمسا قاصدًا بذلك السياحة بينما يكون ابوهُ قد عدل عن عزمهِ فاصغى الى كلامهم واظهر انهُ يريد السفر الى ابيـهِ وسار الى مدينه فينا قاعدة النمسا يقصد الاقامة عند صهره امبراطور النمسا حتى تنقضي حياة ابيهِ في بعض الانحاء . وبلغ بطرس ان ابنهُ كان بمدينه فينا وسار منها الى تيرول بارض النمسا ومنها الى نابلي وكانت تحت ولاية صهره فارسل اليهِ تولستوي والقائد رومنزوف واعطاهما كتابًا حرّرهُ بيدهِ وذلك في ٢١ تموز (جوليه) سنة ١٧٠٧ فوجدا الاميرالكسيس في قصر سنت من نابلي فناولاه الكتاب واذا بهِ . اني وان كنت عاهدت نفسي بترك مكاتبتك غير ان واجبات الابوية دعتني الى انذارك مرة اخيرة بانك مجبور الى طاعتي وامتثال امري فاذا اجبت واطعت اشهدت الله عليَّ اني لا اعاقبك واذا اتيتني طائعًا فزت مني بدوام المحبة والاقبال والا

عاملتك بالغضب المؤبد بحسب ما جعل الله لي عليك من السلطة والاقتدار هذا من حيث اني ابوك واما من حيث اني ملكك وولي امرك فلي في عتابك طرق كثيرة واني اسال الله المعونة واسالهُ ان يتولى امر هذه الدعوى التي ارى من نفسي اني لم احد فيها عن طرق الحق

ولما اطلع الكسيس على هذا الكتاب كان يتردد في الرجوع الى ابيهِ ولما كان صهرهُ امبراطور النمسا يؤكد ان بطرس اتهمهُ بالاشتراك مع ولدهِ على العصيان اليهِ كتب الى عاملهِ بنابلي يامرهُ بان يعرض على الكسيس امر العود الى ابيهِ ولهذا صمم الكسيس بالعود مصحبًا معشوقتهُ فروسينة التي اصحبها معهُ اثناء مجيئهِ . ومن المقرر ان بطرس اخطأ فيما بعد بمعاملة ولدهِ لانهُ لم يرتكب خطأً يستحق لاجلهِ القتل وان سفرهُ الى فينا ونابلي كان باغراء اصحابهِ وتطلبات الشبوبية حيث كان يخافهُ فضلاً عن انهُ كان قد اشهد الله عليهِ في كتابهِ انهُ اذا جاء اليهِ يعفو عنهُ ولا يعاقبهُ . واما ما اتهمهُ بهِ من اتفاقهِ مع كارلوس السادس عليهِ فلم يكن لهُ اثر صحة . واستنادًا على وعد ابيهِ سافر من نابلي واثقًا بايمانهِ وبوعدهِ وجاء مدينة موسكو في ٣ شباط (فبريه) سنة ١٧١٨ وكان ابوهُ هناك فدنا منهُ وخرَّ عند ركبتيهِ وقبلهما

وتحادثا طويلاً ثم افترقا في ذاك اليوم . وشاع على الالسنة في المدينة انهما اصطلحا ونسيا ما كان بينهما غير انهُ في صبيحة اليوم التالي صدر الامر بتسليح فرقة من الحرس وضرب الجرس الكبير الذي لا يضرب الاَّ عند وقوع امر مهم . وبعث لاكابر الدولة واعيانها ولارباب الديوان العالي ان يحضروا الى دار الحكومة وجيَّ بالامير الكسيس مجرداً عن سيفهِ كالمجنون حتى تمثل بين يدي والدهِ وخرَّ لهُ ساجداً وناولهُ وهو يبكي كتاباً مضمونهُ الاعتراف بما فرط منهُ في حقهِ من الخطا والاقرار بانهُ ليس اهلاً للولاية ويطلب منهُ حقن دمهِ والبقاء عليهِ

فرفعهُ الامبراطور عن الارض ودخل بهِ غرفة هناك وسالهُ عدة أسئلة وهددهُ بضرب عنقهِ اذا هو كتم شيئاً من الامور التي تتعلق بهربهِ وقرارهِ امام المجلس ثم عاد بهِ الى الغرفة المنعقد فيها المجلس وهناك قرأ بطرس الاعلان الذي نظمهُ بحق ابنهِ وفيهِ يلومهُ على عدم اعتنائهِ بالتعليم ومخالطة المخالفين الذين يميلون الى العوائد القديمة وعلى قبيح سلوكهِ مع زوجتهِ وتركهِ اياها وميلهِ الى بنت من رعاع الناس هي ادنى من زوجتهِ صفاتٍ وادابًا ولطفًا (وان كان هو قد ترك زوجتهُ ومال الى غيرها الا انهُ كان يرى نفسهُ مضطرًا لما كان يراهُ فيها من بغض الاصلاح وعرف ان بقاءهُ

معها يؤخر نجاح بلاده ففضل تركها على تاخر الامة وبقائها في حالة الجهالة وان التى اخذها اي كاترينا جارتهُ على مقاصده لا بل فاقتهُ بها) اما الكسيس فاهمل زوجتهُ رغبة بشابة مجهولة لم يكن لها من الفضل غير الجمال . ثم لامهُ ايضًا في ذاك الاعلان على ذهابهِ الى فينا ودخولهِ تحت حماية النمسا وذكر لهُ انهُ بذلك هتك حرمتهُ لكونهِ اخبر امبراطور النمسا ان اباهُ يجبرهُ لترك ولاية العهد وسال الامبراطور المذكور ان يحميه بالحرب والقوات العسكرية وقد ادخل في ذهنهِ انهُ ان عاد الى بلاد روسيا لا يامن على نفسهِ

وقد قال ايضًا ها هو ولدى قد حضر على هذه الطريقة فهو وان استحق القتل لعصيانهِ وهربهِ من وجهي غير ان الشفقة الوالدية حملتني على الصفح وسامحتهُ من هذهِ الذنوب لكن بالنظر لما صدر منهُ من العيب والغش والسلوك القبيح لا يمكن لنفسي المحبة صالح شعبها ان تورثهُ الملك لعلمها ان قبح اعمالهِ يذهب بفخار الامة الروسية التي انشأتهُ باسلحتها واشترتهُ بدم ابنائها الثمين فجعلهُ ملكًا عليهم يثبت لي انهُ سيعيد روسيا الى حالة ايام سابقة لمائة سنة . وبمقتضى قوانيننا يسوغ لكل اب ان يمنع ابنهُ من ميراثهِ عند وقوع بعض مقتضيات الاحوال بحسب ما

يشاء فقد حرمت ابني من سرير الملك من بعدي وليس لهُ الحق في ولاية العهد ولو انقرضت عائلتنا الى اخرها ولم يبقَ سواهُ وقد عهدت بولاية العهد الى ولدنا بطرس وان كان صغيرًا الاَّ انهُ لا وارث لنا غيرهُ (وبطرس هو ابن كاترينا وقد توفي في ١٥ نيسان (افريل) سنة ١٧١٩) واذا ادعى ولدنا الكسيس الملك من بعدنا في اي زمن من الازمنة يكون مستحقًا لغضبنا · ونؤْمل من رعايانا اهل الطاعة والامانة من قسوس واعوام ومن جميع الامة الروسية انهم بمقتضى القوانين يذعنون لابني بطرس الذي عهدت اليهِ بالولاية ويعتبرونهُ الوارث الشرعي ولذلك اطلب من رعاياي الامنا ان يحلفوا امام محراب الكنيسة المقدسة على الانجيل الطاهر وهم يقبلون الصليب ان يعملوا بحسب هذه القوانين ولا يخالفوها . وكل من خالفها في اي وقت من الاوقات وساعد ابننا الكسيس عليها يكون خائنًا الملك والوطن ولكي لا يكون لاحد عذر بجهالة هذا الاعلان قد امرت ان ينشر في سائر جهات مملكتي · حرر في مدينة موسكو في ١٤ شباط (ففريه) سنة ١٧١٨ ووضعت عليهِ علامتنا الخصوصية وختم بختمنا

فوقع الكسيس على هذه الصورة ورضي بها واعترف بانهُ اسقط

حقهُ من ولاية العهد . وقال ان ما فعلهُ ابي من حرماني من ولاية العهد هو في محلهِ وقد عدل بهِ لكوني مستحقًا لما وقع مني من العصيان واقسم بالله العظيم اني مذعن لكل ما تعلقت بهِ ارادة ابي . اه . ثم ذهب بطرس الى الكنيسة الكبرى وامر بقراءة الاعلان ثانيًا ووضع جميع القسوس علامة المصادقة على نسخة ثانية منهُ ومع ذلك كان يخشى بطرس من هذا الحرمان ان يلقي روسيا في وهدة الخراب وقد حسب انهُ لا بد من ان يقوم احزاب الكسيس فيحملونهُ على العصيان ضد اخيهِ فيقع الخلاف والشقاق لانهُ مكروه على اسقاط حق الملك . واراد بطرس ان يعرف احزاب ولدهِ فيبددهم وبذلك يكون قد كفل المستقبل والا فليس لهُ الا امر واحد يفعلهُ وهو اما أن يراعي مصلحة ثمانية عشر مليونًا وهم اهالي روسيا فيقتل ولدهُ واحزابهُ او يراعي مصلحة شخص واحد لم يكن كفوًا لولايتهم والحكم عليهم . فلذا كان من المهم معرفة المفسدين فتهدد ولدهُ واعادهُ الى استنطاقهِ امام الجمعية التي دعيت لذلك . فانكر الكسيس كل احزابهِ ولم يبح باسم واحد منهم فقدم والدهُ عليهِ عدة امور توذن باشتراكهِ مع جمعية سرية بقصد العصيان . منها انهُ عثر على مسودة مكتوب حرَّرها بيدهِ في فينا خطابًا لارباب مشورة السنا

واساقفة روسيا سلك في عبارتهِ ما يودي الى الاساءة والغضب وصورة المكتوب . ان المعاملة السيئة الجارية بحقي على الدوام من قبيل الظلم والعدوان الجأتني الى الهرب والفرار ولم يبقَ الا وصولي الى احد الاديرة فاسجن هناك الى الابد والذين كانوا سبباً في سجن والدتي ارادوا ان يصنعوا بي كما صنعوا بها . واني الان تحت حماية ملك عظيم الشان وارجو منكم الان ان لا تتركوني ولا تنسوني . اه . ولم يوجد من البراهين عليهِ الا المسودات فقط بحيث يظهر ان هذا الابن كان يريد مخالفة ابيهِ بما لا يقوى بهِ على الخوف ولذلك كان لا يجسر على تبييض المسودات وبعثها . وملك فينا قد حجز تلك المسودات وارسلها الى روسيا ليبرئ نفسهُ من التهمة التي كانت على الدوام موجهة اليهِ بالميل نحو الكسيس . ثم امر بطرس ان ياتي الشهود فجاء شاهد اسمهُ افاناسيف وشهد في المجلس بحضور الكسيس انهُ سمعهُ يقول لاحد اتباعهِ اخبر القسيسين والاساقفة ان يبذروا بين اهالي مقاطعاتهم حبي فيولوني الحكم على دولة روسيا ولو رغماً عني . وشهدت عليهِ عشيقتهُ فروسينة بما يعادل هذا العمل

ولكن جميع التهم التي اتهم بها كانت غير كافية للحكم لو كان الكسيس في غير الامه الروسية لانهُ كان يفكر ولا يعمل

ولم يتبع دسيسة من الدسائس ولم يقع منهُ تعصب ولا تحزب ولم يظهر منهُ تجهيزات تدل على الاستعداد لمثل ذلك ولكن غاية ما يقال فيهِ انهُ مكدر الخاطر فاسد الاخلاق يتشكى من ابيهِ ويهرب منهُ ويتمنى موتهُ · غير انهُ بالنظر لكونهِ الوارث لاعظم الدول واوسعها كان ما يصدر منهُ من مثل هذهِ الاعمال يعد من اكبر الجرائم · وعلاوة على ما اتهمتهُ بهِ عشيقتهُ اتهم ايضاً بانهُ كان بينهُ وبين امهِ واختهِ الاميرة ماريا اسرار ومكالمات وانهُ استشارهما في امر الهرب · فقبض على اسقف من اساقفة روستو كان امين اسرار هولاء الثلاثة واستشهد على ذلك فشهد ان الاميرتين افذوكسيا وبنتها كانتا على الدوام تؤملان بوقوع تغيير في المملكة يكون سبباً لاطلاقهما من الاسر وانهما اشارتا على الكسيس بالهرب

وقد انكر الكسيس في مبدإ الامر عدة تهم من هذا القبيل وبانكارهِ عرض بنفسهِ للهلاك بغيظ ابيهِ منهُ · ثم اعترف ببعض كلمات مآلها ان ما صدر منهُ يتضمن عدم اعتبار والدهِ واساءة الادب بحقهِ · واعتذر عن ذلك بالحدة والسكر · وكتب بطرس على جريدة الاستنطاق بيدهِ سوالاً طلب منهُ الجواب عليهِ وهو · انك عند اطلاعك على مكتوب بيير المتضمن ان جيس

مكلمبرغ على العصيان سررت وانشرح صدرك فما هو قصدك بذلك وغرضك اليس انهُ لو دعاك العصاة اليهم لاجبتهم وانخرطت في سلكهم. فاجاب الكسيس معترفًا بذلك وقد حملهُ الياس الى القول لو دعاني العصاة اليهم في حال حياتك لكنت على الغالب اجيبهم وانضم الى حزبهم متى كنت واثقًا منهم بالقوة والنفوذ

فلا يتصور ان هذا الامير اجاب من تلقاء نفسهِ وهو على الحرية التامة بهذا الجواب الا انهُ لاحظ عند انكاره كل سوال ان اباهُ يغضب ويتكدر فحملهُ الياس وضيق الخناق والخوف على قول الصدق. واقرّ ايضًا انهُ عند اعترافهِ على يد القسيس ياكس قال اني لو سئلت بين يدي الله لاعترفت باني اتمنى موت ابي فقال لهُ القسيس سامحك الله نحن جميعًا نتمنى مثل ما تمنيت فدعا القسيس ياكس وشدد عليهِ فاقرّ بصحة ذلك ومن الغريب ان يرى في مثل هذه الدعوى ان قسيس الاعتراف يتهمهُ المذنب كما اتهمتهُ عشيقتهُ فروسينة. ومن جملة اعتراف الكسيس انهُ كان معتمدًا باعمالهِ على المطران دوريزانّ مع ان هذا المطران كان رئيسًا للقضاة من القسوس الذين انتخبهم بطرس للنظر في امر ابنهِ. وقصارى الامر ان الكسيس اعترف

بعدة امور واشهد عليهِ بعدة امور ايضاً كان الدليل منها عصيانهُ
لابيهِ وبغضهُ لهُ وانهُ كان يود مساعدة كارلوس امبراطور النمسا
اذا اقتضت الحال منازعة احد لهُ في الملك . وبعد ان اثبت كل
ما تقدم سالهُ ابوهُ الاعتراف تكراراً عن اصدقائهِ فلم يجب عن
احد وبسببهِ نشر على مجلس القسوس الاعلان الاتي

ان الشرائع الالهية والقوانين البشرية لاسيما قوانين الدولة
الروسية تمنع افراد الاهالي من ان يحكم الاباء على اولادهم . اما
نحن فلنا القوة المطلقة في الحكم مقابلة لما وقع من ابني الكسيس
من الذنوب دون ان اطلب في ذلك راي احد لكن لما كان
الانسان لا يعرف مصالحهُ الخصوصية كما يعرف مصالح غيره
وان الطبيب الماهر لا يخاطر بعلاج نفسهِ بنفسهِ بل يدعو طبيباً
اخر اخشى عدم براءة ذمتي بارتكاب بعض المحظورات فاعرض
عليكم هذه الحالة الواقعة بيني وبين ولدي طالباً منكم دواء هذا
الداء فاني لا اعرف دائي ولا سيما اني اقسمت بالله اني اعفو عن
ولدي فلا يحق لي بعد ان احكم عليهِ بحقوقي بل اريد ان يحكم
عليهِ بحقوق الدولة والامة والوطن . فاحكموا عليهِ بما استحقهُ
وامعنوا في التصرف فيهِ بدقة ولا تسلكوا سبيل التمليق لي كما
انكم اذا حكمتم عليهِ بعقاب خفيف او ببراءتهِ لا تروں مني ممانعة

او مدافعة فجل قصدي نظر الامة فيهِ فهي مفوضة في امره مني.
ولا تتكدروا اذا اردتم ان تحكموا على ابن ملككم بل احكموا بالعدل
والانصاف دون ميل او غرض كانكم تحكمون بين احقر اهالي
روسيا بشرط ان تكون ذمتكم وذمتي بريئتين يوم الحشر المهول
وان لا يلحق بالوطن ما يضربهِ. اه

فاعطى مجلس القسوس رأيًا في ذلك ولم يحكموا بهِ ومآل
القرار الذي اصدروه هو. ان هذه القضية لا تعلق لها بالاحكام
الدينية والمدنية اصلاً بل الملك وحدهُ هو الذي لهُ التصرف
المطلق والحكم كيف يشاء بدون ان يكون لاحد من رعيتهِ حق
التداخل في هذا الامر على ان الامبراطور اذا عفا يكون قد فعل
بموجب نص التوراة والانجيل. وقدموا على ذلك عدة شواهد
منها وختموا عبارتهم اخيرًا بهذه العبارة وهي. اذا اراد حضرة
الامبراطور عقاب ابنهِ فلهُ اسوة بملوك بني اسرائيل واذا عمل
على الصفح والمسامحة فلهُ ايضًا اسوة بما اشار اليهِ الانجيل من
قبول الاب ابنهُ الجاني الذي اخذ مالهُ وبذرهُ وعاد اليهِ فذبح
لهُ العجل السمين. وبالعفو الامراة الزانية التي استحقت الرجم
بمقتضى الشريعة. ولهُ اسوة ايضًا بداود حيث اراد الابقاء على
ولدهِ ابشالوم الذي خرج عن طاعتهِ حيث قال لقوادهِ ابقوا

على ابني ولا تقتلوهُ . فهوذا الاب قد عفا عن ولدهِ وها هو قلب الامبراطور بيد مولاه فليختر ما يلهمهُ اليهِ .اه

وختم هذا القرار ثمانية من الاساقفة واربعة من روساء الاديرة واثنان من مدرسي القسوس واول من ختم منهم المطران دوريزان الذي كان لهُ اكبر علاقة بالكسيس كما تقدم . وقدم الى بطرس فظهر منهُ ان جمعية القسوس تريد ان تحمل امبراطورها على العفو عن ابنهِ وان كان يظهر منهُ انهُ ارتكب افظع الامور ضدهُ ولذلك كان بطرس يزيد حنقًا وانتظر صدور الحكم من مجلس الامة الذي قدم لهم راي القسوس والاساقفة في هذا المعنى ومكثت هذه الدعوى الموجهة من الاب على ولدهِ مدة اربعة اشهر وبعض ايام اي من اخر شباط (فبريه) الى ١٥ تموز (جوليه) وسئل الكسيس مسائل جمة اعترف بها بكثير من جرائمهِ ظنًا منهُ بان هذا الاعتراف يحمل اباهُ على العفو والرقة

وقصارى الامر ان مجلس الامة الذي كان قد الفهُ بطرس للنظر في امر ابنهِ واعضاؤهُ ١٤٤ رجلاً حكم عليهِ بالاعدام . وكتب في ذاك الوقت بانكلترا انهُ لو اقيمت هذه الدعوى بانكلترا لما وجد من ١٤٤ نفسًا واحدًا يحكم على الكسيس بجريمة

لكونهِ لا يستحق القتل قطعًا غير ان بطرس كان يعرف ان قوانين البلاد تختلف وإن من الضرورة اتباع القوانين التي سنها وبثها في البلاد الروسية . وقد اختلف العالم قاطبة بهذا المعنى فبعضهم وجه اللوم على الامبراطور باصدار مثل هذا الحكم وبعضهم وافق عليهِ وحسب ذلك من باب الصواب والحكمة والعدالة ان يحكم الحاكم المطلق على ولدهِ بالموت ليصون بلادهُ في المستقبل من شر افكاره واعمالهِ ومما اتفق عليهِ ورونهُ الثقات ان الامبراطورة كاترينا مع كراهة الكسيس لها وبغضها لم تسعَ بشيء يقابل ذلك بل كانت تجتهد على الدوام ان تلين زوجها وتحملهُ على العفو عنهُ كي لا يقال في تاريخ حياتها ان بغض ابن زوجها لها حملهُ على العقوق والعصيان على ابيهِ فضلاً عن انها كانت ترثي لحالهِ وسألت بطرس بمحفل من الناس بالحاح وتحرُّق ان لا يقرأ مضبطة الحكم على الكسيس في وجههِ بل قالت لهُ يكفيك عقابًا لهُ ان تلبسهُ ثوب الرهبنة لان الحكم عليهِ بالموت يعود على حفيدك بالعار ويأتي منهُ في مستقبل الايام ما لا يوافق اثباتهُ في تاريخ خلفهِ فاعتذر لها عن ذلك واظهر لها وجوبهُ . واحضر الكسيس بين يديهِ في ذاك المحفل وحال حضوره امران يقرأَ الحكم عليهِ فقرئ وهذه

صورتهُ

في ٢٤ تموز (جوليه) سنة ١٧١٨

انهُ بحسب الامر الصادر من لدن الامبراطور بطرس الموقع عليهِ بخطهِ بطلب تحقيق دعواهُ على ابنهِ الكسيس بتروفتش لما وقع منهُ من المخالفات ضدهُ كان من امرنا نحن الموقعين على هذا الحكم ادناه من وزراء وارباب شورى ورؤساء عسكرية بعد ان اجتمعنا عدة مرات وسمعنا بانفسنا اكثر من مرة شهادات على الكسيس وسمعنا ايضاً قراءة الرسائل الواقعة بين الوالد والولد وعدة رسائل واقعة من الابن ضد الاب وكذلك ما اعترف واقرَّ بهِ على نفسهِ مما هو بخط يده ومما اعلنهُ شفاها ايضاً لوالده امامنا نحن المعينين من الجناب الامبراطوري لاجل تحقيق هذه الدعوى هذا وان كان بمقتضى قوانين الدولة الروسية ليس من حقوقنا لكوننا رعايا وتابعين للذات الامبراطورية المتولية التي فوضتنا الراي والنظر في هذا الامر الا اننا انقياداً لامرها اجتمعنا للمذاكرة وبعد التفكر والتامل بذمة مسيحية دون خوف ولا تملق ولا مراعاة خاطر الامبراطور بل بكل ما يوافق هذه القضية من الاحكام الالهية المنصوص عنها في التوراة والانجيل والقوانين المدنية المتفق عليها في جميع البلاد استقرَّ راينا

بدون مناقضة ولا مخالفة على ان الكسيس بتروفتش يستحق القتل فحكمنا عليهِ بهِ نظرًا لما ارتكبهُ من الكبائر المذكورة ولما صدر منهُ من الموبقات الجسيمة في حق والده نعم ان ذات الامبراطور وعدهُ بمقتضى الامر المرسل اليهِ مع كلٍّ من تلستوي وروماتزوف بالمسامحة عما وقع منهُ من الفرار والعصيان اذا عاد من المحل الموجود فيهِ بالطوع والاختيار الاَّ انهُ غير مستحق لهذا السماح لما اعترف بهِ من سوء القصد والنية والتصرف بالاعمال القبيحة

ولما قرئت صورة الحكم علانية على رؤوس الاشهاد لم يمكن الكسيس ان يناقص او يجيب مدافعًا فابدى رضاهُ منهُ وفي الحال اصابهُ تشنج بالاعصاب انتهى بهِ الى فالج غيبهُ عن هداهُ فلم يعِ الاَّ قليلاً فطلب وهو على الحالة التي كان فيها بين الموت والحياة ان يقدم اليهِ والدهُ ليراهُ وبكى الاثنان وتحدرت منهما دموع الندامة والحنو وطلب الابن من ابيهِ الصفح والعفو فصفح عنهُ علنا ثم مسح هذ الامير المسحة الاخيرة ومات بحضور اهل ديوان روسيا في اليوم الثاني من قراءة الحكم فرفع اولاً الى الكنيسة الكبرى على نعش مكشوف وابقوهُ فيها اربعة ايام ليراهُ الرعايا وتحققوا موتهُ ثم دفنوهُ بكنيسة القلعة بجانب زوجتهِ وحضر في

موكب جنازتهِ الامبراطور والامبراطورة وكانت دموعهم لا تنقطع حزنًا على ضياع حياة هذا الشاب الوريث ولا ريب ان اشد القلوب قساوة يتاثر ويحزن عليهِ

وقد ظهر لعقلاء الامة الروسية بعد وقوع هذه الحادثة المحزنة ان بطرس اب لوطنهِ وانهُ يعتبر رعاياهُ اعضاء عائلتهِ وان لا فرق عندهُ بين ابنهِ وابن عمهِ واقل الناس حقارة لدى وقوع المشكلات والدعاوى. ولما كان هذا الامر يوءثر به جدًّا على الدوم اراد ان يشغل نفسهُ عنهُ فلجأَ الى الاصلاحات التي كان يرغب فيها فجبر عدة من اغنياء البلاد الى اقامة البنايات الكبيرة والقصور الشامخة في بطرسبرج ودفع نحو ١٥٠ الف فرنك للذين بدأُوا بمعامل الجوخ على سبيل التنشيط والاعانة واصبحت الحرف والصنائع برواج وانتظم فيها كثير من الاهالي الذين كانوا سابقًا قد اعتادوا على البطالة والكسل ورأى انهُ لاجل مثل هذه الصنائع لا يكفي الترخيص لاصحاب الصنائع والحث عليها فقط ولذلك كان كلما انشئ عمل او اخذ بانشاء حرفة جديدة يبدأُ هو بيدهِ في اول الامر ويعطي نموذجًا في تلك الصفة ترغيبًا للطالب او المنشئ وفي نفس هذه السنة اي سنة ١٧١٨ رسم صورة ترعة بحيرة لادوغا قاصدًا بذلك وصل

نهر نيفا بنهر اخر تسير بها السفن تسهيلاً لوصول البضائع الى بطرسبرج ولم تزل الالات التي استعملها لحفر الارض ونقل الاتربه محفوظة في بطرسبرج حتى اليوم وقد تم العمل بعد موتهِ وبنى مدينة جديدة في السنة نفسها سماها مدينة لادوغا الجديدة وعما قليل تم مجرى ترعتها التي توصل بحر الخزر بخليج فنلندة والبحر المحيط فكان في اول الامر تاتي السفن الصاعدة في نهر الاثل الى النهرين الصغيرين المذكورين اللذين وصل احدهما بالاخر ومنهما تذهب بواسطة ترعه اخرى الى بحيرة ألمن ومن ثم تدخل في ترعة لادوغا ومنها تنقل البضائع بواسطة البحر المحيط الى جميع اجزاء الدنيا

وبينما كان بطرس مستغلاً بهذه الاشغال الجسيمة التي كانت تنجز بمباشرتهِ وصلت همتهُ الى شبه جزيرة كمتشتكا في نهاية المشرق وانشأ قلعتين بتلك الجهة المجهولة الحال منذ زمن طويل عند باقي اهل الارض وكان جماعة من المهندسين الذين كانوا بالمدرسة البحرية يسيرون بجميع اقاليم دولة روسيا لرسم خارطاتها على غاية الضبط والصحة لكي يطلع الناس على الاراضي الروسية المتسعة التي اكسبها بطرس فتوسعت بها دائرة الراحة والرفاهية والثروة

ومن نظر الى الحال الحاضرة في روسيا يرى انها كانت قد اسست باهتمام ذاك المنشيء المصلح فان التجارة بعد ان كانت لا تذكر مطلقاً في بلاد روسيا ولا تحسب بشيء اصبحت منذ زمنهِ ينبوعاً عظيماً للثروة وانعطفت عليها الامة الروسيـة انعطافاً عظيماً لداعي اهتمامهِ بها وتسهيل طرقها واسبابها ووصل بلادهُ بغيرها كما لا يخفى ذلك على كل محقق ومدقق وكذلك صرف وقتاً لا يخلو من الصعوبة في اصلاح الكنيسة وترتيب قوانينها ومنع البنات والشبان من الترهب لنفع البلاد حيث من المقرر الثابت ان مثل هذه الخطة وسيلة كبرى لتقاعد الانسان عن الشغل والعمل وانحباسهِ في احد الاديرة وكما سنّ للكنيسة قوانين جديدة سنّ للدولة ايضاً نظاماً موافقاً لبلاده على طريقة تكفل دوام الامن ومنع التعديات واثارة الثورات وصرف ليالي كاملة متغلباً على معاندة الموانع التي كان يلقيها الاساقفـة وبعض الامراء المحافظين على الطرق القديمة . وانشأ بيوتاً للايتام ومستشفيات وغير ذلك من الامور النافعة

الفصل التاسع

في

المفاوضات التي وقعت في جزيرة الاند وموت كارلوس الثاني عشر وصلح نيوستات

كل ما ذكرناه من اعمال الامبراطور في هذه المدة من الاشغال الداخلية وحادثة ابنهِ المحزنة المكدرة وغير ذلك لم يشغلهُ عن الاحتراس والتحفظ من الدول الاجنبية ومخابرتهم على الدوام في كل امر يتعلق بالامور السياسية والمعاهدات الدولية حيث كانت الحرب مع اسوج لم تنقطع الى النهاية بل كانت تنتشب في بعض الجهات ببطءٍ وفتور حيث كان يرجو الصلح قريبًا بواسطة غورتز والبيروني لكون كل واحد منهما يجتهد في نجاح مسعاهُ لراحة سيدهِ فكما ان غورتز كان يسعى بضمد جراح كارلوس كان البيروني يسعى في خلع جورج ملك الانكليز وباعادة ستانسلاس الى بولونيا ويقلد سيدهُ فيلبس نيابة فرنسا فهذان كانا يسعيان بكل ما في جهدهما ويهتمان كل الاهتمام بتدبير احوال اوربا ووقوع تغيير بها فلم يريا وسيلة للنجاح الاَّ بموافقة الامبراطور وكان كارلوس يستحسن عملهما ويومل الفوز

والنجاح واما الامبراطور فكان يلاحظ اعمالهما واراءهما ويختبر هل توافق مقاصدهُ غير ان البارون غورتز توصل بنشاطهِ ومهارتهِ الى ان حمل بطرس ان يبعث بوكيلين من قبلهِ الى جزيرة الاند لاجل المفاوضة بشان الصلح فوصل الوكيلان وهما بروسا الايقوسي واوسترمان الشهير الى المجلس المنعقد لاجل الصلح فوجدا ان غورتز وجيلانبرغ قد وصلا قبلهما مرسلين من قبل كارلوس الثاني عشر. ومن الغريب انعقاد مجلس المذاكرة بدون عقد مهادنة بين الفريقين فان اسطول بطرس كان يطوف بسواحل اسوج وينهب ما يظفر بهِ. ومع ما كان واقعاً من الحرب في ذاك الوقت كان الصلح اخذاً ما أخذاً حسناً لان مباديهِ كانت من اعمال المروّة المعروفة بالامبراطور بطرس فانهُ ابدى من التساهل ما لا يظن واطلق المارشال رنشلد بدون فداء وانعم عليهِ وكذلك كارلوس انعم على الجنرال تريتسكوي والجنرال غولوين وردهما بعد ان كانا اسيرين في اسوج منذ واقعة برول. وبينما كانت مذاكرات الصلح قد قاربت الانتهاء وهي توذن بتغير بلاد الشمال واحداث امور اخرى توافق افكار غورتز ومقاصدهِ عرض على بطرس ان يستولي على دوقية مكلنبرغ حيث ان دوقها كارلوس كان قد تزوج ببنت اخيهِ

ايفان فيخلصهُ من اشراف بلادهِ الذين قاموا عليهِ وخرجوا عن طاعتهِ وكان لبطرس جيش في تلك الدوقية لمساعدة صهره كما ان ملك الانكليز كان يساعد الاشراف وتقرر ان تدخل تلك الدوقيه في حكومه بطرس لاستيلائهِ على ولاية ليفونيا وان يعطى لدوق مكلنبرغ عوض هذه الدوقية دوقية كورلندة وجزءٌ من بلاد بروسيا وان تكون دوقية بريمة وولاية وردان لدولة اسوج ولكن كان لا يمكن انتزاعهما من جورج الاول ملك انكلترا الاَّ بقوة السلاح فيوخذ من ذلك ان غورتز كان مرامهُ ان لا يقتصر على مجرد الصلح بين بطرس وكارلوس بل على المحالفة على الحرب وشن الغارات ويرسلان جيشاً من قبلهما الى ايقوسيا ومما تذاكروا فيهِ ايضاً ان كارلوس الثاني عشر بعد ان يفتح نروج يذهب بنفسهِ الى بريطانيا العظمى ويضع عليها ملكاً جديدا . وكان يظهر ان نكبة جورج تجر الى نكبة حليفهِ نائب فرنسا لانهُ متى تجرد عن النصير وقع بقبضة اسبانيا فتقوى عليهِ

وكان غورتز والبيروني يظنان انهما اشرفا على تغيير احوال اوربا من اولها الى اخرها غير ان الدهر خانهما وحبطت مساعيهما وهدمت مقاصدهما بكرة مدفع رميت بالصدفة على ابراج

فريديريشال بمملكة نروج فقتلت كارلوس الثاني عشر وهزم
الانكليز الاسطول الاسباني وظهر امر العصبة التي كانت ثائرة
بفرنسا وتبدد شملها وطرد البيروني من اسبانيا وضرب عنق
غورتز في مدينة ستوكهلم ولم يبقَ من هذا الحزب على الميل الى
نجاح شمال اوربا الاَّ بطرس ولم يتعرض لمضرة دولة من الدول
بل قوي على انفاذ غاياتهِ الخصوصية دون فتح حرب او اظهار
عداوة . وبعد موت كارلوس الثانى عشر تغيرت كل تلك
التدابير وقلبت الاحوال في اسوج فان كارلوس كان مطلق
التصرف غير مقيد في كل اجراءاتهِ فاقاموا اختهُ ملكة بشرط ان
تكون حكومتها مقيدة وعوض ان كان كارلوس قصد محالفة
بطرس على انكلترا وحلفائها مرجحًا بذلك جانب الفوز والظفر
اتحدت اختهُ مع اولئك على بطرس وتحزبوا جميعًا ضدهُ حال
كون بطرس اجهد نفسهُ في الصلح في الاند واملت اسوج باتحادها
مع الانكليز ان ترسل لها اسطولاً الى بحر بلطيك فتعارض
اسطول روسيا وتجبر الامبراطور الى عقد صلح اشرف واوفق
شروطًا من صلح الاند . فدخلت عساكر الانكليز من طرف
بلادها في حدود دوقية مكلنبرغ فعارضتها عساكر روسيا وبعد
مواقع طردت جيوش الانكليز ورجعت متقهقرة وذلك في شباط

(ففريه) سنة ١٧١٩

وكان لبطرس ايضاً جيش في بولونيا يخاف باسهُ كل الاحزاب فلا يجسر احد على تحريك ساكن ضد الغايات الروسية واعد ايضاً اسطولاً لشن الغارة على اسوج او تلتزم دولتهم ان لا تعطل شروط مجلس الاند وتولى بطرس قيادتهُ بالنيابة عن اميرالهِ ابر كسين فانتصرت فرقة من هذا الاسطول على الاسطول الاسوجي واستولى على سفينتين كبيرتين وبعض سفن صغيرة فانعم بطرس على ربانى هذهِ السفن بستين الف فرنك وبانواط من الذهب (مداليون) واكثر لهم من علامات الشرف والامتياز تشجيعاً لهم ومكافاة على نجاحهم وفي هذا الوقت بعينهِ دخل اسطول الانكليز بحر البلطيك متظاهراً بمساعدة اسوج وقائد هذا الاسطول نوريس فلم يضر ذلك ببطرس لثقتهِ باسطولهِ وانهُ قادر على القيام بمقاومة هذا الاسطول وعلاوة على ذلك فقد ارسل بكثير من السفن الى تلك النواحي مضايقاً على اسطول الانكليز فيهِ حتى سد عليهِ المسالك. وبعث الى الاميرال الانكليزي يسالهُ هل قدومهُ لمجرد كونهِ من محبي دولة اسوج او في قصدهِ عداوة روسيا وايقاد الحرب معها فاجاب بانهُ الى ذلك الوقت لم يرد اليهِ امر يمكنهُ

من الجواب على سوالِهِ . ومع هذا الجواب المبهم بقي بطرس محافظاً على قوتهِ في البحر . والواقع ان الاسطول الانكليزي لم يحضر الا ليري نفسهُ للامبراطور فيحملهُ على ان يصالح الاسوجيين على شروط مقبولة . وفي شهر تموز (جوليه) سنه ١٧١٩ ميلادية ذهب الاميرال الى كوبنهاغن واغار بطرس بعد ذهابهم على بلاد اسوجية بالقرب من ستوكهلم عاصمة اسوج واتلفوا فيها معامل الحديد واحرقوا نحو ١٥ الف بيت وفعلوا بهم من المضرة والاساءة ما يجبرهم الى قبول الصلح دون تراخٍ او تهامل

وفي السنة التي بعدها اي سنة ١٧٢٠ تقلد اميرهيسة زوج الملكة امر الاحكام حيث تخلت لهُ زوجتهُ عن الملك فاول شيء بدأ بِهِ هوانهُ بعث من طرفهِ رسولاً الى بطرسبرج لاجل تعجيل هذا الصلح غيرانهُ في اثناء تلك المفاوضات كانت الحرب قائمة مستمرّة وانضم الاسطول الانكليزي الى الاسطول الاسوجي دون ان يظهر منهُ ادنى اشارة عدوانية وكان بطرس يرغب ان يعرف هل يقصد الانكليز عداوتهُ فعلاً او مقصدهم مرضاة الاسوجيين فقط غيران بقاء المخابرات الجارية بينهُ وبينها كان يريح فكرهُ على نوع ما اي ان الانكليز لم تعلن فتح الحرب على روسيا رسميًا وفي هذه المرة اظهر نوريس رئيس الاسطول

الانكليزي ان سيدهُ جورج يقصد الصلح والوفاق بين دولتي روسيا واسوج فقولهُ هذا بين لبطرس ان الغاية تساهل بطرس مخافة من الانكليز فقطع المخابرات الصلحية وعزم على مداومة الايقاع بجدود اسوج خصوصًا وقد بلغهُ ان الاسطولين الانكليزي والاسوجي ضربا جزيرة صغيرة من ولاية مثونيا اسمها برجان واحرقوا منها بيتًا من القصب (كوخ) فامر بوارجهُ ان تضرب واسا (قلعة على ٤ فراسخ من ستوكهلم) فضربوها واحرقوا من قرى تلك الجهة ٤١ قرية ونحو الف بيت للسكن واوقعوا في البلاد من المضار ما يقصر القلم عن وصفهِ واستولى الامير غالتزين على اربع بوارج اسوجية واركبها العساكر الروسية وارسلت الى مينا كرنسلوت تجاه مدينة بطرسبرج

واخيرًا طلب ملك اسوج الجديد في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٢٠ ترك القتال والهدنة الى ايام فلم يجب بطرس طلبهُ لما وقع من الانكليز في هذا المعنى من الارهاب والتهديد لهُ فالتزم ملك اسوج ان يتوقع على اورليان نائب مملكة فرنسا ليكون واسطة صلح فبعث هذا الامير وكيلاً من قبلهِ الى مدينة بطرسبرج ومنها الى ستوكهلم وفاز بالنجاح · وفي شباط من سنة ١٧٢١ عقد مجلسًا لاجل المفاوضة بامر الصلح وذلك في نيوستات وهي

مدينة صغيرة في اقليم فنلندة و بقي بطرس مصرًّا على دوام الحرب وقال علنًا انهُ لا يترك القتال الّا متى اشرف المجلس المنعقد على بت شروط الصلح بحسب رايهِ وغاياتهِ وموافقتهِ فجرى ذلك وعقدت شروط الصلح بحسب ما اراد فقد تخلت دولة اسوج تخليًا مؤبدًا عن كل ما فتحهُ من بلادها وهو من حدود كورلندة الى نهاية فنلندة وما وراءهُ فثبت لروسيا على ولايات ليفونيا واستونيا وانغريا وكارليا وبلاد ويبرغ والجزائر المجاورة لها التي تمكنها من الاستيلاء على البحر فتكون بحد ذاتها مملكة كبيرة بذل في تحصيلها من الجهد والمشقة ما استغرق نحو عشرين سنة تقريبًا ووضع القرار على هذا الصلح المعروف بصلح نيوستات في ١٠ ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٢١ واللذان وقعا عليهِ اوسترمان وزير الامبراطور والجنرال برسه. وقد سرَّ بطرس لذلك غاية المسرَّة حيث راى انهُ بهذا الصلح قد تخلص من ضرورة ابقاء جيوش كبيرة في جهة اسوج ومن شغل بالهِ بدولة انكلترَّا وما جاورهُ من الممالك فراى حينئذٍ انهُ صار في وسعهِ التفرُّغ للاصلاح والتحسين في امبراطوريتهِ وقد كان اولاً شرع في هذا الاصلاح شروعًا حميدًا

واحتفل في كل الامبراطورية الروسية ولا سيما في مدينة

بطرسبرج بهذا العيد اي عيد الصلح وفرحت بهِ الاهالي فرحًا لا يوصف لفراغهم من الحرب ولاتساع مملكتهم هذا الاتساع العظيم ولوضع مملكتهم في الدرجة الاولى بين ممالك العالم وفي ذاك اليوم نفسهِ اصدر الامبراطور عفواً عامًا عن المذنبين المسجونين ما عدا اللصوص والمتجاسرين على ذاتهِ الملوكية وابطل ما كان قد ضرب من المغارم على رعاياه . وفي هذا الوقت لقبهُ مجلس السنا بهذه الالقاب وهي . عظيم وامبراطور وابونا وابو الوطن وحضر سفراء فرنسا والمانيا و بولونيا واعترفوا لهُ بهذه الالقاب وهنأُوهُ بالمجد الذي حصل عليهِ وبعد مدة اعترف لهُ جميع دول اوربا بلقب امبراطور الذي كانت قد اعترفت بهِ ملكة الانكليز من يوم واقعة بلطافا ما عدا البابا فانهُ لم يهن عليهِ تقدم دولة على الكنيسة البطرسية

الفصل العاشر

في

فتوحات بطرس ببلاد العجم

لما كانت بلاد العجم واقعة موقعًا قريبًا من البلاد الروسية

بعث بطرس بجمعية تجارية الى مدينة شماكا بقصد اتصال التجارة بين هذه المدينة وبلاده لكثرة غناها واتساع تجارتها وحيث كانت بلاد العجم مرتبكة بالعصيان بسبب خروج الافغان والطاغية محمود رئيس العصاة وبذلك كان النظام مختلاً ببلاد العجم والفتن قائمة في كل ناحية من البلاد والدماء تسفك وانحت البلاد بحالة فوضى واخيرًا هجم جماعة اللزجية من العجم على شماكا على حين غفلة ونهبوها وذبحوا جميع من بها من الروسيين ممن كانوا يبيعون ويشترون تحت حماية الشاه حسين وسلبوا جميع اموالهم ومحاصيلهم التي بلغت قيمتها نحو اربعة ملايين ريال روسي فارسل بطرس الى الشاه حسين وللطاغية محمود وهما يتنازعان التاج العجمي عن مثل هذا التعدي وان يعوضا عليهِ بدلاً عن ذلك بما يرضي الامة الروسية فاعتذر الشاه حسين بعدم مقدرتهِ على انفاذ طلبهِ واما محمود فقد حركهُ كبرهُ وظن بنفسهِ الغلبة على الروس فامتنع عن الاجابة فلجأ بطرس الى الانتقام لنفسهِ وعزم على فتح الحرب على الشاه حسين وعلى الطاغية محمود وهذا الاخير كان يجتهد ويسعى بفتوحاتهِ ببلاد العجم . ولما بلغ الشاه حسين ان امبراطور روسيا يتجهز لدخول بحر الخزر لاجل ان ينتقم في نظير قتل

رعاياه الذين ذبحوا في مدينة شما كا ارسل اليهِ سفيرًا من الارمن يستعطفهُ ويسالهُ ان يكون حربهُ ببلاد العجم ليس لاجل الانتقام من البلاد بل من الطاغية محمود وانقاذ البلاد منهُ . وكان مطمح بطرس منذ زمن مديد الى الاستيلاء على بحر الخزر وان يضع فيهِ اسطولاً روسيًا ويجعل تجارة بلاد العجم وبلاد الهند تمرُّ ببلادهِ وكان قد سبر عمقهُ واختبر سواحلهُ ورسم خارطات بهِ . ثم سافر الى بلاد العجم في ١٥ ايار (مايس) سنة ١٧٢٢ مصحبًا معهُ زوجتهُ كاترينا في هذه السياحة ونزل في نهر الاتل حتى وصل الى مدينة استراخان ومن هناك اسرع في عمل الخلجان وكان الغرض منها وصل بحر الخزر ببحر بلطيك والبحر الابيض فتم ذلك على عهده وبقي منهُ جزء انتهى في زمن حفيده وفيما بطرس يدبر هذه الامور وصلت اليهِ جيوشهُ المعدة لهذه الغزوة وهي ٢٢ الفًا من المشاة و٩ الاف من الخيالة و١٥ الفًا من القوزاق و٣ الاف من الملاحين لهم خبرة بالحركات العسكرية وقت الهجوم مع العساكر البرية ولما اجتاز الخيالة الصحارى وجب ان يعبروا مضيق جبال قوقاس اي جبال الشراكسة الذي يقدر ثلثمائة شخص من اهلها ان يوقفوا جيشًا بتمامهِ غير ان عدم انتظام الحكومة ببلاد العجم يسهل المرور

من هناك

وقد سار بطرس في نهر الاتل المذكور من جهة جنوب مدينة استراخان وقطع نحو ١٠٠ فرسخ حتى وصل الى مدينة اندريهوف الصغيرة ومن هذه الجهة توغل في السير براً في بلاد داغستان ونشر بها اعلانات باللغة الفارسية والتركية سلك بها مسلك الادب مراعاة لخاطر الدولة العلية العثمانية حيث كان من رعاياها غير الشركس المجاورين لتلك الجهة جملة من الحكام ذوي القوة والاعتبار دخلوا منذ قريب تحت حمايتها

ومن جملة اولئك الحكام حاكم ذو شوكة اسمهُ محمود اوتميج فزين لهُ سلطانهُ وعظمتهُ احتقار الروسيين فهاجمهم الاَّ انهُ هزم شر هزيمة امامهم فعاثوا في بلاده وضربوها حتى كادت تصير قاعاً صفصفاً . وبعد ايام قليلة اي في ١٤ ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٢٢ وصل بطرس الى مدينة دربند ويسميها العجم دمر قبو اي باب الحديد لان لها باباً متيناً من الحديد بجهتها الجنوبية وهي مدينة طويلة ضيقة متصلة من احد طرفيها بشعبة من جبل قوقاس صعبة المرتقى ومن الطرف الاخر متصلة بالبحر . وتعد اسوار هذه المدينة من عجائب الاقدمين فان ارتفاعها اربعون قدماً وعرضها ستة اقدام محصنة بابراج مرتفعة ومربعة الشكل يبعد

البرج عن الاخر ٥٠ قدمًا ويظهر للناظر ان هذه الابنية كانها قطعة واحدة الى غير ذلك من التركيب العجيب الصنعة وامتداد ذلك السور من شواطئ بحر الخزر الى شواطئ البحر الاسود

فحين قربت الجيوش الروسية من هذه المدينة لم يرد حاكمها الموافقة اصلاً اما لكونهِ لم يكن في طاقتهِ الذب عنها واما لكونهِ راى ان حماية الامبراطور بطرس الاكبر لهُ اولى من حماية الطاغية محمود فاحضر مفاتيح المدينة ومفاتيح القصر الذي فيها وكانت من الفضة وسلمها لجيوش الروسيين فدخلتها ونصبت اعلامها على شاطئ البحر · واراد الطاغية محمود الذي كان قد تملك قسماً كبيرًا من بلاد العجم ان يعارض الامبراطور بطرس ويمنع دخولهُ مدينة دربند فبادر بنفسهِ بعد ان هيج التتار المجاورين لتلك الجهة فوجدها قد سلمت ودخلها بطرس كما تقدم وبقي فيها وهناك بلغهُ ان السفن التي كانت تحمل المون والذخائر قد غرقت عند استراخان فتكدر ولم يمكنهُ بعد ذلك ان يتقدم في بلاد العجم فعاد الى موسكو لصرف فصل الشتاء في روسيا · وبقيت دولة العجم منقسمة بين الشاه حسين والطاغية محمود فكان الاول يسعى في مراضاة بطرس والثاني

بمخافةٌ ولخوفهِ منهُ حرّض الدولة العلية على محاربتهِ وكاد يفوز بالنجاح في بادىء الامر الاَّ ان الدولة العلية بعد المخابرات مع النمسا وفرنسا وجدت نفسها مضطرّة الى منع مثل هذه الحرب خصوصاً لانها تعرف ان من حقوقها الذب عن الشاه حسين وردع الطاغية محمود الذي خرج متعدياً على البلاد والسلطنة الفارسية ودخل كثير من اهالي البلاد تحت حماية روسيا عند ما راوا الطاغية يتقدم ويخرب في نواحي دربند . وبينما كان الشاه حسين الصفوي قد ارسل الى بطرس سفيراً من قبلهِ يطلب منهُ الامداد والمساعدة هجم الطاغية محمود على اصفهان وقبض على صاحبها وهو ابن الشاه المذكور واسمهُ طهماسب ففرَّ منهُ بالحيلة وجيش بعض جيوش قاتلهُ بها ولم تفتر همتهُ بل اسرع الى طلب حماية الامبراطور بطرس وارسل الى السفير الذي كان بعثهُ ابوهُ اليهِ يخبرهُ من قبلهِ بنفس الغاية التي كان ابوهُ بعثهُ لاجلها

ولما وصل السفير الى مدينة استراخان علم ان الجنرال مانوفكين الروسي يستعد للسفر بجيوش جديدة لمساعدة الجيوش المقيمة في داغستان فاعطاهُ السفير كتاباً لاهالي مدينة باكو الواقعة عند بحر الخزر يرغبهم عن لسان سيدهم ان يسلموا انفسهم

لامبراطور روسيا دون تردد. ثم سافر السفير المذكور الى بطرسبرج
وسار مانوفكين الى باكو فحاصرها واستولى عليها وبعث بخبر
استيلائهِ عليها الى موسكو فصادف وصول السفير يوم وصول
هذا الخبر فاجتمع ببطرس وبلغهُ رسالة سيدهِ وولدهِ طهماسب
فوعده بمساعدتهما على الطاغية محمود وانهُ سيذهب بنفسهِ لردعهِ
فوعدهُ الشاه بان يتنازل لهُ عن مدينة باكو ودربند واقليم
جيلان ومازندران واستراباذ . فاقليم جيلان هو نفس اركانيا
واقليم مازندران المتصل بجيلان هو عين بلاد مرو واقليم
استراباذ متصل بمازندران وهذه الاقاليم الثلاثة هي التي لقدماء
ملوك عراق العجم واذربيجان ولذلك راى بطرس انهُ قد اصبح
بوقت قريب سيداً على ممالك متسعة دخلت مجدداً في حوزتهِ
بمساعدة الصدف واما طهماسب فبقي رحالاً ينتقل من جهة الى
جهة بجيوشهِ يقتفي اثار الطاغية محمود. والتزم ان يعطي الدولة
العثمانية قسماً من بلادهِ فضلاً عما اعطاه لروسيا فاتفق كل
من الامبراطور بطرس والسلطان احمد الثالث على ان الدولة
الروسية تاخذ من بلاد العجم الاقاليم التي اسلفنا ذكرها والدولة
العلية تاخذ اقليم كسبان وقرص وايروان زيادة عما كانت
تسعى باخذهِ والتغلب عليهِ من الطاغية محمود وبذلك قسمت

مملكة العجم وضعفت قوتها و با لاختصار ان المصائب قد دمرت بلاد العجم مدة مستطيلة وقيل ان الشاه حسين قادهُ الجبن والخوف الى ان يضع التاج بنفسهِ على راس الطاغيه محمود ويقال ان محموداً هذا اختل عقلهُ بعد ذلك فبهذه المثابة تصرف شخصان احدهما مغفل والآخر مجنون في امر اهالي البلاد ويقال ان محموداً في حال جنونهِ المتقطع قتل جميع اولاد الشاه واولاد اخوتهِ وكان عددهم مائة نفس ثم بطش خسرو ابن اخي الطاغية بهِ فقتلهُ وهو اشبه بعمهِ قساوة وطغياناً . وكفانا ان نقول هنا ان بطرس قبل موتهِ انهى حروبهُ في العجم وضم الاقاليم الثلاثة الى ممالكهِ ونشر صيتهُ في كل بلاد العجم حتى تعجب العالم قاطبة وخصوصاً اهل اوربا كيف ان السعد يخدمهُ فيتوسع في فتوحاتهِ

الفصل الحادى عشر

في

تتويج الامبراطورة كاتريبا وموت بطرس الاكبر وبه النهاية

لما عاد بطرس من غزوة بلاد العجم راى نفسهُ انهُ الحاكم

المفوض في بلاد الشمال فاقام نفسهُ محامياً لعائلة كارلوس الثاني عشر الذي كان عدواً لهُ منذ ثماني عشرة سنة فاحضر بديوانهِ دوق هلستين ابن اخت كارلوس المذكور وازوجهُ ببنتهِ وعقد محالفــة مع اسوج اختيارية جعل نفسهُ بها ملزوماً على الدوام بالمحاماة عنها وصون عائلة ملوكهم. ونطرف بطرس بالاشغال التي نشرها في ملكهِ الى اخر شبه جزيرة كمتشتكا ولاجل حسن ادارة هذه الاشغال رتب بمدينة بطرسبرج جميعية علوم زهت بها الفنون وازهرت في كل النواحي من روسيا فكانت البلاد تمتع بالهدء والراحة بسبب تلك الاشغال وبالقوانين التي سنها لهم وقويت الصنائع وصارت مرغوبة وزادت القوة البحرية واراد أن يتقاسم هذا المجد مع كاترينا زوجتهِ التي ساعدتهُ بالخلاص من ضيقات كثيرة ورافقتهُ في اكثر اوقاتهِ في الحروب والسلام وخصوصاً في واقعة البروث كما تقدم في بابهِ

ففي ١٨ ايار (مايس) سنة ١٧٢٤ توج الامبراطور زوجتهُ بحضور كل من بنات اخيهِ ودوق هلستين الذي اختاره صهراً لهُ على بنتهِ وسار امامها راجلاً في هذا اليوم بصفة قائد مائة على فرقة جديدة سماها فرقة شفالية الامبراطورة اي فرقــة التشريف. ولما دخل الموكب الكنيسة وضع بطرس التاج على

راس زوجتهِ فارادت عند ذلك ان تقبل ركبتهُ شعورًا منها بفضلهِ وبمنتهِ ونظرت الى تلك السعادة التي وصلت اليها غير ناسية ايام كانت حقيرة فمنعها بطرس وامران يقرا الاعلان الذي نظمهُ بذلك قبل تتويجها باشهر وهو

من حضرة الامبراطور المتولي على جميع الدولة الروسية الى جميع فيئات القسيسين والضباط الملكيين والعسكريين والاهالي عمومًا الموصوفين بالامانة . لا يخفى على احد منكم العادة المستمرة الجارية بالممالك المسيحية التي بمقتضاها يتوج الملوك زوجاتهم كما هو جار الان وكما وقع عدة مرات في الازمان الغابرة من الملوك المسيحيين اليونانيين كالقيصر بازيليد الذي توج زوجتهُ زنوبيا والقيصر يوستنيانوس الذي توج زوجتهُ لوبسينا والقيصر هرقل الذي توج زوجتهُ مرتينا والامبراطور ليون الفيلسوف الذي توج زوجتهُ ماريا وكذا جماعة غيرهم من القياصرة قد وضعوا التاج الامبراطوري على رؤوس نسائهم ولا محل لذكرهم هنا جميعهم . فمن المعلوم اننا طالما خاطرنا بنفسنا واقتحمنا الشدائد والاهوال مدة الحرب الاخيرة التي مكثت مدة ٢١ سنة على التوالي لحفظ وطننا وقد انهينا هذه الحرب بعون الله تعالى مع الشرف الكامل والمنفعة الزائدة

لدولتنا وبالصلح الذي لم يسبق ان وقع مثلهُ لدولة روسيا ولم تحز قط من الفخار ما حازتهُ بهذه الحروب. وحيث ان زوجتنا الامبراطورة كاترينا قد وقع منها لنا مساعدات لا تنكر في الخلاص من ربقة هذه الاخطار في عدة وقائع وخصوصاً في الواقعة التي حصلت بيننا وبين الدولة العثمانية على نهر البروث حيث قد اضمحل فيها حال جيوشنا وآل امرها الى ٢٢ الف مقاتل وكانت العساكر العثمانية ٢٧٠ الفًا فقد اظهرت الامبراطورة في هذه الحالة الكريهة التي كان لا يومل فيها النجاح غيرة عظيمة بما صدر منها من الشجاعة الزائدة عن طاقة النساء كما هو معلوم عند جيوشنا وبدولتنا فبالنظر الى ذلك وبمقتضى التصرف والنفوذ الموهوب لنا من الله تعالى ننجز هذا التتويج في فصل الشتاء من هذه السنة بمدينة موسكو. وقد اعلنا ذلك قبلاً لرعايانا المحبين الامناء ومحبتنا الامبراطورة لا تزال لهم بدون نقص ولا تغيير. اه

ولما خرجوا من الكنيسة امران تحمل عصا الملك والكرة الملكية امامها فحملتا وعزم بعد ذلك على تتويج بنتهِ دوقة هلستين فلم يسمح لهُ الزمان فانهُ في ٢٤ تشرين الثاني من السنة نفسها اي سنة ١٧٢٤ شعر بطرس بحصول تغيير عظيم في صحتهِ نشر

بسببهِ الغم والكدر على منزلهِ ودوائره فصارت اخر ايامهِ من الدنيا غير لائقة بابهــة المواسم والافراح وسبب هذا المرض كثرة اللغط والطعن بالامبراطورة كاترينا بانها دست لهُ السم بقصد الاستيلاء بعدهُ على البلاد الروسية وحكى ذلك بعض المورخين واثبتوهُ مع انهُ زور محض لا يدخل العقل الانساني ان فتاة مقدسة ككاترينا ترتكب مثل هذا الامر الفظيع مع انها تعقل شدة الحب الذي خصها بهِ بطرس وتشعر بانعامهِ لها وعليها على الدوام والبعض اتهمها بانها فعلت ذلك حبًّا بشاب جميل الصورة مولود في موسكو من عائلة فلمنكية اتخذتهُ صاحبًا واتخذت اختهُ ماشطة خصوصية لها كان قد طردهُ بطرس وطرد اختهُ حيث اتهمها الناس بانهما اتخذا خطة الرشوة ديدنًا فيروجان مصالح الناس لدى الامبراطور وزوجتهِ حيث انهُ كان يكره ان يسمع بمثل هذا الامر وقد قاص اناسًا كثيرًا ظهر منهم انهم يرتشون وعاملهم بمعاملة قاسية جدًّا . وايد هذه التهمة رجوع الماشطة الى خدمة كاترينا بعد موت زوجها . واما ما قيل عن انها دست اليهِ السم رغبة بارتقاء عرش المملكة فهذا لا اصل لهُ لانهُ كان لا يخطر ببال كاترينا ولا غيرها ان تجلس هي حاكمة في روسيا بل كان موكدًا عندها وعند عموم الناس

ان ولاية العهد ستكون لحفيد بطرس بن الكسيس او لبنت بطرس دوقة هلستين حيث كانت محبوبة من الشعب كمحبة كاترينا بل اعظم . واكبر دليل يدحض ما اتهمت بهِ كاترينا هوان عموم العالم تعرف حالتها واطوارها وشدة احتياجها الى بقاء زوجها معها وان بحياتهِ راحة كبرى لها لكونها كانت في حياتهِ مالكة متصرفة لا تامر امرًا الا وينقضي فكأن الامور كانت تدور بمعرفتها وعنايتها فلا تخالف بشيءٍ من الامبراطور وخصوصًا انها كانت ميالــة الى الاصلاح وتعزيز الفنون وبطرس كان يرقبها على الدوام ويبذر الاموال الغزيرة لاجلها في كل زمان ومكان . ولا غرو ان اتهمت كاترينا بمثل هذه التهم في بلاد كروسيا لا يزال بها قوم من المحافظين على العوائد القديمة وافكارهم ميالة الى الخرافات فيعللون لكل شيءٍ تعليلاً وخصوصًا في شان موت الملوك اذا ما توا حال صباهم او قبل ان يشيخوا فلا ينسبون موتهم الى الانحلال الطبيعي بل يسندونهُ الى التسميم او الى دسائس اخرى كانت على غير حكم القضاء

هذا وان بطرس كان مصابًا بعسر البول فتسبب لهُ من ذلك آلام شديدة وكان يغتسل على الدوام بالمياه المعدنية فلم يجدِ ذلك نفعًا في شفائهِ واخذت بنيتهُ تضعف من بداية سنه

١٧٢٤ ضعفًا محسوسًا وإن اشغالهُ التي كان لا ينقطع عنها زادت مرضهُ حتى قرب منهُ الاجل وظهرت عليهِ علامات الموت وفي كانون الثاني (جنفيه) من سنة ١٧٢٥ شعر بحرارة شديدة نشأ عنها هوس وضجر فاراد ان يكتب شيئًا بيدهِ يوصي بهِ فلم يقدر بل كتب هذه الكلمات . اعطوا كل شي الا . ولما لم يعد يستطع الكتابة صاح . احضروا الاميرة حنة بترونا اي بنتهُ وكان مراده ان يملي عليها لتكتب ولم تصل هذه الاميرة الى سريره الا بعد ان فقد ايضًا قوة الكلام فلم يقدر على الكلام والنطق واستمر ١٦ ساعة يقاسي سكرات الموت وكاترينا لا تفارق وسادتهُ مدة ثلاثة ايام كاملة واخيرًا مات على ذراعيها في ٢٨ كانون الثاني في الساعة الرابعة بعد نصف الليل . وقد ظن بعض الناس حينئذٍ انهُ اوصى بالملك لزوجتهِ على انهُ لم يوصِ قط ولا عهد بالولاية لاحد من بعدهِ . ونقلت جثتهُ الى الديوان الكبير في دار الحكومة ومشى وراءهُ جميع العائلة الامبراطوية وارباب مجلس الحكومة وجميع اعيان البلاد وكثير من الاهالي ووضعوهُ على سرير عال كعادتهم وسمح لكل انسان ان يدنو منهُ ويقبل يديهِ مدة شهر ونصف اي الى اليوم الدي تعين فيهِ دفنهُ وهو ١٠ اذار (مارس) سنة ١٧٢٥

وقد اختلف الناس اوائذٍ في من سيتولى الملك بعده
لانهُ كان قد توفى عن زوجتهِ كاترينا وبنتهِ البكر دوقة هلستين
وحفيدهِ بطرس بن الكسيس الذي كان لهُ حزب عظيم يطلب
توليتهُ غير ان الامير منزيكوف كان يسعى في تولية كاترينا حيث
كان متفقًا معها عليها وبينما كان بطرس في السراية ملقى على
سرير موتهِ اجتمع اعيان الحكومة ووزراؤها وامراؤها فخطبت
فيهم كاترينا خطبة موثرة وحثتهم ان يتفقوا على وليّ للمملكة دون
نزاع ولا شقاق أيًّا كان كي لا تهرق الادمية ولا يقع ما يدنس
اجراءات زوجها المتوفى ويذهب باتعابهِ سدى . فاجابها
منزيكوف قائلاً اني بلسان الامة الروسية اقول انهم لا يرتضون
سواك امبراطورة لهم واختباري لك ولحكمتك وادارتك يجعل
البلاد تتوسم الخير فيك فينالها الحظ الوافر الذي نالتهُ في ايام
زوجك المرحوم المتوفى الذي كان على الدوام يسر منك ويتمنى
لك مثل هذا المنصب . وشهد المطران انهُ سمع الامبراطور قال
يوم تتويجها انهُ لم يتوجها الاّ لتكون ولية عهدهِ من بعدهِ . وبعد
مذاكرة ارباب ذاك المجلس قرروا مبايعتها واصدروا اعلانًا
وقع عليهِ جميع اهل المجلس المذكور ما لهُ ان الامبراطورة قد
خلفت زوجها على بلاد روسيا من يوم موتهِ

وقد تاسف جميع سكان روسيا على موت امبراطورهم وصرفوا ايام المناحة بالحزن الى ان دفنت جثتهُ با لتكريم والتعظيم اللائقين برجل كبطرس الكبير حتى ان الذين كانوا لا يسرون من اعمالهِ تشققت مرائرهم عليهِ وعرفوا انهم فقدوا والدًا حنونًا كان يحامي عن البلاد والعباد ويسعى في خيرهم وقد تبين عند اهل اوربا انهُ احب الفخار والشهرة لكنهُ جعل فخاره بفعل الخير وان عيوبهُ لم تغير من صفاتهِ الحميدة فمن حيثية كونهِ بشرًا كان لا يخلو من العيوب ومن حيثية كونهِ ملكًا كان عالي الهمة فتغلب على عوائد رعاياهُ في كل الاحوال وعوائد نفسهِ فعودها على ما فيهِ خيرها ونفعها من جهة الفنون التي غرسها بيدهِ فاينعت واثمرت وشهدت لهُ بذكاء عقلهِ واوجبت تخليد ذكرهِ . وبالجملة فكانهُ جعل ملوك الدول المتمدنة منذ ذاك الحين يقول لسان حالهم بعضهم لبعض اذا كان بطرس قد وجد في البلاد التتارية ولم يكن لهُ مساعد غير جودة عقلهِ فقط قد فعل اشياء عظيمة جليلة فماذا ينبغي ان نفعل نحن في ممالكنا التي تكاثرت بها المصنوعات عدة قرون وسهلت كل شيء علينا

ومن غريب الاتفاق ان خلف الامبراطور بطرس على

سرير ملكهِ بالتعاقب اربع نسوة وجميعهن سرينَ مسراهُ وحافظن على العمل في جميع ما ابدعهُ وكملنَ وحسنَّ جميع ما شرع في فعلهِ . وهن كاترينا وحنة بترونا واليصابات وكاتريسا الثانية وسيذكر في المجلد الثاني ما كان من امرهن وفتوحاتهن مع امور من اعقبهن من الملوك الى تاريخ حرب القريم المعروف بحرب سبستوبول

انتهى

الخاتمة

انهُ لما كان كثير من ابناء لغتنا العربية يتوقون الى معرفة تاريخ روسيا الحديث وخصوصاً تاريخ بطرس الكبير الذي فاق سواهُ بكل اجراءاتهِ فنقل روسيا من حضيض التاخر الى اوج التقدم وجعل لها المقام الاول بين الدول المتمدنة حتى صارت كوكباً لامعاً يضي في افق العالم بادرت الى طبعهِ وتنسيقهِ على طريقة مالوفة فجعلت هذا المجلد شاملاً لبداية عائلة رومانوف

والحياة بطرس الكبير واعمالهِ العجيبة التي اشغلت عـــالم ايامهِ واستيلائهِ على عدة اقاليم كما سياتي في محلهِ وسيلي هذا المجلد المجلد الثاني ويشتمل على تاريخ كاترينا ومن تولى بعدها الى وقوع حرب سبستبول. والمجلد الثالث يتعلق بحرب سبستوبول فقط والرابع الى نهاية اليوم الذي ينتهي فيهِ وعليهِ فالتمس من ذوي الغيرة والحمية وارباب الكرامة ان يعذروني لدخولي في هذا الباب مع معرفتي بعجزي عنهُ اذ ليس العصمة الاّ لله سبحانهُ فهو حسبي ونعم الوكيل

تنبيه

قد وقع بعض اغلاط مهمة وطفيفة في هذا الكتاب ولاسيما في الصفحة ٢٠٢ حيث ذكر في سطر ١١ ثم ان بطرس والصحيح ثم ان كارلوس اي عوض بطرس كارلوس وكذلك في السطر الاخير من هذه الصفحة ذكر بطرس غلطاً والصحيح كارلوس فنترك هذا الى ذكاء وفطنة القاري